منشورات جامعة حلب
كلّيّة الآداب والعلوم الإنسانيّة



تحليل نصوص
من الأدب الأندلسي

الأستاذ الدكتور
أحمد عبد القادر صلاحيّة

لطلّاب السنة الثالثة
قسم اللغة العربيّة

مديريّة الكتب والمطبوعات الجامعيّة
١٤٤٤هـ - ٢٠٢٣م

المحتوى

المحتوى ٧

المقدّمة ٥- ٦

الباب الأول تحليل الشعر الأندلسي ٧- ٩٨

الفصل الأوّل: تحليل نص من الشعر الأندلسي ٩- ٥٥

قصيدة رثاء جوهرة لابن حمديس

الفصل الثاني: نصوص من الشعر الأندلسي ٥٧- ٩٨

نصّ من شعر الرمادي ٥٩

نصّ من شعر ابن درّاج ٦١

نصوص من شعر ابن شهيد ٦٤

نصوص من شعر ابن زيدون ٧١

نصوص من شعر المعتمد ٧٦

نصّ من شعر الحصري ٨٥

نصّ من شعر ابن خفاجة ٨٧

نصوص من شعر ابن الخطيب ٨٩

الباب الثاني: تحليل النثر الأندلسي ٩٩-١٩٧

الفصل الأوّل: تحليل نص من النثر الأندلسي ١٠١-١٦٠

مقدمة كتاب الذخيرة لابن بسام

الفصل الثاني: نصوص من النثر الأندلسي ١٦١- ١٩٧

نصوص من نثر الحميدي ١٦٣- ١٧٥

نصوص من نثر ابن خفاجة ١٧٦- ١٩٧

بسم الله الرحمن الرحيم

المقدّمة

تحليل النصوص وتفكيكها، ومن ثمَّ تركيبها وتقويمها عمليّة عقليّة إبداعيّة في آن واحد ولا بدّ لتذوّق النصّ الأدبيّ من محبّته، أو محبّة عملنا فيه، ولا بدّ قبل الدخول إلى حرم النصّ من الوضوء بماء العلم والنقد، ولا بدّ قبل تشريحه من امتلاك مبضع جرّاح ماهر.

إنّ الولوج في مجاهيل النصوص الأدبيّة وتحليل أساليبها وتشريح نسيجها قد غدا أمراً عسيراً ، وأمسى تحليل النصّ الأدبي – وهو من أهمّ مجالات النقد الأدبي الحديث – باباً موصداً يتخوّف الدارسون فتحه والدخول إلى مجاهيل النصّ وغياهبه، ويتهيّبه الأساتذة قبل الطلاب ويستصعبه دارسو الأدب الذين اتّخذوا فيه طرائق قدداً؛ فنفر من الدارسين من ذوي الاتجاهات القديمة الذين لم يدرسوا المناهج الحديثة في تحليل الأسلوب يقومون بذمّ هذه المناهج وهم لا يكادون يعرفون شيئاً ذا بال عنها، وتظلّ دراسة الأدب وشرحه طريقة مدرسيّة وَفْق خطوات معروفة ونماذج محفوظة، وفي قبالة أولئك نفر من الدراسين من ذوي النزعات الحداثيّة الذين أنحوا باللائمة على كلّ ما هو تراثي ونعوا على أصحابه تقليدهم القدامى في مناهجهم، وتقصيرهم عنهم وتقيّدهم بحبالهم وتقوقعهم في جحورهم فراحوا إلى معطيات النقد الغربي الحديث يهرعون، وسعوا إليه يزفّون، ونسوا أنّهم يمتحون من آبار غيرهم كما وسموا التقليديّين بذلك، زيادة على ما في مقاييسهم المستعارة من خطأ لأنّها مصمّمة لجسد أدبي غير الذي فُصِّل له.

وثلّة من الدارسين حاولت الجمع بين المناهج القديمة والحديثة معاً، فليس كلّ قديم ضحلاً وليس كلّ حديث عظيماً، ولا كلّ تراثي مقدساً ولا كلّ حداثي مدنّساً.

ولقد نهجنا هذا المنهج الوسط منذ تكليفنا بتدريس تحليل الأدب الأندلسي والمغربي في عام(١٩٩٨م)، ومن ثمّ أسند إلينا في الأعوام التالية تحليل نصوص الأدب الإسلامي

والأدب العباسي والأدب المملوكي إلى جانب تحليل الأدب الأندلسي- الذي هو اختصاصنا الدقيق – إذن فهذه الدراسة هي ثمرة من ثمار سنوات طوال زادت على ربع قرن في ممارسة النقد الأدبي والتحليل الأسلوبي الأدبي؛ اعتمدت فيها -كعادتي – على المناهج التراثيّة والحداثيّة في إطار منهج تكاملي تعدّدي يستفيد من معطيات التراث والحداثة في آن معاً، لأنّه من الأهمّيّة بمكان عال ألّا يقتصر الدارس على منهج ما بعينه، مع العلم بأنّ النصّ ذاته هو الذي يفرض اهتماماً خاصّاً بمنهج معيّن من دون إغفال سائر المناهج، وعلى تنوّع مناهج الدراسة وتفرّق طرائق التحليل فإنّها تجمع على البدء بفهم النصّ المدروس فهماً صحيحاً عميقاً ثمّ تفترق في دراسة المستويات الأخر، فالعمل الأدبي كما يقول رينيه ويليك «بنية ذات طبقات من الرموز والمعاني».

وإنّ المنهج الأسلوبي التكاملي الذي اعتمدناه ينطلق بعد المستوى الدلالي الفكري للنص إلى التدرّج في العناصر المكونة للنصّ فيبدأ من الهيكل الكبير حتّى ينتهي بالحرف الصغير بل بالحركة الإعرابيّة، فيستأنف بدراسة الشكل من مستوى البنية العامّة إلى مستوى التركيب إلى المستوى المعجمي إلى المستوى الموسيقي وأخيراً مستوى الصورة الفنّية.

وقد استعضنا الإشارة اللامحة الدالّة بالشرح المطوّل المسهب، والتزمنا الحيدة فلم نلبس مسوح المحاماة لنصوصنا المنتقاة ولا مسوح المدّعي العامّ المتعصّب عليها بل ذكرنا ما لها وما عليها، ولم تكن الأحكام القيميّة لدينا ذات شأن بل التحليل العميق والتشريح الدقيق للأسلوب الأدبي وتركنا الحكم للقارئ، كما أهملنا الأحكام المسبقة والآراء الجاهزة الجائرة.

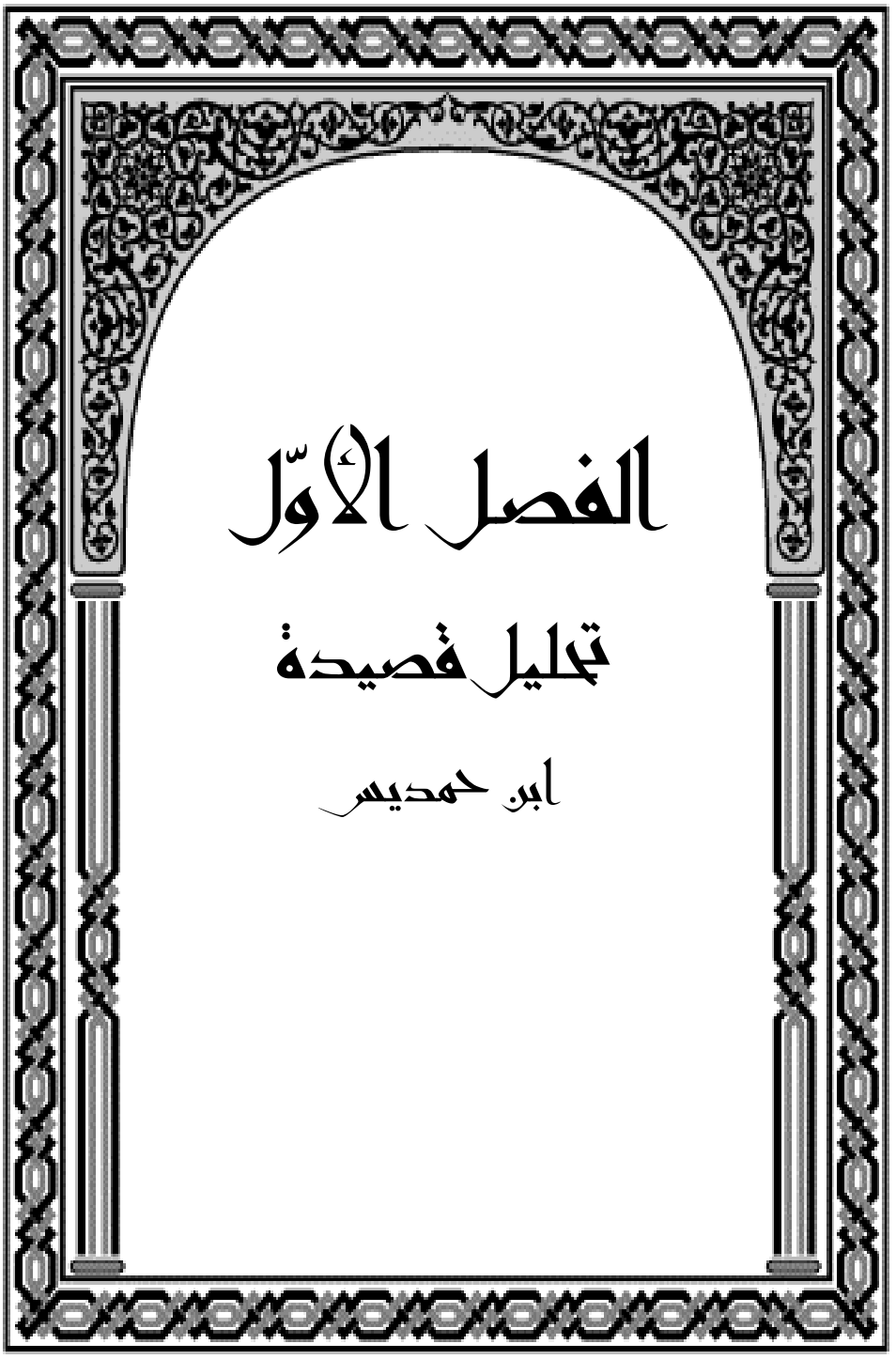
ومن هنا فإنّ للتحليل العلمي المنهجي أهمّيّة كبيرة للنصّ وصاحبه تتجلّى في إصلاح كثير من الأوهام التي تتعلّق بأدب الأديب ومستواه خاصّة، وأدب العصر الذي يعيش فيه ومستواه عامّة، كما أنّ للتحليل أهمّيّة كبيرة للقارئ والناقد... لن أتّسع في الإطار النظري إذ إنّ جلّ اهتمامي منصبّ على استكناه النصّ الأدبي والغوص في أعماقه واقتناص لآلئه.



الباب الأول

تحليل

الشعر الأندلسي



الفصل الأوّل

تحليل قصيدة

ابن حمديس

رثاء جوهرة

ابن حمديس الصقلّي[1]

١- يهـــدمُ دارَ الحيـــاةِ بانيهـــا ... فـــأيُّ حـــيٍّ مخلّـــدٌ فيهـــا

٢- وإنْ تـردّتْ[2] مـنْ قَبْلِنَـا أمـمٌ ... فَهْـيَ نفـوسٌ رُدّتْ [3]عواريهـا

٣- أَمَـــا تراهـــا كأنَّهـــا [4]أُجُـــمٌ ... أَسْـــوَدُها[5] بيننَـــا دواهيهـــا

٤- إن سـالمتْ وهْـيَ لا تسـالِمُنَا ... أيّامُنـــا حاربـــتْ لياليهـــا

٥- واوحشـتا مـنْ فـراقِ مؤنسـةٍ ... يميتنـــي ذكرُهـــا ويحييهـــا

٦- أذكُرُهَـــا والـــدموعُ تســـبقني ... كـــأنّني للأســـى [6]أجاريهـــا

٧- يا بحرُ أرخصتَ غيرَ مكترثٍ ... مَـنْ كنـتُ لا للبيـاع أُغليهـا

٨- جـوهرةً كـانَ خـاطري صـدفاً ... لهـــا أقيهـــا بـــهِ وأحميهـــا

٩- أَبَتَّهـــا فـــي حشـــاكَ مُغْرَقَـــةً ... وبـــتُّ فـــي ســـاحلَيْكَ أبكيهـــا

١٠- ونفحةُ[7] الطيبِ في ذوائبها ... وصـبغةُ الكحـلِ فـي [8]مآقيهـا

١١- عانَقَهـا البحـرُ ثـمَّ فارقهـا ... عـنْ ضـمّةٍ فـاضَ روحُهـا فيهـا

١٢- ويلي من الماءِ والترابِ ومنْ ... أحكـامِ ضـدّينِ حُكِّمَـا فيهـا

١٣- أماتَهـــا ذا وذاكَ غَيَّرَهَـــا ... كيـفَ مـنَ العنصـرينِ أَفـديها

١- ديوان ابن حمديس: ٥١٧-٥١٨.

٢- رَدِيَ وتردَّى في البئر: تهوَّر في مهواة، وسقط ومات.

٣- العَارِيَة والعَارِيَّة والعَارَة: ما تداوله الناس بينهم، جمعها: عواريُّ وعوارٍ، وعاره الشيء: منحه إيّاه عاريةً .

٤- الأَجَمَة: الشجر الكثير الملتفّ، الجمع (ج): أَجَم، وجمع الجمع (جج):إِجَام، وجمع جمع الجمع (ججج): أُجُم وأُجْم، وجمع جمع جمع الجمع (جججج): آجام .

٥- الأَسْوَد: العظيم من الحيّات وفيه سواد، جمعها: أساود وأساويد وأسودات .

٦- أجاريها: أجري معها وأتابعها.

٧- نَفَحَ الطيبُ: أَرج وفاح، والنفحة من الطيب: فوحته، وتكون من غيره، جمعها: نَفَحَات .

٨- المُؤْق والمَأْق والمؤقي(ج): المآقي، من العين: طرفها ممّا يلي الأنف، وهو مجرى الدمع منها، وقيل هو المأق، والمؤخّر: المؤق.

حياة الشاعر:

هو أبو محمّد عبد الجبّار بن أبي بكر بن محمّد بن حمديس الأزديّ الصّقلّيّ[1].

ولد سنة (٤٤٧ هـ) في صقلّيّة، ونشأ وترعرع فيها، وفي سنة (٤٧٠ هـ) غزا ملك النورمان رجّار صقلّيّة، ونزل بها، ولم يستطع الصقلّيّون دفع هذا الغزو فنزح ابن حمديس إلى صفاقس سنة إحدى وسبعين وأربعمئة، وأقام مدّة يسيرة في إفريقيّة، ومدح بعض ملوكها ولكنّه لم يجد فيها ما يشدّه إليها، فعزم الرحيل إلى الأندلس واصطحب ولداً واحداً معه، وترك زوجه وسائر أولاده وبناته، وفارق ابن حمديس أحبّته مضطّراً، وسافر عبر البحر لشؤونه، فيضجّ الحنين وتلفحه نار الشوق فيخرج هائماً على وجهه فيجد قدميه قد أوصلتا جسده المتعب إلى شاطئ البحر، فيزوره يرقب إياب سفينة لا ترجع، فيتمازج مع البحر، ويتوحّد معه فيصير هو نفسه بحراً تطفح عيونه بلآلئ الدمع الرطيب النديّ:

كَمْ ذا يَزورُ البحرَ بحرُ أسى ... في العينِ منكَ جمانُهُ رَطْبُ[2]

وينظر ابن حمديس فلا يرى إلّا زرقة البحر الممزوجة بزرقة السماء ويطول انتظاره، وينفد الصبر، ويضعف الجلد، فلا يجد إلّا الأماني يتعلّق بحبالها الواهية[3]:

وراءَكَ يا بحرُ لي جنّةٌ ... لبستُ النعيمَ بها لَا الشقاءَ

إذا أنَا حاولتُ منهَا صَبَاحاً ... تعرّضتْ مِنْ دونِهَا لي مساءَ

فلو أنّني كنتُ أُعْطَى المنَى ... إذْ منعَ البحرُ منها اللقاءَ

ركبتُ الهلالَ بهِ زَورقاً ... إلى أنْ أعانقَ فيهَا ذُكَاءَ

إذاً فقد دخل الأندلس سنة (٤٧١ هـ) أي في عهد دويلات الطوائف المتصارعة ومكث زمناً فيها، وانتقى أكثر الأمراء محبة للأدب «فمدح المعتمد بن عبّاد، وأحسن إليه

١- **وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان: ٣ / ٢١٢.**

٢ - **ديوان ابن حمديس: ٨.**

٣- **الديوان: ٤.**

وأجزل عطاياه»[1]، وابتسم الزمان لابن حمديس زمناً، فذاع صيته، ولمع نجمه، وعاش منعّماً وغشي مجالس الطرب واللهو، وحضر المجالس الأدبيّة، وساجل الشعراء غير أنّ الزمان لم يدع ابن حمديس يهنأ طويلاً بل نغّص عليه عيشه بأمور متعدّدة منها: توالي سقوط المدائن الصقلّيّة وسقوط مدينته سرقوسة وسقوط الدولة العبّاديّة، وأسر المعتمد في رجب سنة (٤٨٤هـ) ونقله إلى طنجة في المغرب ثمّ منها إلى أغمات، فبقي ابن حمديس في الأندلس زمناً قصيراً بعد المعتمد.

ثمّ قرّر أن يهجر الأندلس ويلحق بالمعتمد في منفاه في المغرب وفاء ومحبة له، وفي طريق البحر انكسر المركب الذي يقلّه، وماتت جاريته جوهرة التي أهداها المعتمد إليه ونجا ابن حمديس بفضل الله، لذلك فإنّ لابن حمديس مع البحر قصّة طويلة زاخرة بالعاطفة الحزينة، وثأر مطلول بلا عقل ولا قود، فقد سرق منه جوهرته التي يضنّ بها في أثناء رحيله من الأندلس إلى المغرب، إذ عطب المركب الذي يقلّهما فغرقت جاريته جوهرة لتكفّنها الأصداف، يذكر ابن حمديس هذه الواقعة الأليمة ويبكي جاريته بدموع حمر يعقبها نزيف الروح:

أقــولُ للبحــرِ إذْ أغشــيتُهُ نَظَــرِي ... مَــا كَــدَّرَ العــيشَ إلَّا شــربُها كَــدَرَكْ

هــلَّا كففــتَ أُجَاجــاً منــكَ مــنْ أَشَــرٍ ... مــنْ ثغــرِ لميــاءَ لَــولا ضــعفُهَا أَسَــرَكْ

هــــلَّا نظــــرتَ إلى تفتــــيرِ مُقْلَتِهَــــا ... إنّي لأعجــبُ منــهُ كيــفَ مَا سَحَرَكْ[2]

ووصل ابن حمديس إلى أغمات، فسمع به المعتمد وأرسل إليه والتقاه، وتبادلا الرسائل الشعريّة.ونقّب ابن حمديس في بلاد المغرب الأقصى فالأوسط، فالأدنى، إفريقيّة، ليستقرّ عند بني باديس الصنهاجيّين، فيمدح يحيى بن تميم، ثم يمدح ابنه وحفيده ،وبعض أمراء المناطق.وألقى ابن حمديس عصا التسيار في بجاية لدى بني حمدون وفيها توفّي في شهر رمضان سنة (٥٢٧ هـ)[3]. رحمه الله تعالى.

١- وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان: ٣ / ٢١٤

٢- الديوان:٥١٧ - ٥١٨

٣- وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان: ٣/ ٢١٥،كشف الظنون ١ /٢٩٠

مستويات التحليل التكاملي:

أولاً: مستوى المضمون:

لا بدّ قبل أيّ تحليل عميق من الفهم الدقيق للمعاني التي تحملها القصيدة، وهذا الفهم يمرّ بمراحل متعدّدة؛ من الشرح الأوّليّ إلى تحديد النظائر الدلاليّة إلى التحليل اللغويّ المعنويّ وفق السياق، ومن ثمّ استنتاج خصائص المعاني.

هذه صورة مسكونة بشيء غير يسير من السحر، ممزوجة بحنين عاصف في مرثية- توشك أن تكون صلاة- تقطر حزناً وترشح ألماً تصوّر قلبه الذي لا يطيق على فراقها صبراً فيأخذ منه الحزن كلّ مأخذ، ونفسه التي ذهبت عليها حسرات، وتروي ذلك الحدث الفاجع.

١- الشرح الأوّلي:

بـ١: يبدأ الشاعر ابن حمديس الصقلّي بتمهيد لغرضِه الشعري بعرض رؤية خاصّة للحياة فيقول: إنّ مَنْ ينقض دار الحياة ويسقطها هو نفسه الذي يبنيها، لذلك لا خلود لأيّ حيّ فيها.

بـ٢: ولا عجب من هلاك الأمم الماضيات السابقات، فإنّما النفوس عارية مستردّة ترجع إلى صاحبها.

بـ٣: ينظر فيه الشاعر إلى الجانب المظلم من الحياة، فيقول كأنّ الحياة غابة كثيفة تخفي الخبيث من الحيّات التي هي مصائب الدنيا.

بـ٤: وهي في حالة حرب مستمرّة علينا، فإنْ سالمتنا الأيّام- وهذا محال- فإنّ الليالي تحاربنا وتؤذينا.

بـ٥: ينتقل الشاعر إلى رثاء جاريته جوهرة، فيذكر أثر فراقها فيه، ويندب نفسه لفقد التي كانت تؤنسه وتزيل وحشته، والتي يميته ذكرُه لها ويحييها في قلبه.

ب٦: ويقول: كلّما أذكرها فإنّ الدموع تسبقني، وكأنّني أتنافس معها في الأسى والحزن.

ب٧: ويخاطب البحر قائلاً بأنّك بخست ثمن جاريتي الغالية، وهي ليست للبيع، من دون مبالاة منك.

ب٨: أرخصتَ جوهرةً نفيسة كنت أحميها وأقيها في صدف خاطري.

ب٩: جعلتها تغرق ليلاً في أعماقك، بينما تركتني أبكيها في شواطئك.

ب١٠: ويصف مرثيته في أثناء موتها بعطر ذوائبها الفوّاح وتجملّها بالكحل.

ب١١: لقد ضمّها البحر ضمّة، وعانقها عناقاً شديداً أدّى لموتها.

ب١٢: ثمّ يلوم الشاعر عنصري الماء والتراب المتضادّين اللذين تحكّما بجوهرته.

ب١٣: فالماء أغرقها وأماتها والتراب غيّر محاسنها، فيتساءل كيف ينقذها ويفديها من العنصرين الأزليّين.

٢- النظائر الدلالية:

وهي مجموعة الأفكار التي تسير في نسق واحد، وتعبّر عن موضوع واحد أو موضوعات متقاربة، ونظائر النصّ هي:

- **النظيرة الأولى**: فناء الناس، وتشمل فكرتي تهدّم دار الحياة، وموت الأمم (ب١ -٢)
- **النظيرة الثانية**: مصائب الحياة وقسوتها، وتشمل تصويرها بغابة مليئة بالحيّات ومحاربتها للناس (ب٣-٤)
- **النظيرة الثالثة**: أثر ذكر المرثيّة فيه، موته وحياتها، مسابقته للدموع (ب٥-٦)
- **النظيرة الرابعة**: إغراق البحر لجوهرته، وفيه أفكار: إرخاص جوهرته الغالية، حماية الشاعر لها، غرقها ليلاً وبكاء الشاعر عليها وبحثه عنها، وصف الجوهرة، سبب إغراق البحر لها هو حبّه لها (ب ٧-١١)
- **النظيرة الخامسة**: تفجّع الشاعر وتحسّره عليها (ب ١٢-١٣)

٣- التحليل اللغوي المعنوي:

يبثّ الشاعر مشاعره ومعانيه بأسلوب سرديّ وخطابيّ في هذا النصّ الغنائيّ الذي تتتابع نظائره الدلاليّة لتكوّن كلّاً دلاليّاً ، وسوف نتتبع المضمون أي المعنى مشكّلاً في هذه النظائر بيتاً فبيتاً:

النظيرة الأولى: حتميّة الفناء (الآخر)

ب١: يهدم دار الحياة بانيها:

بدأ الشاعر قصيدته بفعل، والفعل يدلّ على حدث في زمن ما، وانتقى من الأزمان الزمن المضارع، والمضارع يفيد الاستمراريّة في الحدث، أمّا الحدث الذي انتقاه لبدء قصيدته فهو الهدم وهو النقض والإسقاط، إذاً فالهدم ذو الدلالة السالبة حاضر ومستمرّ.

أمّا فاعل هذا الفعل فمتأخّر عنه لغرض معنويّ بلاغيّ، وهذا الهدم يقع أثره على الدار، فكأنّنا نرى الهادم يهوي بمعوله أو فأسه على حيطان الدار، فينقض بنيانها ويسقط أسقفها، ولكنّ هذه الدار ليست داراً حقيقيّة إذ تضاف إلى شيء معنوي وهو الحياة فتغدو "دار الحياة" أو تغدو الحياةُ داراً تدبّ فيها الحركة، وهذا الهدم لا يقتصر على الدار بل يصل إلى الحياة أي تهدم الحياة وتفنى.

وأخيراً يأتي فاعل الهدم مصرّعاً كمصراع باب الدار، ليزيد الأمر دهشة فالذي يقوم بفعل الهدم هو الباني نفسه، ويحدث مفارقة شعوريّة تثير الاستغراب وتنثر رماد اليأس، ويتّصل الفاعل بالضمير "ها" العائد على دار الحياة، ليؤكّد الحدث بنوعيه البناء ثمّ الهدم.

لذلك يستفهم الشاعر في الشطر الثاني وينفي – في الوقت نفسه– بقاء أيّ حيّ يحمل صفة من صفات الحياة خالداً في هذه الدار، أي ليس هناك من حيّ مخلّد فيها، ومخلّد اسم مفعول من خُلِّد أي جُعِل خالداً، ولا نعلم مَنْ خلّده أو ما خلّده في هذه الحياة الدنيا.

ويلفت الانتباه أنّ الشطر الثاني كان جملة اسميّة كلّ عناصرها من الأسماء، والجمل

الاسميّة تدلّ على الثبوت والاستقرار، وكأنّ ما يقوله حكمة ثابتة راسخة، فالاستفهام الإنكاري يدلّ على النفي أي لا حيّ مخلّد في هذه الدار.

ب٢: ثم يسوّغ هذا الفناء أو الإفناء بطريقة مشابهة إذ يذكر في صدر البيت الثاني جملة شرط فعليّة جوابها جملة اسميّة، فيقول "إن تردّت..." والتردّي يحمل معنى الهلاك والسقوط في مهوى كالبئر ونحوه، وفصل الشاعر بين الفعل وفاعله بشبه الجملة المجرورة "من قبلنا" ليدلّ على الاستغراق في القدم، ويضيف قبل إلى "نا" الجماعة ليظهر الشاعر أوّل ظهور له ضمن الجماعة، ويأتي الفاعل "أمم" نكرة بصيغة الجمع، جمع أمّة، والأمّة ذاتها تدلّ على جمع غفير من الناس أو على جيل من كلّ شيء، ليهوّل الأمر، فالمتردّون أجيال كثيرة، ثمّ ليهوّنه في جواب الشرط الذي جاء بصيغة الجملة الاسميّة المرتبطة بالفاء "فهي نفوسٌ.." مستعارة أُعيدت إلى صاحبها الحقيقيّ، لتكون أشبه بالحقيقة الثابتة الراسخة، فلا عجب بعد ذلك ولا حزن بسبب التردّي الهائل للأمم السابقة، وردّت: جاءت بصيغة الماضي المبني للمجهول ليبتعد عن ذكر الفاعل "الموت" الذي يقوم بإعادة النفوس إلى مكانها الأوّلي.

النظيرة الثانية: مصائب الحياة (الآخر)

ب٣: أما تراها، استفهام تقريري استأنف به الكلام، ليشارك الآخر الغائب العام معه الرؤية القلبيّة للحياة في الوقت الحالي المضارع "تراها" أي أما تراها – الآن– مثلما أراها ومثلما أصوّرها لك بصورة تقريبيّة تشبيهيّة؛ "كأنها أُجُمٌ"، والأَجَمَة: الشجر الكثير الملتفّ وجمعها: أَجَمٌ، وجمع الجمع: إجَام، وجمع جمع الجمع أُجُمٌ، أي هي كالغابات المخيفة التي تحتوي على مختلف النباتات والحيوانات وأخطرها الزواحف، الأساود أو الأَسْوَد بصيغة الإفراد أي الحيّة الخبيثة وهذه الحيّة هي دواهي الحياة ومصائبها بصيغة الجمع، فالأَسْوَدُ الواحد يساوي أو يؤدّي إلى إحداث المصائب الكثيرة، وهذا الأَسْود هو بيننا، وهذه البينيّة تدلّ على الاندساس والخفاء والمعيّة، فهو معنا وبيننا ولكن لا نشعر به إلّا عندما يعضّنا أو يعضّ أحبابنا عضّات قد تكون مميتة.

ب ٤: ويزيد الشاعر من قسوة الحياة وسوادها في البيت الرابع فيبدأ بأداة الشرط "إنْ" التي تفيد التشكّك والتقليل على خلاف إذا التي تفيد التحقّق والتأكّد، ففعل الشرط "سالمت" مشكوك في تحقّق حدوثه وهو المسالمة، وصيغة سالمَ فاعلَ وشارك أي الحياة تشارك في المسالمة مع الناس، فهو يشخّص الحياة أو الأيام تشخيصاً إنسانيّاً، فهي قد تسالم الناس وقد لا تسالمهم، ولكنّه فصل بين الفعل وفاعله بجملة اسميّة تزيد الأمر يأساً، وهي لا تسالمنا، فهي تفيد الثبات والاستقرار، فالقاعدة الأساسيّة والسمة الرئيسة لها عدم المسالمة، فهو بذلك ينفي فعل المسالمة المشروط، وينفي فعلها قبل أن يذكر فاعله، ويلغي حدث الجملة الفعليّة قبل أن تكتمل "إن سالمت... أيّامنا، فالأيّام هي الفاعل المؤخّر والفاعل "غير الفاعل"، والأيّام هي جمع يوم، واليوم: من طلوع الشمس إلى غروبها وقد يراد به ما يشمل النهار والليل معاً أي من الطلوع إلى الطلوع أو من الغروب إلى الغروب في اليوم التالي.

وهذه الأيّام ينسبها الشاعر إلى أنفسنا "أيّامُنا"، وفي هذا تشديد للمعنى، فالأيّام التي تعود ملكيتها لنا لا تسالمنا فمَا بالكم بالأيّام الأُخر، ثمّ يأتي جواب الشرط أخيراً بصورة تزيد المعنى قتامة وقسوة وسوداويّة "حاربت لياليها" فقد شخّص الليالي كذلك وجعلها تصارع الناس وتغالبهم وتقاتلهم، ونتيجة ذلك أنّ المصائب دائمة وأنّ صراع الإنسان مع الحياة مستمّر، ويلفت الانتباه أنّه نسب الأيّام المسالمة أحياناً لنفسه، ونسب الليالي المحاربة دائماً إلى الحياة.

النظيرة الثالثة: أثر ذكر المرثيّة فيه (الشاعر/ الجوهرة)

ب٥: ويصوّر فيه حزنه الشديد على جاريته ويبدأ بواو النُّدْبَة نادباً حياته السالفة، صارخاً بصوت مرتفع لاستيحاشه من الناس وعدم استئناسه بهم بسبب فراق مؤنسة ؛كانت من قبل تؤنسه، وهو اليوم مستوحش من دونها، أو كأنّ الفراق صار وحشاً ضارياً يؤذي الشاعر الذي لا يفتأ يذكر جوهرته، ويشخّص ذكرها الذي يجرّ عليه آلاماً جساماً فهو يميت الشاعر بصيغة الفعل المضارع أي يميته في كلّ لحظة يذكرها فيها، ولذكرها في الوقت

نفسه فعل آخر معاكس للموت وهو الإحياء حتّى ليكاد يتمثّلها الشاعر ويتحسّسها أمامه.

ب٦: ويعود في البيت التالي لذكر المحبوبة وأثره فيه، بالفعل المضارع أذكرها الذي يدلّ على الحاضر والاستمرار، أي هو لا يفتأ يذكرها، ثمّ يردف بجملة اسميّة حاليّة، والدموع تسبقني، فالدموع- بصيغة الجمع- لتهوّل الموقف، تشخّص بإسناد الفعل المضارع إليها "تسبقني" فهو يتكلّم بلسان الدمع، والدموع تسبق الشاعر، وكأنّه يباريها ويجاريها، والنتيجة فوز الدموع دائماً وهو يجاريها للأسى والتأسّي أي للعلاج من الحزن والمداواة منه، أي ليخفّف عن نفسه من شدّة الحزن، والأسى كذلك - الحزن- فيكون المعنى كأنّني أجاريها بمقدار الحزن وشدّته.

النظيرة الرابعة: لوم البحر (الشاعر- البحر- الجوهرة)

ب٧: يصرخ الشاعر في ندائه الغاضب للبحر ويشخّصه تشخيصاً إنسانيّاً ويجعله تاجراً متهوّراً يرخص الغالي، فالإرخاص من مفردات حقل التجارة والبيع والشراء، فيقول له أنت أرخصت بصيغة الماضي أي تمّ الإرخاص وانقضى الأمر، أرخص من كان يغليه الشاعر بصيغة المضارع أي حطّ البحر من قيمة شخص غالي القيمة مرتفع الثمن لا لغرض البيع بل لمكانته العالية عند الشاعر، ويعترض في هذا البيت مرّتين، فالبحر أرخص الجوهرة- غير مكترث- فاعترض بين فعل الإرخاص ومن وقع عليه الفعل مصوّراً بعبارة مفاجئة هذا البحر، فالبحر لا يقدّر قيمة من أغرق، في قبالة صورة الشاعر الذي كان يغلي هذه الجارية، واعترض بعبارة -لا للبِيَاع- بين اسم كان وخبرها كنتُ... أغليها ليبيّن شدّة حرصه عليها وتقديره لها.

ب٨: جوهرة محبوبة الشاعر وجاريته الغريقة، وقد تكون منصوبة على البدليّة من مَنْ "أرخصت... مَنْ" أو تكون مرفوعة أي هي جوهرة، وتأتي الجملة بعدها لتصف حياطته لها واهتمامه بها فهي إن كانت جوهرة أو لؤلؤة فهو قد جعل خاطره أو هاجسه وكلّ ما يخطر على القلب من تدبير أو أمر أو رأي، صدفاً في سبيل حمايتها، والصورة غريبة

فكيف يقيها بالخاطر، وهو شيء معنوي ويحوله إلى القشر المادي الصلب المنيع للصدف، وليس صدفة واحدة، فكيف للؤلؤة واحدة أن تحمى بكل الصدف، ولعلّه يريد أن يجمع كلّ الأصداف ليشكّل وقاية كاملة لها من الآخرين، أو لعلّه يعني أنّه يصونها من سائر الهواجس ويمنع صور جميع الخواطر من أن ترد على خاطره فقد أغلق خاطره على لؤلؤة ارتضاها واقتصر عليها فبذلك يحميها ويصونها ويحفظها من الأذى الناجم عن مزاحمة الأخريات لها، كما أنّها لا تغيب عن ذهنه ولا تذهب من خلده.

وكرّر فعلي الوقاية والحماية بصيغة المضارع ليدلّ على استمرار هذين الحَدَثَيْن؛ الوقاية: وهي الحفظ والصيانة، ثمّ الحماية، وهي الصيانة والمدافعة عن حبيبته، فهو ما يزال يصونها ويحفظها ويمنعها ويدافع عنها.

ب٩: أبتَّها في حشاك... يخاطب البحر الذي شخّصه تشخيصاً إنسانيّاً ويلومه فيقول له كيف جعلتها تقضي مبيتها ليلة الحادثة في حشاك، والحشا ما ضمّت عليه الضلوع أو ما تحتوي البطن، أي ابتلعها البحر حتّى وصلت إلى الحشا منه بعد أن أُغرقت، ولم يقل للبحر أغرقتَها، ولم ينسب الإغراق إليه بل جعل الذي قام بذلك مجهولاً.

وفي قبالة صورة الحبيبة المُغْرقة ليلاً في حشا البحر، صورته وهو يقضي ليلة الحادثة ساهراً لا يقرّ له قرار، متنقّلاً بين ساحلي بحر الزقاق عند مضيق جبل طارق بين الأندلس والمغرب باحثاً عن حبيبته باكياً عليها.

وإن كانت الصورة الأولى تصوّر حبيبته مغرقة مسلوبة الإرادة والحركة والبحر هو صاحب الفعل، فإنّ الشاعر في الصورة الثانية هو صاحب الفعل، كثير الحركة والانتقال بين العُدْوَتَيْن، وإن كانت الحبيبة مغرقة في البحر، فهو كذلك غريق ببحر الدمع الناجم من البكاء بالفعل المضارع أبكيها.

ب١٠: يصف حبيبته المغرقة، والدم في عروقه يكاد يتجمّد، فكيف للبحر أن يفعل هذا الفعل الشنيع لمن هي كالربيع، نضرة عطرة، مليحة حسناء، كيف يغرقها وفوحة العطر وشذاه لم يزل باقياً في ذوائبها أي ضفائرها المرسلة، أو النواصي أو منبتها من الرأس،

وغالباً ما تهتمّ الفتيات الصغيرات بالضفائر أي إنّ حبيبته لم تزل في مقتبل العمر صغيرة السنّ تهتمّ بنفسها وتطيّب شعرها.

وكيف يستطيع البحر أو تطاوعه نفسه ويداه في ابتلاعها بحشاه، والكحل الأسود الراسخ كأنّه صبغة ، لم يَزُلْ ولم يَحُل ولم يتغيّر، ولم يَزَلْ في مؤقَيْها، والمؤق هو طرف العين ممّا يلي الأنف، وهو مجرى الدمع منها، وقيل المَأْق هو القريب من الأنف، والمؤخّر أو الطرف الآخر هو المؤق، واستخدام الجمع بدل الإفراد أو التثنية في العيون وتوابعها كثير معروف لأنّ العين أجمل ما في وجه المرأة والشاعر يرى وجه حبيبته جميلاً، فلا غرو أن يرى عينيها عيوناً.

إذاً فقد سجّيت حبيبته وهي في أجمل هيئاتها وأعطر حالاتها، ولم يستطع البحر أن يزيل فوحة العطر ولا أن يمسح صبغة الكحل – على غير العادة– بل هي ثابتة راسخة ثبوت الجملة الاسميّة في شطري البيت الذي لم تظهر فيه سوى الحبيبة الجميلة.

ب١١: ويذكر فيه سبب إغراق البحر لجوهرته وهو عشق البحر لها وولعه بجمالها فلم يظهر في هذا البيت سوى البحر والجوهرة، وقد غيّر الشاعر من صيغة الكلام من المخاطب: يا بحرُ.. أبتّها، إلى الغائب: عانقَها البحر، فقد شخّص هذا البحر كعملاق صغير، وعانق: أي أدنى رقبته من رقبتها، وجعل يده على عنقها، وضمّها إلى صدره بشدّة مدّة عبّرت عنها "ثُمَّ " التي تفيد المشاركة في الحكم والترتيب مع التراخي والتمّهل، ثمّ فارقها، أي تركها وباينها بعد انتهاء ضمّ البحر العاشق لها، وعانق وفارق لا يحملان معنى مشاركة الطرف الآخر في الفعل أو الإحساس، ولو كان ذلك لقال تعانقا تفرّقا.

عن ضمّة أي بعد عناق وجذب وقبض، فاض روحها فيها: فاض ويقال: فاظ وهو الأكثر والأفصح، والروح تذكّر وتؤنّث أي خرجت روحها بسبب هذه الضمّة الشديدة ولولا شدّتها لما فاضت روحها فيها.

وكثرة الأفعال في هذا البيت تدل على شدّة الانفعال وتأجّج المشاعر في هذا البيت الذي يخلو من الجمل الاسمية.

إذاً فإغراق البحر لجوهرة الشاعر لم يكن كرهاً وبغضاً لها بل كان حبّاً شديداً أنانيّاً من طرف واحد، لجمالها وحسنها وعطرها.

النظيرة الخامسة: تفجّع الشاعر على جوهرته (قرار الموجة)

ويلي مصدر للتفجّع عليها "وكلّ من وقع في الهلكة دعا بالويل، فيقال يا ويلي ويا هلاكي"، ويظهر في الصورة عنصر جديد هو "التراب" مع سائر العناصر (الماء = البحر، الشاعر، الحبيبة).

فويل الشاعر وهلاكه من الماء والتراب وهما العنصران الأوّليّان للحياة وهما ضدّان متخالفان: اليابسة والماء= البحر، وهذان العنصران شُخّصا إنسانيّاً وأعطيا وظيفة الحكم والقضاء، واتّفق هذان الحاكمان المتضادّان في الحكم عليها بالموت والأذى، وأخرجت هذه الجارية ودفنت في لحد ترابيّ.

ب١٣: أماتها ذا

أي جعلها تموت، وذا اسم إشارة للقريب، والمقصود به البحر، ولم يشأ أن يذكر اسمه لغضبه منه ووجده عليه، ولعلّها دفنت في مكان قريب من البحر أو لعلّه يرثيها وهو على سطح البحر فيكون الماء أقرب إليه من اليابسة التي استخدم لها اسم الإشارة للمتوسّط في البعد "ذاك" وذاك غيّرها أي التراب الذي دفنت فيه فبدّل شكلها ومحا محاسنها. وجاء الفعلان المحزنان بصيغة الماضي أي انتهى الحدث وانقضى فلا سبيل إلى إعادة الزمن وإعادتها.

وأخيراً يتساءل تساؤل العارف المتجاهل: كيف أفديها من العنصرين؟ وفصل بين كيف وأفديها بشبه الجملة، ليؤكّد استحالة الأمر فالعنصران المتضادّان المكوّنان للحياة قد اجتمعا عليها واشتركا في موتها وإفنائها فكيف يفديها وينقذها ويخلّصها ولو دفع فدية كائنة ما كانت. وجاء فعل الفداء مضارعاً يدل على استمرار رغبته أو أمنيته المستحيلة في الفداء حاضراً ومستقبلاً ويدلّ كذلك على نبله وكرم نجاره.

٤- خصائص المعاني:

أ–الثنائيات الضدّيّة:

الأبيات نفثة مصدور أرسلها قلب جريح يرتجف كعصفور بلله القطر إلى سمع الزمن، يعيش صاحبها على اجترار آلامه على الذكرى أو أشلاء الذكرى، يكاد يتجمّد الدم في عروقه عندما يتذكّر حبيبته وقد اختطفها البحر بطيبها وكحلها. وأبرز خاصّة في هذه الأبيات إيحاء ساحر مفجّر للمشاعر عبر تيّار متلاحق من الصور الفنّيّة لا تقطع مجراه أو تعيقه أيّة صورة زائدة أو غريبة عن الجوّ الشعوري والوجداني تجري فيها شحنات من العاطفة وينتظم أغلبها سلسلة من الثنائيات الضدّيّة كما يطلق عليها البنيويّون، وتدلّ على رؤية عقليّة خاصّة تعتمد على المتضادّات في عرض المعاني وصوغها، وتصوّر جدليّة الصراع الخفيّ أو الواضح بين المتناقضات، أو بين الإنسان والطبيعة.

- الباني يهدم، الحيّ غير باق، سالمني حاربني.
- الوحشة، الإيناس، يميت يحيي، الإرخاص والإغلاء
- مبيت الحبيبة غريقة في حشى البحر/ مبيت الشاعر في الساحل
- المعانقة/ المفارقة
- الضدّان: الماء والتراب

وتعبّر– فيما أعتقد– عن الصراع بين الإنسان والطبيعة، والتناقض بين الواقع والحلم.

ب. تعانق المعنى:

أي إنّ معاني القصيدة يأخذ بعضها برقاب بعض في يسر وسهولة ، وهذا الترابط يتبدّى نحويّاً ومعنويّاً:

ب٥–٦ يميتني ذكرها/ أذكرها

ب٧–٨ أرخصت مَنْ/ جوهرةً

ب١٢-١٣ أحكام ضديّن/ أماتها ذا وذاك غيرّها

ج. تفصيل المعنى:

يقوم الشاعر بشرح مطوّل لبعض أفكاره التي يريد عرضها ويفصّل الحديث عنها تفصيلاً يتجاوز حدود البيت الواحد أحياناً:

ب١-٢ عدم الخلود

ب٣-٤ مصاعب الحياة

ب٥ ذكرها يحيي ويميت

ب٦ أذكرها والدموع

ب٨ صدف، أقيها وأحميها

ب١٢-١٣ الماء والتراب/ أماتها ذا وذاك غيرّها

د. الوضوح:

عامّ في أكثر الأبيات مع وجود بعض الأبيات التي تحتاج إلى إعمال الفكر فيها:

- يهدم الباني دار الحياة
- يميتني ذكرها ويحييها

هـ. المنطقيّة في عرض أفكاره:

التمهيد عن حتميّة الموت

العرض: غرق الحبيبة وحزن عليها وعتابه للبحر لإغراقها

الخاتمة: تفجّع عليها.

ز. العاطفية:

القصيدة ذاخرة بمشاعر عاطفيّة دافئة، تحمل طاقة تأثيريّة فعّالة:

واو الندبة، الدموع، البكاء، يصرخ بوجه البحر

بتُّ في ساحليك جيئة وذهاباً

عانقها البحر

التفجّع في الخاتمة

ح. المبالغة:

وللمبالغة أثر بالغ في تحقيق الأثر المطلوب حدوثه

يهدم دار الحياة، تردّت أممٌ.

كأنّها أُجُمٌ جمع جمع الجمع

وهي لا تسالمنا

يميتني ذكرها

يجاري الدموع فتسبقه.

ثانياً: مستوى البنية العامّة (الشكل)

نبدأ في هذا التحليل الأسلوبي من الكبير إلى الصغير ومن المركّب إلى البسيط؛ أي من مستوى البنية العامّة ، وهو الهيكل العامّ وما فيه من مجموع الجمل، إلى مستوى التركيب أي الجمل ، فمستوى اللفظ المفرد، فمستوى الصوت والموسيقا، ونختم بمستوى الصورة الفنّيّة ؛ وهي وإن كانت جزءاً من مستوى التركيب فإنّ تشعّبها الشديد وأهمّيّتها القصوى يدعوان إلى دراستها وحدها.

١- البنية الخارجيّة:

قبل البدء بالتحليل نحدّد نوع العمل الأدبيّ الذي نحلّله ونتبيّن هيكله الخارجيّ أي شكله الذي يتّخذه، وممّا لا شكّ فيه أنّ هيكل الشعر يختلف عن هيكل النثر، فهيكل الشعر أكثر وضوحاً وأشدّ تمايزاً من هيكل النثر، وللنثر هياكل متعدّدة موسّعة؛ تختلف كلّ

واحدة عن الأخرى، فيختلف هيكل المقامة عن هيكل الرواية عن القصّة عن القصّة القصيرة عن المقالة عن الخاطرة.

وللشعر هياكل محدّدة ضيّقة، وهي – مع ذلك – تختلف فيما بينها، فممّا لاشكّ فيه أنّ الشعر العربيّ الأصيل ذا الشطرين المكرّرين والقافية الموحّدة في القصيدة كلّها يختلف عن نمط الرجز الذي قد يكون لكلّ بيت فيه قافية مختلفة عن الآخر، أو قد يكون البيت فيه مكوّناً من شطر واحد.

ويختلف الشعر الأصيل عن نمط المربّعات والمخمّسات أو الموشّحات، كما يختلف الشعر العربيّ القديم عن الشعر العربي الحديث، وحتّى في بنية الشعر العربيّ الأصيل الذي يسمّى تقليديّاً أو غنائيّاً فإنّ ثمة اختلافاً بيّناً بين بنية القصيدة وبنية المقطّعة أو القطعة الشعريّة، وقد قيل إذا بلغت القصيدة سبعة أبيات فهي قصيدة، وقيل عشرة أبيات وما دون ذلك فهي قطعة أو مقطّعة، والعرب تطيل ليسمع منها، وتوجز ليحفظ عنها.

إذاً كما هو واضح، فهذا النص هو من الشعر التقليدي الغنائي، ولكنّه فاق طول المقطّعة في عدد أبياتها، ولم يتّبع قواعد القصيدة ومنهجها فالشاعر يحاول أن يقصّد المقطّعة بتطويل أبياتها إلى ثلاثة عشر بيتاً وبتصريعها على عادة الشعراء في القصائد الطوال (بانيها، فيها) فهي بذلك قصيدة قصيرة.

وتسير هذه القصيدة على منهج قصائد الرثاء عامّة بمقدّمة أو تمهيد وعرض وخاتمة بنظائر دلاليّة تشكّل كلّاً دلاليّاً فتبدأ بتمهيد عامّ عن الموت وعن مصاعب الحياة ومصائبها.

ثمّ العرض: وفيه قصّة غرق الحبيبة، وتبدأ بتصوير حزن الشاعر عليها ثمّ تأنيبه للبحر الذي قام بإغراق جوهرته الثمينة الرائعة بسبب حبّه المميت لها.

ثمّ الخاتمة: نهاية القصّة بدفنها وتغيّر ملامحها وتلاشي محاسنها، وتفجّع الشاعر ابن حمديس عليها.

وتبدأ هذه القصّة بأسلوب خبري سردي، وتنتهي –كذلك– بأسلوب خبري سردي. وتصور واقعاً مريراً للحبيبة الغارقة فيعود بطريقة "الخطف خلفاً– ليسرد قصّة موتها وسببه.

الأبطال: الشاعر، الجارية، البحر وأخيراً التراب.

الزمان: الليل: أبتّها وبتّ، الأيّام، الليالي.

المكان: البحر، الصدف، الحشا، الساحلان، التراب (اللحد).

الحوار: داخلي: واوحشتا، يميتني ذكرها.

خارجي: يا بحر (نداء) الخطاب: أما تراها، أرخصتَ، أبتَّها.

الجزئيات الموحية: نفحة الطيب، صبغة الكحل، في ساحليك.

٢- البنية الداخلية:

وهنا نبحث في الوحدات التركيبيّة التي تشكّل هذا النصّ عامّة، وتكسو هيكله لحماً ودماً وأعصاباً، فننظر إلى الجمل ذات الدلالات المتقاربة على مختلف اتجاهاتها وما تكوّن من بنى داخليّة.وتتنوع الأساليب وتتعدّد البنى التي كوّن الشاعر منها أجزاء هيكل نصّه الشعري، وفيما يلي أهمّها:

أ. **بنية التشابه**: أي التعبير عن المعنى الواحد أو الموضوع الواحد بعبارتين أو صورتين فأكثر، وهي البنية الطبيعيّة في النصوص عامّة.

الفناء ب١–٢

المصائب ب٣–٤

ذكره لها يميته، ويجري دموعه ب٥–٦

حال البحر تجاهها : يرخصها لا يكترث بها ب٧

حال الشاعر :يقيها بصدف خاطره ويحميها ب٨

جمال الجارية، نفحة الطيب، صبغة الكحل ب١٠

ويلي من الضدّين، العنصرين ب١٢-١٣

ب. بنية التناقض: عندما يرد التضادّ اللغويّ والمعنويّ بصورة لافتة ، ويكثر في النصّ فإنّه يشكّل بنية خاصّة هي بنية التناقض ، وتمتلئ قصيدة ابن حمديس بهذه البنية المثيرة للغرابة والدهشة والمفاجأة:

ب١ الباني يهدم دار الحياة

ب٤ إن سالمت الأيّام حاربت الليالي

ب٥ الوحشة، الإيناس، الذكر يميته ويحييها

ب٦ الدموع تسبقه وهي بعضه

ب٧ البحر يرخص وهو يغلي

ب٩ باتت في حشا البحر ، وبات في ساحليه

ب١١ عانقها فعل محبّة نتيجته الموت

د. بنية التوتّر: أي عندما تجتمع عدّة جمل تحمل شحنات عالية من المشاعر المتوفّزة العصبية المتوتّرة، وتؤلّف ظاهرة واضحة:

ب٥ وا وحشتا

ب٧ يا بحر كيف أرخصت

ب١٢ ويلي

ب١٣ كيف أفديها

وتنوّع هذه البنى وتعدّدها يدلّ على غنى قصيدة ابن حمديس وتنوّع تشكيلها البنيوي وتنوّع ما تحتويه.

ثالثاً: مستوى التركيب

ندرس هنا الجملة مفردة بوصفها الوحدة التركيبيّة الصغرى التي تحمل معنى متكاملاً ونستخلص خصائصها، ونبيّن أساليبها المكوّنة لها.

أ- الخصائص التركيبيّة

بتوجيه أشعّة النظر والفكر إلى النصّ بوصفه جملاً، وقراءته بوصفه تراكيب تظهر خصائص متعدّدة أهمّها:

١- البدء بجملة فعلية والانتهاء بجملة فعليّة

يهدم دار... أفديها

أي البدء بالحركة والانفعال والانتهاء بالحركة والانفعال كذلك، وغلبة البدء بالجمل الفعليّة في القصيدة كلّها، (جميع الأبيات ما عدا ٨-١٠-١٢)

أي غلبة الحركة والانفعال على السكون والهدوء في المشاعر والانفعالات.

٢- **غلبة الجمل الفعليّة على الجمل الاسميّة:** ونحصي هنا نوعي الجملة في الأبيات كافّة.

ب١: ١ فعليّة (ف)- ١ اسمية (س)

ب٢: ٢ف- ١ س

ب٣: ١ف- ٢ س

ب٤: ٣ف- ١س (توتّر، حركة، غضب)

ب٥: ٣ف اضطراب توتّر

ب٦: ٣ ف- ٢س

ب٧: ٣ف- ١ف ناقص

ب٨: ٢ف- ١ ف ناقص

ب٩: ٣ ف اضطراب توتّر

ب١٠: ٢ س- خمود

ب١١: ٣ ف اضطراب توتّر

ب١٢: ١ف- ١ س

ب١٣: ٣ ف- ١ س

المجموع: ٣٠ ف — ١١ س

ونستنتج من ذلك أنّ الحركة والانفعال في هذه القصيدة أكثر من ضعف السكون والهدوء لأنّ الجملة الفعليّة تحمل إلى جانب حدثها حركة وزمناً معيّناً، أمّا الجملة الاسميّة فهي تقتصر على الحدث، وتميل إلى الهدوء والثبوت، كما يلفت الانتباه أنّ بعض الأبيات تقتصر على الجمل الفعليّة وهي (ب٥-٩-١١) فتحمل شحنات عاطفيّة عالية متوتّرة. وأنّ (ب١٠) يقتصر على جملتين اسميتين فتدلّ على خمود وقتيّ لجذوة الانفعال وكأنّه يسرح في تفصيل جمال حبيبته، وما يلبث أن يرتفع الخط البياني للعاطفة والتوتّر في البيت الذي يليه.

٣- طول الجمل عامّة دلاليّاً: أي استغراق المعنى في بيت كامل أو أكثر.

ب١: نفي الخلود بسبب هدم دار الحياة.

ب٢: جملة شرطيّة من أوّل البيت إلى آخره.

إن تردّت... فهي نفوس ولكنّ المعنى لا يكتمل إلّا بالجملة الواصفة للنفوس ، ردّت عواريها.

ب٣: أما تراها... متشابكة كأنّها شجر ملتفّ لكنّ المعنى لا يكتمل والصورة لا تتوضّح إلّا بالجملة الواصفة التي تليها، فدلالة الأُجُم إيجابيّة وهي لا تناسب المقصود فتأتي جملة الصفة لتجعل تحت هذا الجمال موتاً، فبين هذه الأدغال حيّة قاتلة، وثمّة ضميران يربطان الجملة الثالثة بالثانية، أسودها، دواهيها. فثّمة ٣ جمل قصار، ولكنّها مرتبطة نحويّاً ودلاليّاً بعضها ببعض.

ب٤: جملة الشرط جوابها آخر البيت.

ب٥: ٣ جمل دلاليّة، تصف الجملتان الثانية والثالثة الجملةَ الأولى.

ب٦: ٣ جمل؛ الجملة الثانية تصوّر حالة الشاعر والثالثة تشبّه حالة الجملة الثانية.

ب٧: يا بحر أرخصت من أغليها جملة واحدة من أوّل البيت إلى آخره.

ب٨: جوهرة، الجمل الثلاث في هذا البيت ترتبط بضمائر ظاهرة لها، أقيها، أحميها عائدة على الجوهرة.

ب٩: كلّ شطر جملة متوسّطة.

ب١٠: كلّ شطر جملة متوسّطة.

ب١١: ٣ جمل ترتبط بضمائر ظاهرة عانقها فارقها، فاض روحها.

ب١٢: الماء والتراب هما الضدّان مرتبطان بضمير حكّما فيها.

ب١٣: ٣ جمل؛ أماتها، غيّرها، أفديها منهما.

٤- الثنائيّة:

ب٨: أقيها به وأحميها

ب٩: أبتّها وبتّ

ب١٠: ونفحة، وصبغة

ب١٢: ويلي من الماء والتراب

ب١٣: أماتها ذا، وذاك غيّرها

٥- الإنشاء والخبر

ب١: خبريّة، إنشائيّة استفهاميّة

ب٢: خبريّة شرطيّة

ب٣: إنشائيّة، استفهاميّة، كأنّها أجم، خبريّة أسودها خبريّة

ب٤: خبريّتان

ب٥: إنشائيّة، تفجّع، خبريّتان

ب٦: ٣ خبريّة

ب٧: ١ إنشائية- أرخصت، كنت أغليها خبريّتان

ب٨: ٣ خبريّة

ب٩: ٢ خبريّتان

ب١٠: ٢ خبريّتان

ب١١: ٣ خبريّة

ب١٢: ١ إنشائيّة- ١خبريّة

ب١٣: ٣ خبريّة- ١ إنشائيّة

المجموع: ٢٥خبرية ، ٦ إنشائية

ب- الأساليب التركيبيّة:

١- التقديم والتأخير

منذ الجملة الأولى في البيت الأوّل نجد تقديم المفعول به على الفاعل

يهدم دار الحياة بانيها: أي يهدم الباني دارَ الحياة.

ب٢: وإن تردّت من قبلنا أممٌ، إن تردّت أممٌ من قبلنا

ب٦: كأنّني للأسى أجاريها: كأنّني أجاريها للأسى

ب٧: من كنت لا للبياع أغليها، من كنت أُغليها لا للبياع

ب٩: أبتّها في حشاك مغرقة، وبتّ في ساحليك أبكيها

أبتّها مغرقة في حشاك، وبتّ أبكيها في ساحليك

ب١٠: كيف من العنصرين أفديها؟، كيف أفديها من العنصرين؟

فهو مضطرب كأنّه يقدّم قدماً ويؤّخر أخرى.

٢- الجملة الاعتراضيّة:

ب٤: إن سالمت- وهي لا تسالمنا- أيامنا

ب٧: أرخصت - غير مكترث- مَنْ كنت

٣- أسلوب الإضافة:

ب١: دار الحياةِ- أيّ حيٍّ

ب٥: فراق مؤنسة.

ب١٠: نفحة الطيب، صبغة الكحل.

ب١٢: أحكام ضدّين.

٤- أسلوب الاستفهام

ب١: أيّ حيّ؟

ب٣: أما تراها؟

ب١٣: كيف أفديها؟

٥- أسلوب الشرط

ب٢: إن تردّت...فهي نفوس

ب٤: إن سالمت.... حاربت

٦- أسلوب النفي

ب٤: وهي لا تسالمنا

ب٧: لا للبياع

ب١: أيّ حيّ؟! أي لا حيّ

٧- أسلوب النداء والخطاب

ب٧: يا بحر.

ب٣: أما تراها

ب٩: أبتَّها

٨- أسلوب النُّدبة

ب٥: واوحشتا

ب١٢: ويلي.

رابعاً: مستوى الألفاظ

إنّ اللفظة المفردة هي الوحدة الأساسيّة، في بناء الجملة، لذلك فإنّ الأسلوبيّة تهتمّ بها من الناحية التكوينيّة بوصفها أفعالاً وأسماءً وحروفاً، فتدرس أنماطها وأنواعها، وتهتمّ بها من الناحية الدلاليّة، فترصد حقولها المختلفة.

أ. الناحية التكوينيّة

- الأفعال:

١- البدء بفعل مضارع: يهدم، وكلّ الأبيات تحتوي على أفعال ما عدا ب١٠

أبيات تقتصر على فعل واحد في شطريها: ب١-٣-١٢

أبيات تقتصر على فعلين في شطريها: ب٢-٥

أبيات تحتوي على ثلاثة أفعال: ب٤-٦-٧ - ٨-٩-١١-١٣

وهي أكثر حركة وانفعالاً ممّا سبقها.

٢- أنماط الأفعال:

- المضارع: (يهدم، تراها، تسالمنا، يميتني، يحييها، أذكرها، تسبقني، أجاريها، أغليها، أقيها، أحميها، أبكيها، أفديها)=١٣
- الماضي: (تردّت، سالمت، حاربت، أرخصت، كنت ، كان، أبتّها، بتّ، عانقها، فارقها، فاض، أماتها، غيّرها)= ١٣
- ماض مبنيّ للمجهول: (رُدّت، حُكّما)= ٢
- الأمر: (لا يوجد لأنّها بوح ذاتي)
- نجد تساوياً بين المضارع والماضي، فعين على الماضي الجميل وعين على الحاضر الحزين.

٣- الحركيّة:

ثَمَّة أفعال كثيرة في القصيدة تحمل طاقة إيحائيّة في ذاتها وتحملنا على الإحساس بذلك

ب١: يهدم – حركة تخريبيّة

ب٢: تردّت – حركة سقوط وهويّ مستمرّ.

ردّت– حركة إعادة الشيء إلى مكانه

ب٤: حاربت– حركة شديدة للعراك بالسيوف

ب٦: تسبقني، أجاريها– حركة سباق

ب٩: أبكيها– حركة الدموع وانهمارها

ب١١: عانقها فارقها

عانقها: حركة ضمّ ، فارقها: حركة ترك وإبعاد

فاض– فاظ: حركة خروج الروح

ب١٣: غيّرها– حركة إزالة ومحو

الأسماء:

١– كثرة الأسماء: مع انّنا ذكرنا أنّ الجمل الفعليّة تزيد على ضعف الجمل الاسميّة؛ وذلك لأنّ الفعل يرتبط بعدد من الأسماء كالفاعل والمفعول وما إلى ذلك.

فمثلاً البيت الأوّل: ثمّة فعل واحد: يهدم، يرتبط بثلاثة أسماء ارتباطاً عضوياً: بانيها دار الحياة، ثمّ الجملة الاستفهاميّة الاسميّة كلّها أسماء.

حتّى في الأبيات التي تحتوي على ثلاث جمل فعليّة، ولا تحتوي على جمل اسميّة فإنّ الأفعال لا تزيد على الأسماء (ب٩–١١).

ب٩: أبتّها في حشاك مغرقة وبتّ في ساحليك أبكِيها

(٣ أسماء– ٣ أفعال)

ب١١: عانقها البحر ثمّ فارقها عن ضمّة فاض روحها فيها

(٣ أسماء– ٣ أفعال)

٢- التنكير والتعريف:

التنكير: حيّ، مخلّد، أمم، نفوس، أجم، مؤنسة، بحرُ، مكترث، جوهرة، صدفاً، مغرقة، ضمّة.

جاء التنكير للمبالغة والتهويل: "عن ضمّة" ما هذه الضمّة التي أدّت لقتلها وكيف هيئتها وما مدّتها.

التعريف: دار الحياة، بانيها، عواريها، أسودها، دواهيها، أيّامنا، لياليها، فراق مؤنسة، ذكرها، الدموع، للأسى، للبياع، خاطري، حشاك، ساحليك، (نفحة الطيب ذوائبها، صبغة الكحل، مآقيها)

البحر، روحها، ويلي، الماء، التراب أحكام ضدّين.

ذا، ذاك، العنصرين.

والنتيجة أنّ التعريف أكثر من التنكير بكثير لأنّه يتكلّم عن شيء يعرفه تمام المعرفة؛ عن قصّة حدثت معه شخصيّاً، عن شخص الحبيبة الذي يعرفه تماماً.

ب١٠ كلّه معرفة: فنفحة الطيب في ذوائبها وصبغة الكحل في مآقيها

٣- الإفراد والجمع والمثنى

يلفت الانتباه أنّ أغلب الصيغ الاسميّة تتّسم بالإفراد، أمّا الجمع فنجده متركزاً في القسم التمهيدي (ب١-٤) الذي يصف مصائب الحياة فيأتي الجمع ليزيد الأمر هولاً وشدّة ومبالغة.

أمم، نفوس، عواريها، أيّامنا، لياليها

الدموع، الصدف، ذوائبها، مآقيها.

ويلفت الانتباه استخدام صيغة جمع جمع الجمع فالأجمة: لفظة مفردة، وهي تعني الجمع أي الشجر الكثير الملتفّ، جمعها أَجَمٌ، وجمع الجمع إِجَام، وجمع جمع الجمع أُجُمٌ.

ويشدّ الانتباه بعض العلاقات الجدليّة بين المفرد والجمع كقوله: أسودها بيننا

دواهيها فالأسود الواحد المفرد (الحيّة الواحدة)= الدواهي (الجمع) ليبالغ في تصوير قسوة الحيّة وشدّتها.

وكذلك قوله: جوهرة كان خاطري صدفاً

الخاطر المفرد= الصدف (الجمع) ليشدّد صورة الحماية والمنع

كما تبرز صيغة المثنّى لتعطي دلالات جديدة:

في ساحليك: ساحل الأندلس وساحل المغرب في مضيق جبل طارق، من البحر المتوسط الضدّان، العنصران: (الثقافة الفلسفيّة القديمة).

٤- التذكير والتأنيث

في الشعر غالباً ما يطغى المذكّر على المؤنّث طغياناً كبيراً في أغلب الأغراض الشعريّة لدى الشعراء عامّة، لكنّنا نجد هنا تقارباً بين الكلمات المذكّرة والمؤنّثة أفعالاً وأسماءً وضمائر، وهذا أمر جديد مهّم يسمى (تأنيث القصيدة)، والأهم من ذلك كلّه هو ذلك التمازج بين المذكّر والمؤنّث في اللفظة الواحدة فعلاً واسماً.

ففي الأسماء: بانيها، الباني مذكّر، وها: عائدة على دار الحياة المؤنّثة

ذكرها: الذكر مذكّر، ها عائدة إلى الحبيبة- مؤنّثة.

وفي الأفعال: تراها- ترى أنت (مذكّر)، ها: لدار الحياة المؤنثّة.

تسالمنا- تسالم فعل مضارع مؤّنث- نا: جماعة الذكور

يحييها- يحيي الذكر (مذكر) ها: تعود إلى الحبيبة (مؤنث)

أغليها- أغلي الفاعل هو الشاعر (مذكر)، ها: مفعول به يعود إلى الحبيبة (مؤّنث)

كذلك أقيها، أحميها، أبتّها، أبكيها، عانقها، فارقها، أماتها، غيّرها، أفديها (كلّها الفاعل فيها مذكّر، والمفعول به مؤنّث)

وهذه ظاهرة نادرة تدلّ على مدى التمازج بين الشاعر وحبيبته.

الصفات المفردة

مع أنّ القصيدة وصفيّة، ومع أنّ الشاعر حرص على وصف حاله ووصف محبوبته

فإنّه لم يستعمل الصفات الظاهرة المفردة مطلقاً، لكنّه استخدم جمل الصفات التي في محلّ الصفة التي تحوج العقل إلى مقدار أكبر من العمل ليصل إلى المقصود من جملة الصفة:

عن ضمة فاضَ روحها فيها، أي عن ضمّة شديدة ضاغطة أدّت إلى صعود روح الحبيبة إلى بارئها.

ب- الناحية الدلالية:

لكلّ غرض شعري معجم لغويّ يميّزه، ولكلّ موضوع من موضوعات الشعر مفرداته، وللرثاء ألفاظ خاصّة تكثر في القصائد التي تنتهجه كألفاظ الموت والتفجّع والبكاء لكنّ الموت كان –هنا– غرقاً فانتشرت ألفاظ البحر ومتعلّقاته في القصيدة وسبب الموت هو الحبّ والأثرة فانتثرت ألفاظ الحبّ وأفعاله، والحبيبة الميتة جميلة فذاعت ألفاظ الحسن والجمال.

حقول الألفاظ:

الإنسان: الحيّ، الأمم، نفوس

الحبيبة المؤنسة

الشاعر: يميتني، أغليها، أقيها، أحميها، بتُّ، أبكيها

الجسد الإنساني: ذوائبها، مآقيها، الروح، الخاطر

الأفعال الإنسانيّة الماديّة: يهدم، سالم، حارب

- أذكرها، أبكي، أسابق الدموع، أغليها، أقيها، أحميها
- عانقها، فارقها، غيّرها، أفديها
- التزيّن صبغة الكحل، نفحة الطيب، الاستعارة:عواريها

الأفعال الإنسانيّة المعنويّة:

- الاستيحاش، الحزن الشديد، الإيناس

الحرف، البناء، بانيها، الهدم، يهدم

التجارة، أرخصت، أغليها، لا للبياع

الألفاظ الطبيعيّة: أُجُم، بحر، البحر، جوهرة، الصدف، ساحلاك
الماء، التراب

الحيوانات: الأَسْود

الألفاظ الفلسفيّة: الضدّان، العنصران

ويلفت النظر خلوّ الأبيات من الألفاظ الدينيّة والأدبيّة وأسماء الأعلام.

خامساً: مستوى الصوت

١- الموسيقا الخارجية

تنبع الموسيقا الخارجيّة للقصيدة من منابع متعدّدة أهمها:

أ. البحر الشعري

نظم ابن حمديس قصيدته القصيرة على بحر المنسرح ومعنى المنسرح السهولة،

وسَرَح السيل: جرى جرياً سهلاً. والسراح السهولة

وسَرِح الرجل: خرج في أموره سهلاً

وسَرَحت الماشية: رعت بنفسها

والمنسرِح: السريع في سيره

ومعنى هذا أنّ البحر المنسرح سمي بذلك لسهولة وسرعة فيه.

وأصل وزن هذا البحر هو:

مُسْتَفْعِلُنْ مَفْعُولَاتُ مُسْتَفْعِلنْ (عروض)

مستفعلن مفعولات مستفعلن (ضرب)

لكنّ تفعلية العروض لا تأتي فيه إلّا مطويّة (والطيّ حذف الرابع الساكن)

مُسْتفْعلن ـــــ مُسْتَعِلُنْ. ممّا يكثر الحركات كثرة لافتة ويعطي البحر رشاقة وسلاسة.

كما أنّ تفعيلة الضرب لا تأتي تامّة "مستفعلن" بل تكون على نوعين:

أ. مطويّة كتفعلية العروض: مُسْتَعِلُنْ

ب. مقطوعة: والقطع هو حذف السابع الساكن وتسكين ما قبله

مستفعلُنْ ـــ مُسْتَفْعِلْ

وانتقى الشاعر النمط الثاني أي الضرب المقطوع.

أمّا الزحافات التي استخدمها الشاعر، وتدخل في حشو البيت فهي:

١- الطيّ: مستفعلن ـــ مستعلن

مفعولاتُ ـــ مُفْعَلَاتُ

٢- الخبن: أي حذف الثاني الساكن

مستفعلن ـــ مُتَفْعِلُنْ

فتفعيلات هذا البحر التي يستخدمها الشاعر هي:

مُسْتَفعِلُنْ مَفْعُوْلاتُ مُسْتَعِلُنْ مُتَفْعِلُنْ مُفْعَلَاتُ مُسْتَفْعِلْ

وقد انتقى الشاعر هذا البحر ذا التفعيلات المختلفة المختلطة التي تعبّر عن اختلاف المشاعر واختلاطها واضطرابها.

كما أنّ هذا البحر هو البحر الوحيد الذي تأتي فيه تفعيلة محرّكة لا يسكّن آخرها من دون زحاف طارئ عليها وهي تفعيلة "مفعولاتُ".

يهدم دار الحياة بانيها فأيّ حيّ مخلّد فيْها

يهدم دا/ رلحياةِ /بانيها فأيْيُ حَيْـ/ ـيِنْ مُخَلْلَ /لدُنْ فِيْهَا

بـ١: مُسْتَعِلنْ مُفْعَلَاتُ مُسْتَفْعِلْ مُتَفْعلُنْ مُفْعَلَاتُ مُسْتَفْعِلْ

بـ٢: متفعلن مَفْعُولاتُ مستعلن مستعلن مفعولات مستفعلْ

بـ٣: متفعلن مفعلات مستعلن مستعلن مفعلات مستفعل

بـ٤ :مُسْـتَفْعِلُنْ مفعـلات مسـتعلن مســـتفعلن مفعـــلات مســـتفعل

بـ٥ : مسـتفعلن مفعـلات مسـتعلن مـــتفعلن مفعـــلات مســـتفعل

بـ٦ : مسـتعلن مفعـلات مسـتعلن مـــتفعلن مفعـــلات مســـتفعل

بـ٧: مسـتفعلن مفعـلات مسـتعلن مســـتفعلن مفعـــلات مســـتفعل

بـ٨: مسـتعلن مفعـلات مسـتعلن مـــتفعلن مفعـــلات مســـتفعل

بـ٩: مـتفعلن مفعـلات مسـتعلن مـــتفعلن مفعـــلات مســـتفعل

بـ١٠: مـتفعلن مفعـلات مسـتعلن مـــتفعلن مفعـــلات مســـتفعل

بـ١١: مسـتعلن مفعـلات مسـتعلن مســـتفعلن مفعـــلات مســـتفعل

بـ١٢: مسـتفعلن مفعـلات مسـتعلن مســـتفعلن مفعـــلات مســـتفعل

بـ١٣: مـتفعلن مفعـلات مسـتعلن مســـتعلن مفعـــلات مســـتفعلْ

تفعيلة: مُسْتَفْعِلْ: تكرّرت(١٤) مرّة،(١٣) في الضرب(١) في العروض المصّرع وهي لازمة

تفعيلـة مُسْـتَعِلُنْ: تكـرّرت (١٢) مـرّة في العـروض وهـي لازمـة و(٧) مـرّات في الحشـو والمجموع (١٩) مرّة.

تفعيلة مُفْعَلَاتُ تكرّرت في الحشو (٢٤) مرّة+ بصيغتها الأصلية (٢)= (٢٦) مرّة.

تفعيلة مُتَفْعِلُنْ تكرّرت في الحشو (١٢) مرّة

تفعيلة مُسْتَفْعِلُنْ تكرّرت في الحشو (٧) مرّات

والمجموع: ٧٨ تفعيلة

فإذا تركنا التفعيلتين الثابتتين في بحور الشعر عامّة وهما الضرب المقطوع مستفعل (الذي تكرّر في آخر تفعيلة في الأبيات كلّها) والعروض المطويّة مستعلن التي تكرّرت في آخر الشطر الأوّل في الأبيات كلّها ما عدا البيت الأوّل الذي جاء مصرّعاً فحسن فيه أن يتبع العروض الضرب، فسوف نجد أنّ الشاعر يحافظ كثيراً على أنغامه الشعريّة في حشو الأبيات فالتفعيلة الثانية المتوسّطة مفعولات تأتي غالباً مطويّة مُفْعَلَاتُ (٢٤) مرّة، ولا تأتي

إلّا مرّتين على أصلها مفعولاتُ في البيت الثاني، ومعنى ذلك أنّ ثلثي الأبيات تقريباً على نغم واحد، وتفعيلات ثابتة، وأنّ التغيير يكون في التفعيلة الأولى من كلّ شطر فحسب مستفعلن التي جاءت كتفعيلة العروض مستعلن(٧) مرّات، فعزّزت هذه النغمة وجعلت البحر أكثر موسيقية بتوالي ثلاث حركات يعقبها سكون ///٥.

وجاءت متفعلن (١٢) مرّة، وجاءت كاملة مستفعلن (٧) مرّات

ومعنى أن تأتي التفعيلتان التامّتان مستفعلن ومفعولاتُ بنسبة ضئيلة بالموازنة مع التفعيلات التي حذف منها حرف أنّ البحر الشعري قد تقلّص كثيراً وضاق إهابه الشعري وصار أكثر رشاقة وسلاسة.

ويصل الإيقاع الموسيقي إلى درجة كاملة من التطابق بين أشطار الأبيات في زهاء ثلثي القصيدة (٩ أبيات من أصل ١٣) بيتاً.

ب٤/٧/١٢: مستفعلن مفعلات مستعلن مستفعلن فعلات مستفعلْ

ب٩/١٠: متفعلن مفعلات مستعلن متفعلن مفعلات مستفعلْ

ب٣/١٣: متفعلن مفعلات مستعلن مستعلن مفعلات مستفعلْ

ب٦/٨: مستعلن مفعلات مستعلن متفعلن مفعلات مستفعلْ

ب. القافية والروي

القافية هي من الحرف المتحرّك بعد الساكن الثاني آخر الشطر الشعري وهي هنا: (فِيْهَاْ)

أمّا الرويّ فهو الهاء ، والألف بعدها: وصل

والياء قبلها: ردف، ويجوز فيها المبادلة بين الياء والواو ولكنّه التزم الياء فحسب وقيّدها به، فكأنّ الصرخة كانت محبوسة ثمّ تنفرج مع الهاء ثمّ تصعد مع الألف فتتلاشى وتنتهي.

والهاء من أعمق الحروف مخرجاً في أقصى الحلق بعد الهمزة في أرجح أقوال القدماء،

ومن صفاته: الرخاوة والانفتاح والهمس وهو جريان النَفَس مع النطق بالحرف لضعف الاعتماد في المخرج.

ج. التصريع

يحمل التصريع في طيّاته إيقاعاً موسيقياً خاصّاً درجت عليه أكثر القصائد العربيّة الطويلة دالّة على كونها قصائد وليست مقطّعات.

وهو هنا: بانيها، فيها.

ولا بدّ من الإشارة إلى أن التصريع هنا غيّر من التفعيلة الأخيرة (العروض) في الشطر الأوّل (الصدر) من البيت الأوّل لتناسب التفعيلة الأخيرة (الضرب) في الشطر الثاني (العَجُز) من البيت الأوّل فعروض الأبيات كلّها على وزن مستعلن ما عدا البيت الأوّل فعروضه يماثل ضربه على وزن مُسْتَفْعِلْ.

د. طول الجملة الموسيقيّة

ب١: جملتان موسيقيّتان متوسّطتان.

ب٢: جملة موسيقيّة مطوّلة

ب٣: جملتان موسيقيّتان متوسّطتان

ب٤: جملة مطوّلة

ب٥: ٣ جمل قصار

ب٦: ٣ جمل قصار

ب٧: جملة موسيقيّة

ب٨: ٣ جمل قصار

ب٩: جملتان متوسّطتان

ب١٠: جملتان متوسّطتان

ب١١: جملتان قصيرة وطويلة

ب١٢: جملة طويلة ممتدّة

ب١٣: ٣ جمل قصار

هـ. التوازن

ب٩: أبتّها في حشاك مغرقة وبتّ في ساحليك أبكيها

توازن كامل: ب١٠: ونفحة الطيب في ذوائبها وصبغة الكحل في مآقيها

توازن عام: اقتصار كلّ شطر على موسيقاه: ب١-٢-٣-٤-٥-٦-٩.

٢- الموسيقا الداخلية

أ. الألفاظ:

١- تكرار الأسماء والأفعال وجذورهما

ب١: الحياة، حيّ ب٥: يحييها

ب٢: تردّت، ردّت (مع اختلاف الجذر)

ب٤: سالمت، تسالمنا

ب٥: ذكرها ب٦: أذكرها

ب٧: يا بحر، البحر

ب٩: أبتّها، بتّ

ب١٢: أحكام، حكّما

ب١٣: أماتها ب٥: يميتني

ب١١: فيها ب١٢: فيها (إيطاء) ب١: فيها

٢- تكرار أوزان الأسماء والأفعال

عواريها، دواهيها، لياليها، مآقيها، أجاريها، أغليها، أحميها، أبكيها، أفديها

أمم أجم، سالمت حاربت، مؤنسة مغرقة.

نفحة، صبغة/ الطيب، الكحل

عانقها، فارقها/ ذِكْرُها، رُوْحُها

أسودها، أذكرها/ أيّام، أحكام

ب. الحروف

١- تكرار الحروف

تبرز حروف القافية المتكرّة بروزاً لافتاً للنظر (يها)

الياء في الأبيات كلّها: في الحشو وفي العروض وفي الضرب

ب١: يهدم، الحياة، بانيها، فأيّ، حيّ، فيها

ب٢: فهي، عواريها

ب٣: بيننا، دواهيها

ب٤: أيّامنا، لياليها

ب٥: يميتني، يحييها (٣ ياء)

ب٦: تسبقني، كأنّني، أجاريها

ب٧: غَيْر، البياع، أغليها

ب٨: خاطري، أقيها، أحميها

ب٩: ساحليك- أبكيها

ب١٠: الطيب، مآقيها

ب١١: فيها

ب١٢: ويلي، ضدّين، فيها

ب١٣: غيَّرها (مشدّدة) العنصرين، أفديها

الهاء حرف الرويّ

ب١: يهدم، فيها

ب٢: فهي، عواريها

ب٣: تراها، كأنّها، أسودها، دواهيها (٥ مرّات)

ب٤: هي، لياليها.

ب٥: ذكرها، يحييها

ب٦: أذكرها، أجاريها

ب٧: أغليها

ب٨: جوهرة، لها، أقيها، به، أحميها (٥ مرّات)

ب٩: أبتّها، أبكيها.

ب١٠: ذوائبها، مآقيها.

ب١١: عانقها، فارقها، روحها، فيها (٤ مرّات)

ب١٢: فيها.

ب١٣: أماتها، غيّرها، أفديها.

الألف:

ب١: دار، الحياة، بانيها، فيها

ب٢: قبلنا، عواريها.

ب٣: أما، تراها، كأنّها، أسودها، دواهيها (في أغلب ألفاظ البيت)

ب٤: سالمت، لا، تسالمنا، أيّامنا، حاربت لياليها.

ب٥: واوحشتا، فراق، يحييها.

ب٦: أذكرها، أجاريها.

ب٧: يا، لا، للبياع، أغليها.

ب٨: كان خاطري صَدَفاً، لها، أقيها، أحميها.

ب٩: أبتّها، حشاك، ساحليك، أبكيها.

ب١٠: ذوائبها، مآقيها.

ب١١: عانقها، فارقها، فاض روحها، فيها

ب١٢: حُكّما فيها

ب١٣: أماتها ذا، ذاك، غيّرها، أفديها

٢- التناسب الحرفي

مخلّد: الشدّة لشدّة تشبّثه فيها، وللتكرار والدوام

تردّت: تضعيف الحرف لاستمرار الموت

ردّتْ: تضعيف الحرف للإعادة المستمرّة.

أُمَم، أُجُم: كثرة

دواهيها: المصائب الخفيّة

واوحشتا: وا ندبة، الألف للندبة أيضاً

وا للتعجب (اسم فعل)، وحشتا، وحش

أبتَّها: إشارة إليه بالذنب القيد بالألف

بتُّ: إشارة للإطلاق

ضمّة: قبض الذراعين واليدين عليها، مع تقييد الميم بالشدّة ثمّ إطلاقها

ويلي: مصدر، هلاكي

وقد تكون: وي اسم فعل مضارع بمعنى أتوجّع، وي، لي

غيّرها، التغيير مستمّر شديد مع الشدّة

ج. الحركات

١- إيقاع التنوين للتنوين إيقاع موسيقيّ مضاعف زخم مكثّف ، يعطي صوت نون ساكنة مسبوقة بحركة معيّنة من الحركات الثلاث ؛الضمّة أو الفتحة أو الكسرة.

ب١: حيٍّ، مخلّدٌ

ب٢: أممٌ، نفوسٌ

ب٣: أجمٌ

ب٥: مؤنسةٍ

ب٧: مكترثٍ

ب٨: مغرقةً

ب١١: ضمّةٍ

٢- إيقاع النبر- الشدّة

للشدّة صوت صاخب شديد بتكرار الحرف المشدّد مرّتين ساكناً ثمّ متحركاً.

ب١: أيّ، حيٍّ، مخلّد (اجتماع التشديد والتنوين) صوت مضاعف

ب٢: تردَّت، ردّت

ب٣: كأنّها

ب٤: أيّامنا

ب٦: كأنّني

ب٩: أبتَّها، بتُّ

ب١١: ثمَّ، ضمّةٍ (تشديد وتنوين)

ب١٢: ضدّين، حكّما.

ب١٣: غيّرها

٣- السكون والحركة (الإطلاق والتقييد)

ب١: الشطر الأوّل مطلق محرّك ما عدا العروض المصرّع والضرب المقيّدين دائماً فالعرب لا تبدأ بساكن ولا تقف على متحرك

يهدمُ دارَ الحياةِ فأيُّ، الشطر الثاني ما عدا اللفظة الأولى مقيّد: حيٍّ، مخلّد، فيها

ب٢: أغلبه مقيّد

وإنْ، تردّتْ، منْ، قبلنأ أممنْ

فَهْيَ: اللفظة الوحيدة المحرّكة، ولكنّها قيّدتْ من وسَطها على غير الأصل

نفوس، ردّتْ، عواريها

ب٣: كلّه مقيّد أما تراها، كأنّهاْ، أجمنْ، أسودهاْ، بيننا، دواهيها

ب٤: أغلبه مقيّد

إنْ، سالمتْ (وهْيَ) لاْ تسالماْ، أيّاماْ، حاربتْ، لياليها

ب٥: واوحشتاْ منْ مؤنسةٍ، يميتني ذكرها ويحيها (لفظة واحدة مطلقة فراقِ)

ب٦: أذكرها تسبقني، كأنّني للأسى أجاريها (لفظة واحدة مطلقة: الدموعُ)

ب٧: المقيّد: يا، مكترثٍ، منْ، لا، أغليها

المطلق: بحرُ أرخصتَ غيرَ، كنتُ للبياعِ

ب٨: المقيّد: جوهرةً، خاطري ،صدفاً، لها، أقيها بِهِيْ وأحميها

المطلق، كانَ

ب٩: مقيّد أبتّها مقيّد (للجوهرة) مغرقةً، أبكيها

المطلق: حشاكَ، بتُّ مطلق (الشاعر) ،ساحليكَ

ب١٠: مطلق مطلق مقيّد مقيّد مطلق مطلق مقيّد مقيّد

نفحةُ الطيبِ في ذوائبها صبغةُ الكحلِ في مآقيها

٤- إيقاع الإعراب

ونرصد هنا أنواع الحركات والسكنات وما تمنحه من نغمات:

ونفحةُ الطيبِ في ذوائبها وصبغةُ الكحلِ في مآقيها

تماثل بين شطري البيت في أنواع الحركات والنغمات

إن سالَمَتْ، حارَبَتْ

عَانَقَهَا، فَارَقَهَا

إيقاع الضمّ: قليل، يهدمُ، فأيُّ، والدموعُ، يا بحرُ، كنتُ، ونفحةُ، وصبغةُ.

إيقاع الفتح: دارَ، فهيَ، أرخصتَ، أبتَّها، حشاكَ، ساحليكَ، ثمَّ، فاضَ، كيفَ، مِنَ.

إيقاع الكسر: الحياةِ فراقِ، للبياع، بهِ، الطيب، الكحلِ
ب١٢: الماءِ والتراب، أحكامِ ضدّين، العنصرين
إيقاع السكون: وله منابع شتّى
ألف الإطلاق هاْ
الشدّة، ساكن فمتحرّك
التنوين متحرّك فساكن
الألف: للأسى، تراها
تاء التأنيث، تردتْ، ردّتْ
ال التعريف: دار الْ حياة
الياء: خاطري يميتني، في

لقد عزف الشاعر ابن حمديس في قصيدته موسيقا جنائزية مؤثّرة بفرقته الموسيقيّة المكوّنة من العناصر اللغويّة والمعنويّة، جعلتنا نشارك الشاعر في مشاعره المضطربة وأحزانه المتعدّدة.

سادساً: مستوى الصورة الفنية

إنّ مفهوم الصورة الفنّيّة مفهوم نقديّ مهمّ قد أدركه الشعراء العرب على مختلف عصورهم، ووعاه النقّاد، ولكنّ هذا المفهوم لم يقيّض له أن يحدّد فيتخذ صيغة واحدة ودلالة واحدة حتّى الآن، فظهر في صيغ مختلفة كالتصوير والصورة والصورة الشعريّة والصورة البلاغيّة والصورة البيانيّة والصورة الأدبيّة والصورة الفنيّة.

ويختلف مفهوم الصورة تبعاً لاختلاف اتجاهات درسها ضمن حقول المعرفة الإنسانيّة عامّة وفي الدراسات الأدبيّة خاصة، ومن أدقّ تعريفاتها أنّها «تعبير لغويّ عن تراسل بين لفظين أو تراسل بين علاقتين، وسواء أكانت هذه الصورة بسيطة أم معقّدة فإنّها تعبّر عن مشابهة إذا ما حقّقت بوساطة أداة مثل الكاف ونظير وتعبّر عن مماثلة

وتوحّد إذا ما حقّقت دون أداة»[1]

وبعبارة بسيطة دقيقة إن الصورة الفنيّة هي «كلّ تعبير غير حرفي»[2] ليس بالضرورة أن يكون مجازيّاً.

وإنّ الاهتمّام بالصورة الفنيّة قديم قدم الشعر، فالشعر قائم على الصورة منذ أن وجد، وعلى مر العصور واختلاف الاتجاهات والمذاهب والمدارس الشعريّة ظلّت الصورة الخاصّة الأساسيّة للشعر وأداته الأولى والرئيسيّة ، تفرّق عصراً من عصر وتياراً من تيار وشاعراً من شاعر، وتظهر أصالة الشاعر، وتدلّ على قيمة فنّه وترمز إلى عبقريته وشخصيته وتحمل خصوصيته وفرديته.

وثمّة سيل من الأقوال عن أهميّة الصورة الفنّيّة ، وأنّها أساس الشعر وجوهره إن لم تكن الشعر نفسه، ولكن يجب ألّا ننجرف وراء هذه المبالغات فالصورة عنصر أساسيّ من عناصر الشعر وليست جميع العناصر[3] .

١– طبيعة الصورة الفنية في القصيدة

الأدب في الأساس تعبير بالصور، والصورة الفنّيّة هي الوحدة الأساسيّة في بنائه ، وهي كذلك عند ابن حمديس فهو ينحو إلى التعبير التصويري منذ البيت الأوّل ، حتّى إنّها لتشمل أغلب أبيات قصيدته. هذا من جهة، والصورة الفنّيّة – من جهة أخرى — هي إحدى أهمّ القيم المعياريّة التي تقاس بها جودة الشعر قديماً وحديثاً.

السؤال المهمّ في هذا المجال هو هل الصورة الفنيّة لاحقة تزيينية تتمّ بمرحلتين، عرض الفكرة ثمّ إلباسها صورة أم هي عنصر بنائيّ عضويّ في التشكيل الفنيّ الجمالي للقصيدة، منذ البداية نجد أنّ الشاعر يفكّر بالصورة لا بالتعبير الحرفي:

يهدم الباني داراً، تعبير حرفي مباشر.

يهدم الباني دار الحياة تعبير تصويري إذ صوّر الحياة وهي شيء معنوي، بشيء

١– بنية الصورة الفنية عند أبي تمّام ، د. فهد عكّام ، التراث العربي ، دمشق ، عدد: ١١–١٢ ، ص ٢٥٤

٢ – مقدمة لدراسة الصورة الفنّيّة: ٤٦

٣ – الصورة والبناء الشعري: ١٩

مـادي وهـو الـدار، فـالتعبير بالصـورة مقصـود لذاتـه، كمـا أنّ المعنى كلّـه يتّجـه إلى الحيـاة والضمائر ترجع إليها.

ويكـون التصـوير لديه بـالأدوات البلاغيّة في أغلـب الأحـوال، وقـد يكـون بالألفـاظ الموحيـة الـتي تعمـل الخيـال كالبيـت الثـاني: وإن تـردّت الـتي تـوحي بالسـقوط في بئـر المـوت العميقة.

وبحذف الصورة أو أي جزء منها ينهدم ركن من أركان الجملة بل تتلاشى الجملة كلّها فلا نستطيع أن ننزع الصورة من إهاب الجملة لأنّ التركيب البلاغي مشكّل تشكيلاً نحويّاً أساسيّاً:"إن سـالمت أيامنـا حاربـت لياليهـا" فـإذا حـذفنا أي ركـن مـن أركـان الصـورة تتلاشى الجملة نفسها فهو يعبّر بالصور بشكل أساسي.

وحتّى إذا كانت الصورة الفنيّة أقلّ ارتباطاً نحويّاً فلم تكن مسنداً أو مسنداً إليه ولا عمدة بل فضلة فإنّها لا تكون زائدة لاحقة وليست وظيفتها تزيينيّة كما رأينا في مستهلّ القصيدة.

٢– أدوات الصورة

أ. **الصورة البصرية:** وممّا لا شك فيه أنّ الصورة الفنية البصريّة هي أكثر أنواع الصور الحسية وفـرة في الشـعر كلّـه، لأنّ حاسّـة البصـر هـي الأداة الأولى في صـنع الصـور، ومنـذ البيـت الأوّل نجد الصورة البصريّة صورة هدم: دار الحياة ثمّ تتوالى الصور البصريّة: صورة التردّي والسقوط

أما تراها حثّ على الرؤية، غابة ملتفّة فيها حيّة

حاربـت، الـدموع تسـبقه، البحـر، الجـوهرة، الصـدف، صـورة المغرقـة، صـورته وهـو يبكي، صبغة الكحل، صورة العناق الشديد، ذاك غيّرها

ب. الصور اللمسيّة:

يهدم: ملامسة اليد للمعول وملامسة المعول لجدار الدار

أقيها، أحميها، خاطري صدف، وهو محيط بالجوهرة وقرار لها

أبتّها في حشاك، عانقها البحر، ضمّة، إغراق الماء لها وغمرها به، غيّرها محا محاسنها

ج. الصور السمعيّة

صوت الهدم، تردّت صوت الهوّي، حاربت، واوحشتا (صراخ)، ذكرها، أذكرها، نداء البحر، خطابه للبحر أرخصت، أبتّها، صوت البكاء أبكيها.

د. الصور الشمية

ونفحة الطيب في ذوائبها

٣- الأدوات البلاغية للصورة

أ. التشبيه وهو قليل

دار الحياة: الحياة دار "تشبيه بليغ"

الحياة كأنّها أجم، مصائبها حيّاتها "تشبيه تمثيلي"

كأنّني أجاريها، كأنّني للشكّ وليس للتشبيه

ب. الاستعارة

هي الأداة التي يرتاح إليها ابن حمديس في صنع صوره الفنّيّة لما للاستعارة من قدرة كبيرة على التشخيص والتجسيد، وبثّ الحياة والحركة في العناصر الثابتة والجامدة.

سالمت الأيّام، حاربت لياليها

الذكر يميت ويحيي، الدموع تسبقه وهو يسابقها

يشخّص البحر ويخاطبه

عانقها البحر فارقها

حُكّما فيها، أماتها البحر وغيّرها التراب

٤- أنماط الصورة الفنية:

أ. الصور الحركيّة

يهدم، يبني، تردّت حركة السقوط، ردّت

حاربت، يحييها (علاقة الحياة بالحركة)

تسبقني الدموع، أجاريها، أقيها، أحميها، عانقها، فارقها، ضمّة، فاض، غيّرها التراب.

ب. الصور اللونيّة والضوئية

- اللون الأخضر: الأُجُم
- اللون الأسود: الليالي، الأَسْود
- اللون الأزرق: البحر
- اللون الأبيض: اللؤلؤة
- اللون البنّي: التراب
- الصورة الضوئيّة: الماء، الجوهرة

ج. صور المفارقة الشعورية

يهدم الباني، إن سالمت حاربت، يميتني ذكرها ويحييها

يُرخص الغالي، عن ضمة: العناق يؤدّي إلى الموت

أحكام ضدّين لكنّهما اتّفقا عليها

د. الصور الإشاريّة:

ب١: أي حيّ مخلّد فيها، أي لا خلود بل فناء: كلّ من عليها فان

ب٢: نفوس ردت عواريها: من قول الناس: عارية مستردّة، يشير إلى بيت لبيد الشهير:

وما المال والأهلون إلّا ودائع ولا بدّ يوماً أن تردّ الودائع

هـ. الصور الوهميّة

ب١: هدم دار الحياة

ب٣:الأيّام تسالم وتحارب

ب٥: يميتني ذكرها ويحييها

ب١١: عانقها البحر

٥– وظيفة الصورة الفنية:

أ. التعبير عن المعنى

فالشاعر يعبّر بالصورة الفنيّة عن المعنى أكثر من التعبير المباشر.

ب. التأثير

وهي من أهمّ وظائف الصورة وهي إحداث الأثر المطلوب إحداثه في المتلّقي، وقد استطاع الشاعر تحقيق هذا الأثر حتّى لتجد القارئ يشارك الشاعر في أحزانه وأتراحه واضطرابه.

ج. الجماليّة:

وبها يتميّز النصّ الأدبي من سواه وتهدف إلى إظهار السمات الفنّيّة والجماليّة التعبيريّة في النصّ، ليشعر القارئ بلّذة النصّ والإعجاب بطرائقه التصويرية التي أحدثت هذه القيم الجماليّة في النفس، ويتبدّى ذلك بوضوح في شريط الصور الجميلة الحزينة في آن التي حكى فيها الشاعر قصّة غرق حبيبته وجعلنا لا نتأثر بما قاله فحسب بل نشعر بمتعة الجمال وروعة الجلال، جمال المحبوبة وجلال البحر المخيف.

٦- خصائص الصورة الفنية

أ. الجدّة والحداثة والتفرّد: تشخيص البحر ومخاطبته

ب. الامتداد: الأبيات من البيت الخامس إلى النهاية كلّها لتصوير غرق الحبيبة في البحر وحزنه عليها

ج. الغرابة: هدم دار الحياة، الأيّام تسالم وتحارب، الدموع تسبقه، البحر يعانق ويفارق

د. الجزئيّات الموحية: ونفحة الطيب، وصبغة الكحل، لا للبياع

هـ. الدقّة:

أماتها ذا، ذاك غيّرها، بتّ في ساحليك.

وفي نهاية هذه الرحلة الماتعة في لجج قصيدة ابن حمديس لا بدّ من التنبيه على أنّ هذه دراسة أسلوبيّة تطبيقيّة مختصرة، تهتمّ بالتحليل والتشريح والتفكيك أكثر من اهتمامها بإصدار الأحكام وتقرير النتائج، وتتّسم باللمحة الخاطفة والإشارة السريعة التي لا تتّضح ولا تكتمل إلّا بالمناقشة والحوار وتلاقح الأفكار.



الفصل الثاني

نصوص من الشعر الأندلسي

يوسف بن هارون الرمادي

قال الرمادي يمدح القالي

مَــنْ حــاكمٌ بَيْــني وبــينَ عــذولِي ... الشَّــجْوُ شَــجْوي والعَويــلُ عــويلِي
في أيِّ جارحــــةٍ أصــــونُ مُعَــــذِّبِي ... سَــلِمَتْ مِــنَ التَّعــذيبِ والتَّنكيــلِ
إنْ قلــتُ في بَصَــرِي فَــثمَّ مَــدَامعِي ... أو قلــتُ فِيْ كَبــدِيْ فــثمَّ غليلِــي
وثــلاثُ شَــيْبَاتٍ نَــزَلنَ بمفرقِــي ... فعلمــــتُ أنَّ نــــزولهنَّ رحيلِــــي
طلعــتْ ثــلاثٌ في نــزولِ ثلاثــةٍ ... واشٍ ووجــــهِ مراقــــبٍ وثقيــــلِ
فعــزَلْنَنِي عــنْ صــبوَتِي مُتــذلّلاً ... ولقــدْ ســمعتُ بذلّــةِ المعــزولِ
إنْ كنــتُ ودعــت الصبابة عــن قلــى ... وبــدتْ برأســيْ حجّــةٌ لعــذولِ
قــدْ أغتــديْ والصُّــبحُ في توريسِــهِ ... تقضِــي العيــونُ لــهُ بوجــهِ عليــلِ
بأقــبَّ لــونِ الآبنــوسِ مفضَّــضٍ ... في غــــرّةٍ منــــهُ وفِيْ تحجيــــلِ
يزهَــى بتحليــةِ اللِّجــامِ كَمَــا زَهَــا ... مَلِــكٌ محلَّــى الــرَّأْسِ بالإكليــلِ
مســتغرِقٌ لصــفاتِ زيــدِ الخيــلِ والــ ... غَنَــــويِّ والمُــــزَنِيِّ والضِّــــلِّيلِ

ومنها:

حــتّى إذا صــدنا الوحــوشَ فلــمْ نــدعْ ... منهــــنَّ غــــيرَ معــــالِمٍ وطلــــولِ
ونهــتْ محافظــةُ الحِســانِ فلــمْ تصــلْ ... كفِّــــي إلى ظَــــبيٍ أَغــــنَّ كَحيــــلِ
ومكبَّــــلٍ لم يجــــترمْ جُرْمــــاً ولا ... دامَــــتْ صــــحابتُهُ بغــــيرِ كبــــولِ
متلفّــــتٌ كتلفّــــتِ المرتــــاعِ يَقْــــ ... ــسمُ لحظَــهُ في الحــولِ بعــدَ الحَــولِ
حــتّى إذا مــا الســربُ عــنَّ للحظــهِ ... أومَــى بقادمتِيــهِ خــلِّ ســبيلي
ولَّــتْ جماعتُهــا وشــدَّ وراءَهَــا ... وكأنَّــــهُ بطــــلٌ وراءَ رعيــــلِ[1]

---

(١) **شعر الرمادي: ١١١-١١٧، يتيمة الدهر: ١ / ١٨٦.**

عجلـــتْ وأدركَهـــا ردى في إثرِهـــا ... إنَّ الـــردى قيـــدٌ لكـــلِّ عجـــولِ

ولقـــدْ غـــدوتُ بـــأهرتٍ متضـــائلٍ ... ســـرَّ النفـــوسَ إليـــهِ غـــيرِ ضـــئيلِ

ولربَّمـــا اشـــتمَّ الصـــعيدَ بأنفِـــهِ ... حينـــاً فقـــامَ لـــهُ مقـــامَ دليـــلِ

متتبّـــــعٌ لظلالِـــــهِ فكأنَّـــــهُ ... في القـــيظِ يطلـــبُ ظلَّـــهُ لمقيـــلِ

فنزلـــتُ في فـــرشِ الريـــاضِ ولمْ يكـــنْ ... ليحوزَهَـــا مثلِـــي بغـــيرِ نـــزولِي

روضٌ تعاهـــدَهُ الســـحابُ كأنَّـــهُ ... متعاهَـــدٌ مـــنْ عِلْـــمِ إسماعيـــلِ

قِسْـــهُ إلى الأَعْـــرَابِ تعلـــمْ أنَّـــهُ ... أوْلى مِـــنَ الأَعْـــرَابِ بالتفضـــيلِ

حـــازتْ قبـــائلُهمْ لغـــاتٍ جمُّعـــتْ ... فـــيهمْ وَحَـــازَ لغـــاتِ كـــلِّ قبيـــلِ

فالشـــرقُ خـــالٍ بعـــدَهُ فكأنَّمـــا ... نـــزلَ الخَـــرابُ بربعِـــهِ المـــأهولِ

جمعُـــوا بغيبتِـــهِ ومـــوتِ شـــيوخِهِ ... عـــنهمْ ولمَّـــا يظفـــرُوا ببـــديلِ

مُـــذْ جـــاءَهمْ وهـــمْ بليـــلِ همـــومِهِمْ ... منـــهُ فصـــاروا في دجـــىً موصـــولِ

فكأنَّـــهُ شـــمسٌ بـــدَتْ في غربِنـــا ... وتغرَّبَـــتْ في شـــرقِهِمْ بـــأُفولِ

يَـــا ســـيِّدِي هَـــذَا ثنـــائِي لمْ أقـــلْ ... زوراً ولا عَرَّضْـــتُ بالتنويـــلِ

مَـــنْ كَـــانَ يَأْمُـــلُ نَـــائِلاً فَأَنَـــا امْـــرُؤٌ ... لَـــمْ أَرْجُ غـــيرَ القُـــرْبِ في تَـــأْمِيْلِي

وقال في الحسّون أم الحسن:

وَخَرســـاءَ إلّا في الرَّبيـــعِ فَإِنَّهَـــا ... نَظـــيرَةُ قُـــسٍّ في العُصـــورِ الـــذَّواهِبِ

أَتَـــتْ تَمـــدحُ النـــوارَ فَـــوقَ غُصـــونِها ... كَمـــا يَمـــدَحُ العُشـــاقُ حُسْـــنَ الحَبائِـــبِ

تُبـــدِّلُ أَلحانـــاً إذا قيـــلَ بـــدِّلي ... كَمـــا بَـــدَّلَت ضَـــرباً أَكـــفُّ الضـــوارِبِ

تُغَـــنّي عَلَينـــا في عروضـــين شـــعرَها ... وَلَكـــنَّ شـــعراً في قَـــوافٍ غَرائِـــبِ

إذا اِبتـــدأت تنشـــدكَ رجـــزاً وَإِن تَقـــلْ ... لَهـــا بَـــدِّلي تُنشِـــدْكَ في المتقـــارِبِ

وَلَـــيسَ لَهـــا تيـــه الطُّـــراءِ بِصَـــوتِها ... وَلَكـــنْ تُغَـــنِّي كُـــلَّ صـــاحٍ وَشـــارِبِ [1]

---

(١) شعره: ٥٤ –٥٥.

ابن دراج القسطلّي

قال ابن دراج يمدح المنصور

دَعِـــي عَزَمـــاتِ المُســـتضامِ تســـيرُ ... فَتُنْجِـــدُ فِي عُـــرْضِ الفَـــلا وتَغُـــورُ

لعـلَّ بمـا أَشـجاكِ مـن لوعـةِ النَّـوى ... يُعَـــزُّ ذليـــلٌ أَوْ يُفَـــكُّ أَســـيرُ

أَلَمْ تعلَمِـــي أَنّ الثَّـــوَاءَ هـــو التَّـــوَى ... وأَنَّ بيـــوتَ العـــاجِزينَ قُبـــورُ

ولم تزجُـــرِي طَيْـــرَ السُّـــرى بِحروفِهـــا ... فَتُنْبِئُـــكِ إِنْ يَمَّـــنَّ فَهْـــيَ سُـــرورُ

تُخَـــوِّفُنِي طـــولَ السِّـــفارِ وإِنَّـــهُ ... لتقبيـــلِ كـــفِّ العـــامِرِيِّ سَـــفِيرُ

دَعِيـــني أَرِدْ مـــاءَ المفـــاوِزِ آجِنـــاً ... إِلَى حَيْـــثُ مـــاءُ المكرُمَـــاتِ نَمِـــيرُ

وأَخْـــتَلِسِ الأَيَّـــامَ خُلْسَـــةَ فاتِـــكٍ ... إِلَى حَيْـــثُ لي مِـــنْ غَـــدْرِهِنَّ خَفِـــيرُ

فـــإِنَّ خطـــيراتِ المهالِـــكِ ضُـــمَّنٌ ... لراكِبِهـــا أَنَّ الجـــزاءَ خطـــيرُ

ولَمَّـــا تـــدانَتْ للـــوداعِ وَقَـــدْ هَفـــا ... بصَـــبْرِيَ منهـــا أَنَّـــةٌ وزَفـــيرُ

تناشِـــدُنِي عَهْـــدَ الـــمَوَدَّةِ والهَـــوى ... وَفِي المَهْـــدِ مبغـــومُ النِّـــداءِ صَـــغيرُ

عَبِـــيٌّ بمرجـــوعِ الخطـــابِ ولَفْظُـــهُ ... بمَوْقِـــعِ أَهْـــوَاءِ النفـــوسِ خَبـــيرُ

تَبَـــوَّأَ ممنـــوعَ القلـــوبِ ومُهِّـــدَتْ ... لَـــهُ أَذرُعٌ محفوفَـــةٌ ونُحُـــورُ

فكـــلُّ مُفَـــدَّاةِ الترائِـــبِ مُرْضِـــعٌ ... وكـــلُّ مُحَيَّـــاةِ المحاسِـــنِ ظِـــيرُ

عَصَـيْتُ شـفيعَ الـنفسِ فِيـهِ وقـادَنِي ... رَوَاحٌ لِتَـــدْآبِ السُّـــرى وبُكُـــورُ

وطـارَ جَنـاحُ الشَّـوْقِ بِي وَهَفَـتْ بِهَـا ... جـــوانِحُ مـــن ذُعْـــرِ الفِـــراقِ تطـــيرُ

لـــئِنْ وَدَّعَـــتْ مـــني غَيـــوراً فـــإِنَّنِي ... عَلَـــى عَـــزْمَتِي مـــن شَـــجْوِها لَغَيُـــورُ

ولـــو شـــاهَدَتْنِي والصَّـــواخِدُ تَلْتَظِـــي ... عَلَـــيَّ ورقـــراقُ الســـرابِ يَمُـــورُ

أُسَـــلِّطُ حَـــرَّ الهـــاجِراتِ إِذَا سَـــطَا ... عَلَـــى حُـــرِّ وَجْهِـــي والأَصـيلُ هَجِـيرُ

وأَسْتَنْشِـــقُ النَّكْبـــاءَ وَهْـــيَ بَـــوارِحٌ ... وأَسْـــتَوْطِئُ الرَّمْضـــاءَ وَهْـــيَ تَفُـــورُ

ولِلْمَـــوْتِ فِي عـــيشِ الجبـــانِ تلـــوُّنٌ ... وللـــذُّعْرِ فِي سَـــمْعِ الجـــريءِ صَـــفيرُ

لَبــانَ لَهَــا أَنِّي مِــنَ الضَّــيْمِ جــازِعٌ ... وأَنِّي عَلَــى مَــضِّ الخُطُــوبِ صَــبُورُ

أَمِــيرٌ عَلَــى غَــوْلِ التَّنــائِفِ مَــا لَــهُ ... إذَا رِيــــعَ إلّا المَشْـــــرِفِيَّ وَزِيـــــرُ

ولــو بَصُــرَتْ بِي والسُّرى جُــلُّ عَــزْمَتي ... وجَرْسِـــي لِجِنَّـــانِ الفَـــلاةِ سَمِـــيرُ

وأَعْتَسِــفُ الــمَوْمَاةَ فِي غَسَــقِ الــدُّجى ... وللأُسْــدِ فِي غِيــلِ الغِيــاضِ زَئِــيرُ

وَقَــدْ حَوَّمَــتْ زُهْــرُ النُّجــومِ كَأَنَّهــا ... كواعِــبُ فِي خُضْــرِ الحَــدائِقِ حُــورُ

ودارَتْ نجــومُ القُطْــبِ حَــتَّى كَأَنَّهــا ... كُــؤُوسُ مَهــاً والى بِهِــنَّ مُــدِيرُ

وَقَــدْ خَيَّلَــتْ طُــرْقُ الــمَجَرَّةِ أَنَّهــا ... عَلَــى مَفْــرِقِ الليــلِ البهــيمِ قتــيرُ

وثاقِــبَ عَزْمِــي والظَّــلامُ مُــرَوِّعٌ ... وَقَــدْ غَــضَّ أَجفــانَ النجــومِ فُتُــورُ

لَقَــدْ أَيْقَنَــتْ أَنَّ المــنى طَــوْعُ هِمَّتِــي ... وأَنِّي بعطْــفِ العــامِرِيِّ جــديرُ

وأَنِّي بــذكراهُ لِهَمِّــيَ زاجِــرٌ ... وأَنِّيَ منــهُ للخطــوبِ نــذِيرُ

وأَيُّ فــتىً للــدينِ والملــكِ والنَّــدى ... وتَصْــدِيقُ ظَــنِّ الــراغِبِينَ نَــزُورُ

مُجِيرُ الهُــدى والــدينِ مــن كُــلِّ مُلْحِــدٍ ... وَلَــيْسَ عَلَيْــهِ لِلضَّــلَالِ مُجِــيرُ

تلاقَــتْ عَلَيْــهِ مــن تَمــيمٍ ويَعْــرُبٍ ... شُمُــوسٌ تَــلَالا فِي العُــلَا وبُــدُورُ

مــنَ الحِمْيَــرِيِّينَ الَّــذِينَ أَكُفُّهُــمْ ... ســحائِبُ تَهْمِــي بالنَّــدى وبُحُــورُ

ذَوُو دُوَلِ المُــلْكِ الَّــذِي سَــلَفَتْ بِهَــا ... لَهُــمْ أَعصُــرٌ مَوْصُــولَةٌ ودُهُــورُ

لَهُــمْ بَــذَلَ الــدهرُ الأَبِيُّ قِيــادَهُ ... وهُــمْ سَــكَّنُوا الأَيَّــامَ وَهْــيَ نَفُــورُ

وهُــمْ ضَــرَبُوا الآفــاقَ شــرقاً ومغرِبــاً ... بِجَمْــعٍ يَسِــيرُ النَّصْــرُ حَيْــثُ يَسِــيرُ

وهُــمْ يَســتَقِلُّونَ الحيــاةَ لِرَاغِــبٍ ... ويَسْتَصْــغِرُونَ الخطْــبَ وَهْــوَ كبــيرُ

وهُــمْ نَصَــرُوا حِــزْبَ النُّبُــوَّةِ والهُــدى ... وَلَــيْسَ لَهَــا فِي العــالَمِينَ نَصِــيرُ

وهُــمْ صَــدَّقُوا بــالوَحْيِ لَمّــا أَتــاهُمُ ... وَمَــا النَّــاسُ إلّا عانِــدٌ وكَفُــورُ

مناقِــبُ يَعْيــا الوَصْــفُ عَــنْ كُنْــهِ قَــدْرِها ... ويَرْجِــعُ عَنْهــا الــوَهْمُ وَهْــوَ حَسِــيرُ

ألا كُــلُّ مَــدْحٍ عَــنْ مَــدَاكَ مُقَصِّــرٌ ... وكــلُّ رجــاءٍ فِي سِــواكَ غُــرُورُ

تَمَلَّيْــتَ هَــذَا العيــدَ عِــدَّةَ أَعْصُــرٍ ... تُوَالِيــكَ منهــا أَنعُــمٌ وحُبُــورُ

ولا فَقَـدَتْ أَيَّامَـكَ الغُـرَّ أَنفُـسٌ ... حياتُـكَ أَعيـادٌ لهـم وسُـرورُ

ولمـا تَوافَـوْا للسَّـلامِ ورُفِّعَـتْ ... عـن الشـمسِ فِي أُفْـقِ الشُّـروقِ سُـتورُ

وَقَـدْ قـامَ مـن زُرقِ الأَسِـنَّةِ دُونَهَـا ... صـفوفٌ ومـن بِـيضِ السُّـيوفِ سُـطُورُ

رأَوْا طاعَـةَ الـرَّحمنِ كَيْـفَ اعتِزازُهـا ... وآيـاتِ صُـنْعِ اللهِ كَيْـفَ تُنـيرُ

وكَيْـفَ اسْـتَوى بـالبَحْرِ والبَـدْرِ مَجْلِـسٌ ... وقـامَ بِعِـبْءِ الرَّاسِـياتِ سَـريرُ

فَسـارُوا عِجـالاً والقُلـوبُ خَوَافِـقٌ ... وأُذْنُـوا بِطـاءً والنَّـوَاظِرُ صُـورُ

يَقُولـونَ والإِجـلالُ يُخْـرِسُ أَلسُـناً ... وحـازَتْ عُيُـونٌ مِلأَهـا وصُـدُورُ

لقَـدْ حـاطَ أَعـلامَ الهُـدى بِـكَ حـائِطٌ ... وقَـدَّرَ فيـكَ المَكْرمـاتِ قَـدِيرُ

مُقِـيمٌ عَلَـى بَـذْلِ الرَّغائِـبِ واللُّهـى ... وفِكْـرُكَ فِي أَقْصـى الـبِلادِ يَسـيرُ

وأَيْـنَ انْتَـوى فَـلُّ الضَّـلالَةِ فَـانْتَهى ... وأَيْـنَ جُيُـوشُ المسـلِمينَ تُغِـيرُ

وحَسْـبُكَ مـن خَفْـضِ النَّعِـيمِ مُعَيِّـداً ... جِهـازٌ إِلَى أَرضِ العِـدى ونَفِـيرُ

فَقُـدْها إِلَى الأَعـداءِ شُـعْثاً كَأَنَّهـا ... أَرَاقِـمُ فِي شُـمِّ الرُّبـا وصُـقُورُ

فَعَزْمُـكَ بالنَّصْـرِ العَزِيـزِ مُخَبِّـرٌ ... وسَـعْدُكَ بـالفَتْحِ الـمُبِينِ بَشِـيرُ

ونـادَاكَ يَـابْنَ الـمُنْعِمِينَ ابْـنُ عَشـرَةٍ ... وعَبْـدٌ لِنُعْمـاكَ الجِسـامِ شَـكُورُ

غَـنِيٌّ بِجَـدْوى راحَتَيْـكَ وإِنَّـهُ ... إِلى سَـبَبٍ يُـدْنِي رِضـاكَ فَقِـيرُ

ومِـنْ دُونِ سِـتْرَيْ عِفَّـتِي وتَجَمُّلِـي ... لَرَيْـبٌ وصَـرْفٌ للزَّمـانِ يَجُـورُ

وضـاءَلَ قَـدْرِي فِي ذَرَاكَ عوائِـقٌ ... جَـرَتْ لِيَ بَرْحـاً والقضـاءُ عَسِـيرُ

وَمَـا شَـكَرَ النَّخْعِـيُّ شُـكْرِي ولا وَفى ... وفـائِيَ إِذْ عَـزَّ الوَفـاءُ قَصِـيرُ

فَقُدْنِي لِكَشْفِ الخَطْبِ والخَطْبُ مُعضِلٌ ... وكِلْـنِي لِلَيْـثِ الغـابِ وَهْـوَ هَصُـورُ

فَقَـدْ تَخْفِـضُ الأَسماءُ وَهْـيَ سَـوَاكِنٌ ... ويَعْمَـلُ فِي الفِعْـلِ الصَّـحيحِ ضَـمِيرُ

وتَنْبُـو الرُّدَيْنِيَّـاتُ والطُّـولُ وافِـرٌ ... ويَنْفُـذُ وَقْـعُ السَّـهْمِ وَهْـوَ قَصِـيرُ

حنانَيْـكَ فِي غُفْـرانِ زَلَّـةِ تائِـبٍ ... وإِنَّ الَّـذِي يَجْـزِي بِـهِ لغَفُـورُ[1]

١- ديوان ابن دراج: ٢٤٩- ٢٥٥.

ابن شهيد

١ – الفخر :

فقال[تابع المتنبّي]: بلغني أنّه يتناول؛ قلت: للضرورة الدافعة، وإلا فالقريحة غير صادعة، والشفْرة غير قاطعة. قال: فأنشدني؛ وأكبرتُه أن أستنشده، فأنشدته قصيدتي التي أوّلها:

أَبَـرْقٌ بَـدا أَمْ لَمْـعُ أَبْـيَضَ قاصِـلِ ... ورَجْـعُ صَـدى أَمْ رَجْـعُ أَشْـقَرَ صَـاهِلِ

أَلا إِنَّهَـا حَـرْبٌ جَنَيْـتُ بِلَحظَـةٍ ... إِلى عُـرُبٍ يَـوْم الكَثِيـبِ عَقَائِـلِ

هَـوى تَغْلِـبِيٌّ غالَـبَ القَلْـبَ فـانْطَوَى ... علـى كَمَـدٍ مِـن لَوْعـةِ القَلْـبِ داخِـلِ

رِدي تَعْلَمِـي بالخَيْـلِ مَـا قَـرَّبَ النَّـوى ... جِيَـادَكِ بالثَّرْثَـارِ يـا ابْنَـةَ وائِـلِ

جَزَيْنَـا بِيَـوْمِ المَـرْجِ آخَـرَ مِثْلَـهُ ... وغُصْـناً سَـقَيْنا نَـابَ أَسْمَـرَ عاسِـلِ

حتّى انتهيت فيها إلى قولي:

تَـرَدَّدَ فيهـا البَـرْقُ حـتَّى حَسِـبْتُهُ ... يُشِـيرُ إِلى نَجْـمِ الرُّبَـا بالأَنامِـلِ

رُبـاً نَسَـجَتْ أَيْـدي الغَمـامِ لِلِبسِـها ... غَلائِـلَ صُـفْراً فَـوْقَ بِـيضٍ غلائِـلِ

سَـهِرْتُ بهـا أَرْعَـى النُّجُـومَ وأَنجمـاً ... طَوالـعَ للـرّاعِينَ غَيْـرَ أَوافِـلِ

وقـد فَغَـرَتْ فاهـاً بهـا كُـلُّ زَهْـرة ... إِلى كُـلِّ ضَـرْعٍ للغَمَامـةِ حافِـلِ

وَمَـرَّتْ جُيـوشُ المـزْنِ رَهْـواً كأَنَّهـا ... عَسَـاكِرُ زَنْـجٍ مُـذْهَبَاتُ المناصِـلِ

وحَلَّقَـتِ الخَضْـراءُ في غُـرِّ شُـهْبِها ... كَلُجَّـةِ بَحْـرٍ كُلِّلَـتْ باليَعالِـلِ

تخـالُ بهـا زُهْـرَ الكَوَاكِـبِ نَرْجِسـاً ... علـى شَـطِّ وادٍ للمَجَـرّةِ سـائِلِ

وتلْمَـحُ مِـن جَوزائِهـا في غُرُوبِهـا ... تَسـاقُطَ عَـرْشٍ واهِـنِ الـدَّعْمِ مائِـلِ

وتَحْسَـبُ صَـقْراً واقِعـاً دَبَرانَهَـا ... بعُـشِّ الثُّرَيّـا فَـوْقَ خُمْـرِ الحَوَاصِـلِ

وبَـدْرَ الـدُّجَى فيهـا غَـدِيراً وحَوْلَـهُ ... نُجُـومٌ كطَلْعَـاتِ الحَمَـامِ النَّواهِـلِ

كـأَنَّ الـدُّجَى هَمّـي ودَمْعِـي نُجُومُـهُ ... تَحَـدَّرَ إِشْـفَاقاً لدَهْـرِ الأَراذِلِ

هَـوَتْ أَنْجُـمُ العَلْيَـاءِ إِلَّا أَقلّهَـا ... وغِـبْنَ بمـا يَحْظَـى بـهِ كُـلُّ عاقِـلِ

وأَصْـبَحْتُ في خَلْـفٍ إذا مَـا لَمَحْـتَهُمْ ... تَبَيَّنْـتَ أَنَّ الجَهْـلَ إِحْـدَى الفَضَـائِلِ

ومـا طـابَ في هَـذِي البَرِيَّـةِ آخـرٌ ... إذا هُـوَ لَمْ يُنْجَـدْ بطِيـبِ الأَوائِـلِ

أَرَى حُمُـراً فَـوْقَ الصَّـواهِلِ جَمّـةً ... فـأَبْكي بعَيْـنِي ذُلَّ تِلْـكَ الصَّـواهِلِ

ورُبَّـتَ كُتَّـابٍ إذا قِيـل زَوِّرُوا ... بَكَـتْ مِـنْ تَـأَنِّيهِمْ صُـدُورُ الرَّسـائِلِ

ونَاقِـلِ فِقْـهٍ لَمْ يَـرَ اللَّـهَ قَلْبُـهُ ... يظُـنُّ بـأَنَّ الـدِّين حِفْـظُ المسـائِلِ

وحامِـلِ رُمْـحٍ راحَ فَـوْقَ مضَـائِهِ ... بِـهِ كاعِبـاً في الحـيِّ ذاتِ مغَـازِلِ

حُبُـوا بالمُنَـى دُونِي وغُـودِرْتُ دُونَهُـمْ ... أَرُودُ الأَمـانِي في رِيـاضِ الأَباطِـلِ

ومـا هِـيَ إِلَّا هِمَّـةٌ أَشـجعِيَّةٌ ... ونَفْـسٌ أَبـتْ لِيْ مِـنْ طـلابِ الرَّذائِـلِ

وفَهْـمٍ لَـوِ البِرْجِـيسُ جِئْـتُ بجِـدِّهِ ... إِذاً لَتَلَقَّـانِي بـنَحْسِ المقَاتِـلِ

وكَيْـف ارْتِضَـائِي دارةَ الجهْـلِ منْـزِلاً ... إِذا كانَـت الجـوْزاءُ بعْـضَ منَـازِلِي

وصبْرِي على مَحْضِ الأَذَى مِنْ أَسافِلٍ ... ومجْـدِي حُسـامِي والسّـيادةُ ذابِلـي

ولمَّـا طَمَـا بَحْـرُ البيـانِ بفِكْـرتِي ... وأَغْـرقَ قَـرْنَ الشَّـمْسِ بعْـضُ جـداوِلِي

زَفَفْـتُ إِلى خَـيْرِ الـورى كُـلَّ حُـرّةٍ ... مِـنَ المـدْحِ لَمْ تَحْمُـلْ بِرَعْـيِ الخَمائِـلِ

ومـا رِمْتُهَـا حـتَّى حطَطْـتُ رِحالَهَـا ... علـى ملـكٍ مـنهمْ أَغَـرَّ حُلاحِـلِ

وكِـدْتُ لفَضْـلِ القَـوْلِ أَبْلُـغُ سـاكِتاً ... وإِن سـاءَ حُسّـادِي مـدَى كُـلِّ قائِـلِ[1]

---

١ - **الديوان:** ١٤٢- ١٤٥.

وقال:

هـــــذهِ دارُ زينـــــبٍ والربـــــابِ

...

وفُتُـــوٍّ سَـــرَوْا وقـــد عَكَـــفَ اللَّيْـــ ـــلُ وأَرْخَـــى مُغْـــدَوْدِنَ الأَطْنَـــابِ

وكـــأَنَّ النُّجُـــومَ لمّـــا هَـــدَتْهُمْ أَشـــرقَتْ للعُيُـــونِ مِـــنْ آدابِي

وكـــأَنَّ البُـــرُوقَ إِذْ طـــالَعَتْهُم أُوقِـــدَتْ في سَمائِهَـــا مِـــنْ شِـــهابِي

يَتَقَـــرَّوْنَ جَـــوْزَ كُـــلِّ فَـــلاةٍ جُـــنْحَ لَيْـــلٍ جَـــوْزَاؤُه مِـــنْ رِكَـــابِي

عَـــنَّ ذِكْـــرِي لمُدْلجِيهِـــمْ فتـــاهُوا مِـــنْ حَـــدِيثِي في عُـــرْضِ أَمْـــرٍ عُجَـــابِ

هِمَّـــةٌ في السَّـــمَاءِ تَسْـــحَبُ ذَيْـــلاً مِـــن ذُيُـــولِ العُـــلا وجَـــدٌّ كَـــابِ

وفَـــتىً أَرْهَفَـــتْ ظُبَـــاةُ المعَـــالِي فَتَنَتْـــهُ بالبـــاتِرِ القِرْضَـــابِ

نَيَّبَتْـــهُ أَيَّامُـــهُ ولَيَالِيـــ ـــهِ بظُفْـــرٍ مِـــنَ الخُطُـــوبِ ونـــابِ

حُوَّلٌ لَوْ لُبَابِ اللُّبَابِ رآهُ صَرْفُ اللَّيَالي لَتَـــوَارى مِـــنْ خَوْفِـــهِ في حِجـــابِ

ذاقَ أَيّامَـــهُ فكـــانَ سَـــواءً عِنْـــدَهُ طَعْـــمُ شُـــهْدِها والصّـــابِ

ولَـــو أَنَّ الـــدُّنْيَا كَرِيمَـــةُ نَجْـــرٍ لم تَكُـــنْ طُعْمَـــةً لفَـــرْسِ الكِـــلابِ

وإِذا مَـــا نَظَـــرْتُ مَـــا حـــازَ غَـــيْرِي قَـــلَّ عمَّـــا حَمَلْتُـــهُ في ثِيـــابِي

جِيفَـــةٌ أَنْتَنَـــتْ فطـــارَ إِلَيْهَـــا مِـــنْ بَـــنِي دَهْرِهَـــا فِـــرَاخُ الـــذِّئَابِ

ومنها:

مِـــنْ شُـــهَيْدٍ في سِـــرِّهَا ثُمَّ مِـــنْ أَشْـــ ـــجَعَ في السِّـــرِ مِـــنْ لُبَـــابِ اللُّبَـــابِ

خُطَبَـــاءُ الأَنَـــامِ إِنْ عَـــنَّ خَطْـــبٌ وأَعارِيـــبُ في مُتُـــونِ عِـــرابِ[1]

---

١ – الديوان: ٨٦ –٨٧.

٢- المديح:

مثال من مديحه:

أَصُبَيْحٌ شِيمَ أَمْ بَرْقٌ بَدَا ... أَمْ سَنَا المَحبوبِ أَوْرَى أَزْنُدَا

هَبَّ مِن مرْقدِهِ مُنْكَسِراً ... مُسْبِلاً لِلْكُمِّ مُرْخٍ للرِّدا

يمْسحُ النَّعْسةَ مِنْ عيْنَيْ رشا ... صائِدٍ في كُلِّ يوْمٍ أَسدا

أَوْرَدتهُ لُطْفاً آيتُهُ ... صفْوةَ العيْشِ وأَرْعتْهُ ددا

فَهْوَ مِن دلِّ عراهُ زُبْدةٌ ... مِن صريحٍ لم يُخَالِطْ زَبدا

قُلْتُ هَبْ لي يا حبِيبِي قُبْلَةً ... تَشْفِ مِن غَمّك تَبريح الصَّدى

فانثَنَى يَهْتَزُّ مِن مَنكِبِه ... قائِلاً لا ثُمَّ أَعْطَانِي اليدا

كُلَّما كَلَّمنِي قَبَّلْتُهُ ... فَهْو إِمّا قال قَوْلاً ردَّدا

كاد أَنْ يرْجِع مِن لَثْمِي له ... وارْتِشَافِي الثَّغْرُ منه أَدْرَدَا

قال لي يلْعبُ صِدْ لي طائِراً ... فترانِي الدَّهْرَ أَجْرِي بالكُدَى

وإِذا اسْتَنْجَزْتُ يَوْماً وَعْدَه ... قالَ لي يَمْطُلُ ذَكِّرْنِي غَدا

شَرِبَتْ أَعْطَافُهُ خَمْرَ الصِّبا ... وسَقَاه الحُسْنُ حَتَّى عَرْبَدَا

وإِذا بِتُّ به في رَوْضة ... أَغْيَداً يَعْرُو نَباتاً أَغْيَدَا

قامَ في اللَّيْلِ بجيدٍ أَتْلَعٍ ... يَنْفُضُ اللمّةَ مِن دَمْعِ النَّدَى

رَشَأٌ بَلْ غادةٌ مُكْورةٌ ... عُمِّمَتْ صُبْحاً بلَيْلٍ أَسْوَدَا

...

فَأَنَا المجْرُوحُ مِن عَضَّتِهَا ... لا شَفانِي اللَّهُ منها أَبَدَا

ومَكانٍ عازِبٍ مِن جِيرَةٍ ... أَصْدِقَاءٍ وهُم عَيْنُ العِدَا

ذِي نبـــــاتٍ طَيِّـــــبٍ أَعْرَافُـــــهُ كَعِـــذَارِ الشَّـــعْرِ في الخَـــدِّ بَـــدَا

تَحْسَـــبُ الهَضْـــبَةَ منـــه جَـــبَلاً وحُـــدُورَ المـــاءِ منـــه أَبْـــردَا

قُلْـــتُ إذ خَيَّمْـــتُ فيـــه قاطِنـــاً وتَلاقَتْـــنِي الأَمَـــانِي سُـــجَّدَا

وَرَأَيْـــتُ الـــدَّهْرَ خَـــوْفِي ســـاكِناً وبَـــنِي الأَحْـــرَارِ حَـــوْلِي أَعْبُـــدَا

جـــادَ مَـــن أَصْـــبَحْتُ في أَيَّامِـــه والـــرَّدى يَحْـــذَرُ مِـــن خَـــوْفِي الـــردَى

مَلِـــكٌ يُحْسَـــبُ عَـــدْلاً مَلَكـــاً وإِمـــــامٌ أَمَّ فينـــــا فَهَـــــدَى

خِلْتُـــــهُ والـــــرُّمْحُ في راحَتِـــــهِ قَمَـــراً يَحْمِـــلُ منـــه فَرْقَـــدَا

نِعـــمَ مـــا اخْتَـــرْتُ لنَفْسِـــي فـــاعْلَمُوا إِنْ زَمَـــانٌ جـــارَ أَوْ صَـــرْفٌ عَـــدَا

لَـــيْسَ مـــن يَعْشُـــو إلى نـــار القِـــرى مِثْـــلَ مَـــن يَعْشُـــو إلى نـــارِ الهُـــدَى[1]

٣–الهجاء:

لم يكن ابن شهيد من الهجّائين المجوّدين في هذا الغرض، ولم تؤثر عنه قصيدة واحدة له تزيد على عشرة أبيات[2]. وكان هجاؤه لأسباب أدبيّة وسياسيّة، أي من يتعرّض لأدبه بالنقد والانتقاص، ومن يتعرض له نفسه عند الحكّام ويبعده منهم.

ولَـيْسَ كمَنْحُـوسٍ مِـن القَـوْمِ مُـنْحِسٍ تَعـــاظَمَ حـــتّى قِيـــلَ لَـــيْسَ يُنـــالُ

أَعانَتْـــهُ أَمْـــوالٌ تَخـــوَّنَ عَيْنَهـــا وأَعْلَتْـــهُ غُثْـــرٌ سُـــوقةٌ وسِـــفالُ

لـهُ كَعْـبُ نَحْـسٍ لم يُصـاحِبْ بـه امْـرءاً علـــى الـــدَّهْرِ إِلّا رُدَّ وَهْـــوَ خَيـــالُ

فَفـي كُـلِّ عَصْـر مِـن عُصُـور حَياتِـهِ تُثَـــلُّ عُـــرُوشٌ أَوْ تُـــدَكُّ جِبـــالُ

هُـوَ الـدَّاءُ فاسْتأَصِـلْه تَلْـبَسْ جَمالَهـا وَداءُ كُعُـــوبِ المُنْحِسِيـــنَ عُضـــالُ

---

١ – الديوان: ١٠٢–١٠٥ .

٢ – الديوان: ١٣٨ .

٤ – الغزل:

مَـــرَّ بي في فَلَـــكٍ مـــنْ رَبْـــرَبِ قَمَـــرٌ مُبْتَســـمٌ عـــنْ شَـــنَبِ
زَيَّنُـــوا أَعْـــلاهُ بالـــدُّرِّ كمـــا تقَّلُـــوا أَسْـــفَلَهُ بِالكُثُـــبِ
فـــازْدَهَتْني أَرْيَحِيّـــاتُ الصِّـــبا واسْـــتَخَفَّتْني دواعِـــي طَـــرَبي
فَتَعَرَّضْـــتُ لتَسْـــلِيمٍ لـــهُ فـــإذا التَيَّـــاهُ لا يَعْبـــأُ بي
قـــالَ هـــذا العَبْـــدُ مَـــنْ دَلَّلَـــهُ مَـــا الَّـــذِي أَمَّنَـــهُ مِـــنْ غَضَـــبي
يـــا ظُبَـــا لَحْظِـــي خُـــذِي لي رأْسَـــهُ فَهْـــوَ لا شَـــكَّ مِـــنْ أهـــلِ الرِّيـــبِ
فـــانْبَرَتْ أَلْحاظُـــهُ تَطْلُبُـــني وأَنـــا قُـــدَّامَها في الهَـــرَبِ
لَـــوْ تَـــراني وأَنـــا أُلْطِفُـــهُ وأُدارِيـــهِ مُـــدَارَاةَ الصَّـــبي
خِلْتَـــهُ جَبَّـــارَ قَـــوْمٍ مَـــرَدُوا وأَنـــا في لُطْـــفِ الـــوَعْظِ نَـــبي[1]

قال الشقندي: " وهل منكم من عمد إلى قول امرؤ القيس:

سمـوت إليهـا بعـد مـا نـام أهلهـا سمـوّ حبـاب المـاء حـالاً علـى حـال

... وهو ابن شهيد في قوله:

ولمَّـــا تَمَـــلاَّ مِـــنْ سُـــكْرِهِ فنـــامَ ونامَـــتْ عُيـــونُ العَسَـــسْ
دَنَـــوْتُ إِلَيـــهِ علـــى بُعْـــدِهِ دُنُـــوَّ رَفِيـــقٍ دَرَى مَـــا الْتَمَـــسْ
أَدِبُّ إِلَيْـــهِ دَبِيـــبَ الكَـــرَى وأَسْمُـــو إِلَيْـــهِ سُمُـــوَّ النَّفَـــسْ
أُقَبِّـــلُ منـــهُ بَيـــاضَ الطُّلَـــى وأَرْشُـــفُ منـــهُ سَـــوادَ اللَّعَـــسْ
وبِـــتُّ بـــهِ لَيْلـــتي ناعِمـــاً إِلى أَنْ تَبَسَّـــمَ ثَغْـــرُ الغَلَـــسْ[2]

---

١ – الديوان: ٩١ – ٩٢ .

٢ – الديوان: ١٢٠ .

٥–الرثاء:

أَنُـوحُ علـى نَفْسِـي وأَنـدُبُ نُبْلَهَـا ... إذا أَنـا في الضَّـرَّاءِ أَزمعْـتُ قتلَهَـا

رضـيتُ قضـاءَ اللَّـهِ في كُـلِّ حالـة ... علـيَّ وأَحكامـاً تيقَّنْـتُ عدلَهَـا

أَظـلُّ قَعيـدَ الـدّارِ تجنُبُـني العصـا ... على ضَعْفِ ساقٍ أَوْهَن السُّقْمُ رِجلَهَا

وأَنْعـى خسيسـاتِ ابْـنِ آدمَ عـاملاً ... براحَـةِ طِفْـل أَحكـم الضُّـرُّ نَصْلَهَـا

أَلا رُبَّ خَصـمٍ قـدْ كفيـتُ وكُرْبـةٍ ... كشفْتُ ودارٍ كُنْتُ في المَحْلِ وَبْلَهَـا

ورُبَّ قَـريضٍ كـالجريضِ بعثْتُـهُ ... إلى خُطْبـةٍ لا يُنْكِـرُ الجمْـعُ فَضْلَهَـا

فمـنْ مُبْلِـغُ الفِتْيـانَ أَنَّ أَخـاهُمُ ... أَخُـوْ فَتكـةٍ شَـنْعَاءَ مَـا كـانَ شكْلَهَـا

عَلَـيْكُمْ سـلامٌ مِـنْ فَـتىً عضَّـهُ الـرَّدى ... ولمْ يَنْـسَ عينـاً أَثْبتَـتْ فيـهِ نَبْلَهَـا

يُبِـينُ وكَـفُّ المـوْتِ يَخْلَـعُ نَفْسَـهُ ... وداخلُهَـا حُـبٌّ يهـوِّنُ ثُكْلَهَـا[1]

٦–الخمريّات:

ولَـرُبَّ حـانٍ قـدْ أدَرْتُ بـدَيْرِهِ ... خَمْـرَ الصِّـبا مُزِجَـتْ بِصَـفْوِ خُمُـورِهِ

في فِتْيـةٍ جَعَلُـوا الزِّقـاقَ تِكـاءَهُمْ ... مُتَصَـاغِرِينَ تخشُّـعاً لكَبِـيرِهِ

يُهْـدِي إِلَيْنـا الـرّاحَ كُـلُّ مُعَصْـفَرٍ ... كالخِشْـفِ خَفَّـرَهُ التِمـاحُ خَفِـيرِهِ

وَالى علَـيَّ بطَرْفِـهِ وبكَفِّـهِ ... فأَمـالَ مِـنْ رَأسِـي لِعَـبِّ كَبِـيرِهِ

والقَـسُّ مِمَّـا شـاءَ طُـولَ مُقامِنَـا ... يـدعو يُعَـوِّذُ حَوْلَنَـا بِزَبُـورِهِ

وَتَـرنَّمَ النَّـاقُوسُ عِنْـدَ صَـلاتِهِمْ ... ففَتَحْـتُ مِـنْ عَيْـني لرَجْـعِ هَـدِيرِهِ[2]

يَتَنـاوَلُ الظُّرَفـاءُ فيـهِ وشُـرْبُهُمْ ... لسـلافِهِ والأَكْـلُ مِـنْ خِنْزِيـرِهِ

---

١ – الديوان: ١٤٥ .

٢ – الديوان: ١١٥ – ١١٦.

ابن زيدون

١- الغزل

أضْـحَى التَّنَـائي بَـديلاً مِـنْ تَدَانِيْنَـا ... وَنَـابَ عَـنْ طِيْـبِ لُقْيَانَـا تَجَافِيْنَـا[1]

ألَّا وَقَـدْ حـانَ صُـبحُ البَـيْنِ صَبّحَـنَا ... حَـيْنٌ فَقَـامَ بِنَـا للحَـيْنِ نَاعِيْنَـا

مَـنْ مُبْلِـغُ المُلْبِسِيْنَـا بانتزَاحِهِـمُ ... حُزْنـاً مَـعَ الدَّهْـرِ لا يَبْلَـى وَيُبْلِيْنَـا

أنَّ الزمـانَ الـذي مَـا زالَ يُضْحِكُنَـا ... أُنْسـاً بقُرْبِـهِمُ قَـدْ عَـادَ يُبْكِيْنَـا

غِـيظَ العِـدَا مِـنْ تَسـاقِينَا الهَـوَى فَـدَعَوا ... بِـأنْ نَغَـصَّ فَقَـالَ الدَّهْـرُ آمِيْـنَـا

فَانحَـلَّ مَـا كَـانَ مَعْقُـوداً بِأنْفُسِنَـا ... وَانْبَـتَّ مَـا كَـانَ مَوْصُـولاً بِأيْدِيْنَـا

وَقَـدْ نَكُـونُ وَمَـا يُخْـشَى تَفَرّقُنَـا ... فَـاليَوْمَ نَحْـنُ ومَـا يُـرْجَى تَلَاقِيْنَـا

يـا لَيْـتَ شِـعرِي ولم نُعتِـبْ أعادِيَـكُمْ ... هَـلْ نَـالَ حَـظّاً مـنَ العُتْبَـى أعادِيْنَـا

لم نَعتَـقِدْ بَعْـدَكُمْ إلّا الـوَفاءَ لكُـمْ ... رَأْيـاً ولمْ نَتَقَـلَّدْ غَيْـرَهُ دِيْنَـا

مَـا حَقُّنَـا أنْ تُقِـرّوا عَـيْنَ ذِي حَسَـدٍ ... بِنَـا ولا أَنْ تَسُـرُّوا كاشِـحاً فِيْنَـا

كُنّـا نَـرَى اليَـأْسَ تُسْـلينا عَوَارِضُـهُ ... وَقَـدْ يئسْـنَا فَمَـا لليـأسِ يُغْرِيْنَـا

بِنْتُـمْ وبِنَّـا فَمَـا ابتَلَّـتْ جَوَانِحُنَـا ... شَوْقـاً إلَيكُـمْ وَلَا جَـفَّتْ مَآقِيْنَـا

نَكَـادُ حِـينَ تُنَاجِـيكُمْ ضَمـائرُنا ... يَقضـي عَلينَـا الأَسَـى لَـوْلَا تَأسّيْنَـا

حَالَـتْ لِفَقْدِكُـمُ أيَّامُـنَا فَغَـدَتْ ... سُـوْداً وكانـتْ بكُـمْ بِيْضـاً لَيَالِيْنَـا

إذْ جانِـبُ العَـيشِ طَـلْقٌ مـن تألُّفِنـا ... وَمَرْبَـعُ اللَّهْـوِ صَـافٍ مَـنْ تَصَافيْنَـا

وإذْ هَصَرْنَـا فُنُـونَ الوَصْـلِ دَانِيَـةً ... قطوفُهَـا فَـجَنَيْنَـا مِنْـهُ مـا شِيْنَـا

لِيُسْـقَ عَهْـدُكُمُ عَهـدُ السّـرُوْرِ فَمَـا ... كُنْـتُمْ لِأَرْوَاحِنَـا إلَّا رَيَـاحِيْـنَـا

لا تَحْسَـبُوا نَـأيَكُمْ عَنّـا يُغَيّرُنـا ... أنْ طـالَ مـا غَيّـرَ النّـأيُ المُحِبِّيْنَـا

وَاللهِ مَـا طَلَبَـتْ أهْواؤُنَـا بَـدَلاً ... مِـنْكُمْ وَلَا انصـرَفَتْ عـنكمْ أمانِيْنَـا

يَـا سَـارِيَ البَـرْقِ غـادِ القَصْـرَ وَاسْـقِ بِـهِ ... مَـنْ كَـانَ صِـرْفَ الهَـوَى وَالـوُدِّ يَسْقِيْنَـا

١- ديوان ابن زيدون:١٦٥-١٦٩ .

وَاسـأَلْ هُنالِـكَ هَـلْ عَـنّى تَذَكُّرُنَـا ... إِلْفـاً تَذَكُّـرُهُ أَمْسَـى يُعَنّيْنَـا

وَيَـا نَسِـيمَ الصَّـبَا بَلِّـغْ تحيّتَنَـا ... مَـنْ لَـوْ على القُـرْبِ حَيّا كـانَ يُحْيِيْنَا

فَهَـلْ أَرَى الـدَّهْرَ يقضـينَا مُسَـاعَفَةً ... مِنْـهُ وإِنْ لَمْ يكُـنْ غِبّـاً تَقَاضِيْنَـا

رَبِيْـبُ مُلْـكٍ كَـأَنَّ اللهَ أَنْشَـأَهُ ... مِسْـكاً وَقَـدَّرَ إنشـاءَ الـوَرَى طِيْنَـا

أَوْ صَـاغَهُ وَرِقـاً مَحْضـاً وَتَوّجَـهُ ... مِـنْ نَاصِـعِ التِّـبْرِ إِبْداعـاً وتَحْسِيْنَـا

إذا تَـأَوَّدَ آدَتْـهُ رَفاهِيَـةً ... تُـومُ العُقُـودِ وأَدْمَتْـهُ البُـرَى لِيْنَـا

كَانَـتْ لَـهُ الشّـمسُ ظِئْـراً في أَكِلّتِـهِ ... بَـلْ مَـا تَجَلَّـى لهـا إِلَّا أَحَايِيْنَـا

كَأَنّمَـا أُثبِتَـتْ في صَحْـنِ وَجْنَتِـهِ ... زُهْـرُ الكَوَاكِـبِ تَعوِيـذاً وتَزْيِيْنَـا

مَـا ضَـرَّ أَنْ لَمْ نَكُـنْ أكفـاءَهُ شَـرَفاً ... وَفي المَـوَدّةِ كَـافٍ مِـنْ تَكَافِيْنَـا

يـا رَوْضَـةً طالَمـا أَجْنَـتْ لَوَاحِظَنَـا ... وَرْداً جَـلَاهُ الصِّـبَا غَضّـاً وَنَسْرِيْنَـا

وَيَـا حَيَـاةً تَمَلّيْنَـا بِزَهْرَتِهَـا ... مُـنًى ضُـرُوباً وَلَـذّاتٍ أَفَانِيْنَـا

وَيَـا نَعِيمـاً خَطَرْنَـا مِـنْ غَضَارَتِـهِ ... في وَشْـيِ نُعْمَـى سَـحَبنَا ذيلَـهُ حِيْنَـا

لَسْـنَا نُسَـمِّيْكِ إِجْـلالاً وَتَكْرِمَـةً ... وَقَـدْرُكِ المُعْتَـلِي عَـنْ ذاكَ يُغْنِيْنَـا

إِذا انفَـرَدَتِ وَمـا شُـورِكْتِ في صِـفَةٍ ... فَحَسـبُنَا الوَصْـفُ إيضَـاحاً وتَبْيِيْنَـا

يـا جَنّـةَ الخُلْـدِ أُبْـدِلْنا بِسِدْرَتِهَـا ... وَالكَـوْثَرِ العَـذْبِ زَقّومـاً وغسلِيْنَـا

كَأَنّنَـا لَمْ نَبِـتْ وَالوَصْـلُ ثالِثُنَـا ... وَالسّـعدُ قَـدْ غَـضَّ مـنْ أجفـانِ وَاشِيْنَـا

سِـرّانِ في خـاطِرِ الظّلمـاءِ يَكتُمُنَـا ... حَـتَّى يَكـادَ لِسـانُ الصّـبْحِ يُفشِيْنَـا

لا غَـرْوَ في أَنْ ذكرنـا الحـزْنَ حـينَ نَهَـتْ ... عنـهُ النُّهَـى وَتَرَكْنـا الصّـبرَ ناسِيْنَـا

إنّـا قَرَأْنـا الأسَـى يَـوْمَ النَّـوَى سُـوَراً ... مَكتوبَـةً وَأَخَـذْنا الصّـبرَ تَلْقِيْنَـا

أمّـا هَـواكِ فَلَـمْ نَعْـدِلْ بِمَنْهَلِـهِ ... شُـرْباً وإِنْ كَـانَ يُرْوِينَـا فيُظْمِيْنَـا

لم نَجْـفُ أُفْـقَ جَمَـالٍ أنـتِ كَوْكَبُـهُ ... سـالِينَ عَنْـهُ ولَمْ نَهجُـرْهُ قَالِيْنَـا

وَلَا اخْتِيـاراً تَجَنّبنـاهُ عَـنْ كَثَـبٍ ... لكـنْ عَـدَتْنَا علـى كُـرهٍ عَوَادِيْنَـا

نأسَـى عَلَيْـكِ إِذَا حُثّـتْ مُشَعْشَعَـةً ... فِينـا الشَّـمُولُ وَغَنّانَـا مُغَنِّيْنَـا

لا أَكْـؤسُ الـرّاحِ تُبْـدِي مِـنْ شمائِلِنَـا ... سِـيْمَا ارْتيـاحٍ وَلَا الأوْتَـارُ تُلْهِيْنَـا
دُومِـي علـى العهـدِ مـا دُمْنَـا مُحَافِظَـةً ... فـالحُرُّ مَـنْ دانَ إنْصـافاً كمـا دِيْنَـا
فَمـا استَعَضْـنا خَلـيلاً مِنْـكِ يَحْبِسُـنَا ... وَلَا اسـتَفَدْنا حَبِيبـاً عَنْـكِ يَثْنِيْنَـا
وَلَـوْ صَـبَا نَحْوَنَـا مـن عُلْـوِ مَطْلَعِـهِ ... بَـدْرُ الـدُّجَى لَمْ يكـنْ حاشـاكِ يُصْبِيْنَـا
أَوْلِي وَفَـاءً وإنْ لَمْ تَبْـذُلِي صِـلَةً ... فـالطّيْفُ يُقْنِعُنَـا والذّكـرُ يَكفِيْنَـا
وفِي الجَـوَابِ مَتَـاعٌ إنْ شَـفَعتِ بِـهِ ... بِـيْضَ الأَيـادي الـتي مَـا زِلْـتِ تُوْلِيْنَـا
عَلَيْـكِ مِنَّـا سَـلَامُ اللهِ مَـا بَقِيَـتْ ... صَـبَابَةٌ مِنْـكِ نُخْفِيْهَـا فتَخْفِيْنَـا

٢- **المدح:**

مَـا للمُـدَامِ تُـدِيرُها عَيْنَـاكِ ... فَيَمِيـلُ فِي سُـكْرِ الصِّـبَا عِطْفَـاكِ
هَـلّا مَزَجْـتِ لعَاشِـقِيكِ سُلافَـها ... بِبَـرُودِ ظَلْمِـكِ أو بِعَـذْبِ لَمَـاكِ
بَلْ ما عَلَيكِ وَقد مَحضْتُ لكِ الهَوَى ... فِي أنْ أفُـوزَ بِحُظْـوَةِ المِسْـوَاكِ
ناهِيـكِ ظُلْمـاً أنْ أضَـرَّ بِيَ الصَّـدَى ... بَرْحـاً وَنَـالَ البُـرْءَ عـُودُ أرَاكِ
وَاهـاً لِعَطْفِـكِ والزّمَـانُ كَأنّمَـا ... صُـبِغَتْ غَضَـارَتُهُ بِبُـرْدِ صِبَـاكِ
واللّيـلُ مَهْمَـا طَـالَ قَصَّـرَ طُولَـهُ ... هَـاتِي وَقَـدْ غَفَـلَ الرَّقِيْـبُ وَهَـاكِ
وَلَطَالَمَـا اعْتَـلَّ النّسِـيمُ فَخِلْتُـهُ ... شَـكْوَايَ رَقّـتْ فَاقْتَضَـتْ شَكْـوَاكِ
إنْ تَـأْلَفِي سِـنَةَ النّـؤومِ خَلِيّـةً ... فَلَطَالَمـا نَـافَرْتِ فِيَّ كَـرَاكِ
أوْ تَحْتَبِـي بـالهَجْرِ فِي نـادِي القِـلَى ... فَلَكَـمْ حلَلْـتُ إلى الوِصَـالِ حُـبَـاكِ
أمّـا مُـنَى نَفْسِـي فَأنـتِ جَمِيعُـها ... يـا لَيْتَـنِي أصْـبَحْتُ بَعْـضَ مُنَـاكِ
يَـدْنُو بِوصْـلِكِ حِـيْنَ شَـطَّ مَـزَارُهُ ... وَهْـمٌ أَكَـادُ بِـهِ أُقَبِّـلُ فَـاكِ
وَلِـئِنْ تَجَنّبْـتِ الرّشَـادَ بِغَـدْرَةٍ ... لَمْ يَهْـوِ بِي فِي الغَـيِّ غَيْـرُ هَـوَاكِ
لِلْجَهْـوَرِيِّ أبي الوَلِيْـدِ خَلَائِـقٌ ... كـالرّوضِ أضْـحَكَهُ الغَـمَامُ البـاكِي
مَلِـكٌ يَسـوسُ الـدّهرَ منـهُ مُهـذَّبٌ ... تَـدْبِيرُهُ للمُلْـكِ خَيْـرُ مِـلَاكِ
جَـارَى أبَـاهُ بَعـدَما فَـاتَ المَـدَى ... فَـتَلَاهُ بَـيْنَ الفَـوْتِ والإدْرَاكِ

شَـــمْسُ النّهَـــارِ وَبَـــدْرُهُ ونُجومُـــــهُ ... أبْنَـــاؤُهُ مِـــنْ فَرْقَـــدٍ وسِـــــمَاكِ

يَسْتَوْضِـــحُ السّـــارُونَ زُهْـــرَ كَوَاكِـــبٍ ... مِنْـــهُمْ تُنِيْـــرُ غَيَاهِـــبَ الأَحْـــلاكِ

بُشْـــرَاكِ يـــا دُنْيَـــا وَبُشْـــرَانَا معـــاً ... هَـــذَا الـــوَزِيرُ أبُـــو الوَلِيْـــدِ فَتَـــاكِ

تُلْفَـــى السّـــيَادَةُ ثَمَّ إنْ أصْلَلْتِـــها ... وَمَـــتَى فَقَـــدْتِ السّـــرْوَ فهـــوَ هُنَـــاكِ

وإذا سَـــمِعْتِ بِوَاحِـــدٍ جُمِعَـــتْ لَـــهُ ... فِـــرَقُ المَحَاسِـــنِ في الأَنَـــامِ فَـــذَاكِ

صَمْصَـــامُ بَـــادِرَةٍ وَطَـــوْدُ سَكِيْـــنَةٍ ... وَجَـــوادُ غَايَـــاتٍ وَجَـــذْلُ حِكَـــاكِ

طَلْـــقٌ يُفَنَّـــدُ في السّـــماحِ وَجَاهِـــلٌ ... مَـــنْ يَسْتَشِـــفُّ النّـــارَ بـــالمِحْرَاكِ

صَـــنَعُ الضّـــمِيرِ إذا أجـــالَ بمُهْـــرَقٍ ... يُمْنَـــاهُ في مَهَـــلٍ وفي إيْشَـــاكِ

نظـــمَ البَلاغَـــةَ في خِـــلَالِ سُطـــُورِهِ ... نَظْـــمَ الّـــلآلي التُّـــومِ في الأسْـــلاكِ

نَـــادَى مَســـاعِيَهُ الزّمَـــانُ مُنَافِســـاً ... أحْـــرَزْتِ كُـــلَّ فَضِـــيلَةٍ فَكَفَـــاكِ

مـــا الـــوَرْدُ في جَنـــاهُ ســـامَرَهُ النـــدى ... مُتَحَلّيـــاً إلّا بِـــبَعْضِ حُـــلاكِ

كَـــلّا وَلَا المِسْـــكُ النَّمُـــومُ أرِيجُـــهُ ... مُتَعَطّـــراً إلّا بِوَسْـــمِ ثَنَـــاكِ

اللّهـــوُ ذكـــرُكِ لا غنـــاءُ مرجِّـــعٍ ... يفـــتنّ في الإطـــلاقِ والإمســـاكِ

طـــارتْ إليـــكِ بأوْليائِـــكِ هـــزّةٌ ... تهفـــو لهـــا أسـفاً قلـــوبُ عـــداكِ

يـــا أيّهَـــا القَمَـــرُ الّـــذِي لِسَـــنَائِهِ ... وَسَـــنَاهُ تَعْنُـــو السَّـــبْعُ في الأفْـــلاكِ

فـــرحُ الرّياســـةِ إذْ ملكـــتَ عنانَهَـــا ... فـــرحُ العـــروسِ بصـــحّةِ الإمـــلاكِ

مَـــنْ قـــالَ إنّـــكَ لستَ أوحـــدَ في النُّهَـــى ... والصّـــالحاتِ فـــدانَ بالإشـــراكِ

قلِّـــدْنيَ الـــرّأيَ الـــجميلَ فإنّـــهُ ... حســـبي ليـــومَيْ زينـــةٍ وعـــراكِ

وإذا تحـــدّثَتِ الحـــوادثُ بالرَّنَـــا ... شَـــزْراً إليّ فَقُـــلْ لَهَـــا إيّـــاكِ

٣- **العتاب:**

مَـــا عَلَـــى ظَنِّـــيَ بـــَاسُ ... يَجْـــرحُ الدّهْـــرُ وَيَاسُـــو

رُبَّمَـــا أشْـــرَفَ بِالمَـــرْ ... ءِ عَلَـــى الآمَـــالِ يَـــاسُ

وَلَقَـــدْ يُنْجِيـــكَ إغْفَـــا ... لٌ ويُرْدِيْـــكَ احْتِـــرَاسُ

وَالمَحَاذِيـــرُ سِهـــَـــامٌ ... والمَقَـــــادِيْرُ قِيـــَـــاسُ

وَلَكَـــمْ أجْـــدَى قُـــعُودٌ ... وَلَكَـــمْ أكْـــدَى التِمـــَاسُ

وَكَـــذَا الـــدّهْرُ إذَا مَـــا ... عَـــزَّ نَـــاسٌ ذَلَّ نـــَاسُ

وَبَنُـــو الأيّـــامِ أخْيـــَا ... فٌ سَـــرَاةٌ وَخِسـَـــاسُ

نَلْـــبَسُ الـــدّنْيَا وَلَكِـــنْ ... مُتْعَـــةٌ ذَاكَ اللّبـــَـــاسُ

يَـا أبـا حَفْـصٍ وَمَـا سَـا ... وَاكَ فِي فَهْـــمٍ إيـــَـــاسُ

مِـنْ سَـنَا رَأيِـكَ لِي فـــي ... غَسَـــقِ الخَطـــبِ اقتبـــاسُ

وَوِدَادِي لَـــكَ نـــَـــصٌّ ... لَمْ يُخَالِفـــــهُ قِيـــَـــاسُ

أنَـــا حَيْـــرَانٌ وَلِلأُمـــــ ... ـرِ وُضُـــوحٌ والتِبـــَـــاسُ

مَـا تَـرَى فِي مَعْشَـرٍ حـا ... لـوا عَـنِ العَهـدِ وَخـَاسُوا

وَرَأوْنِي سَـــــــــامِرِياً ... يُتّقـــى مِنْـــهُ المَسَـــاسُ

أذْؤبٌ هَامَـــتْ بِلَحْمِـــي ... فانْتِهَـــاشٌ وَانْتِهـــَـــاسُ

كُلّهُـمْ يَسْـأَلُ عَـنْ حـا ... لِي وَلِلـــذّئْبِ اعْتِســـَـــاسُ

إنْ قَسَـا الـدّهْرُ فَلِلْمَـا ... ءِ مِـنَ الصّخْرِ انْبِجَـاسُ

وَلَـــئِنْ أمسَـــيْتُ محْبُـــو ... ســـاً فَلِلغَيْـثِ احْتِبـــَاسُ

يَلْبُـــدُ الـــوَرْدُ السَّـــبَنْتَى ... وَلَـــهُ بَعْـــدُ افْتِـــرَاسُ

فَتَأمّـــلْ كَيْـــفَ يَغْـــشَى ... مُقْلَـــةَ المَجْـــدِ النّعـــاسُ

وَيُفَـــتُّ المِسْـــكُ فِي التُّـــرْ ... بِ فَيُوطَـــا ويـُـــدَاسُ

لَا يَكُـــنْ عَهْـــدُكَ وَرْداً ... إنَّ عَهْـــدِي لَـــكَ آسُ

وَأدِرْ ذِكْـــرِيَ كَأســـاً ... مَـا امتَطَـتْ كَفَّـكَ كـاسُ

وَاغْتَـــنِمْ صَـــفْوَ اللّيَـــالِي ... إنَّمـــا العَـــيْشُ اخْتِـــلَاسُ

وَعَسَـى أنْ يَسـمحَ الدّهـــ ... ـرُ فَقَـدْ طَـالَ الشِّمَـاسُ[1]

١- ديوان ابن زيدون: ٦٥-٦٧.

المعتمد بن عبّاد

١- المديح والاعتذار

قال ابن الأبّار:

«وَله يستعطف أَبَاهُ المعتضد لما فرّط فِي أَمر مالقة وخذله أَصْحَابه فَأخْرج مِنْهَا ولجأ إِلَى رندة فَأَقَامَ بهَا مُدَّة تَحت موجدة أَبِيه:

سَكِّنْ فُؤادَكَ لا تَذهَبْ بِهِ الفِكَرُ ... مَاذا يُعيدُ عَلَيكَ البَثُّ وَالحَذَرُ

وَازجُرْ جفونَكَ لا تَرْضَ البُكاءَ لَها ... وَاِصْبِرْ فَقَدْ كُنْتَ عندَ الخطبِ تَصطَبِرُ

وَإِنْ يَكُنْ قَدَرٌ قَدْ عَاقَ عَنْ وَطَرٍ ... فَلَا مَرَدَّ لِمَا يَأْتي بِهِ القَدَرُ

وَإِنْ تَكُنْ خَيْبَةٌ في الدَّهْرِ واحِدَةٌ ... فَكَمْ غَدَوتَ وَمنْ أَشْيَاعِكَ الظَّفَرُ

إِنْ كُنْتَ في حَيْرَةٍ مِنْ جُرْمِ مُجْتَرَمٍ ... فَإِنَّ عُذْرَكَ في ظَلْمَائِهَا قَمَرُ

كَمْ زَفرَةٍ مِنْ شَغَافِ القَلْبِ صاعِدَةٍ ... وعَبْرَةٍ مِنْ شؤونِ العينِ تَنْحَدِرُ

فَوِّضْ إِلى اللَّهِ فِيما أَنتَ خائِفُهُ ... وَثِقْ بِمُعتَضِدٍ بِاللَّهِ يَغْتَفِرُ

وَلا تَرُعْكَ خُطوبٌ إِنْ عَدَا زَمَنٌ ... فاللَّهُ يَدْفَعُ وَالمَنْصُورُ يَنْتَصِرُ

وَاِصبِرْ فَإِنَّكَ مِنْ قومٍ أُولي جَلَدٍ ... إِذَا أَصابَتْهُمُ مَكْرُوهَةٌ صَبَرُوا

مَنْ مِثْلُ قَومِكَ وَالمَلِكُ الهُمَامِ أَبو ... عَمْرٍو أَبُوْكَ لَهُ مَجْدٌ وَمُفتَخَرُ

سَمَيْدَعٌ يَهُبُ الآلافَ مُقْتَدِراً ... وَيَسْتَقِلُّ عَطَايَاه وَيَحْتَقِرُ

لَهُ يَدٌ كُلُّ جَبَّارٍ يُقَبِّلُهَا ... لَولا نَدَاها لَقُلْنَا إِنَّهَا الحَجَرُ

يا ضَيْغَماً يَقتُلُ الأَبطالَ مُفْتَرِساً ... لا تُوْهِنَنِّي فَإِنِّي النَّابُ وَالظُّفُرُ

وَفَارِساً تَحْذَرُ الأقرانُ صَوْلَتَهُ ... صُنْ عَبْدَكَ القِنَّ فَهْوَ الصَّارِمُ الذَّكَرُ

هُوَ الَّذي لَمْ تَشِمْ يُمناكَ صَفْحَتَهُ ... إِلّا تَأَتَّى مُرَادٌ وَانقَضَى وَطَرُ

قَدْ أَخْلَقَتْنِي صُرُوْفٌ أَنْتَ تعلمُها ... وَقالَ موردُهَا مَا لِي بِهَا صَدَرُ

فالنَفْسُ جازِعَةٌ وَالعَينُ دامِعَةٌ ... وَالصّوتُ مُرتَفِعٌ وَالسِّرُّ مُنْتَشِرُ

وَزادَ هَمّيَ ما بالجسمِ مِنْ سَقَمٍ ... وشِبتُ رأساً وَلَمْ يَبْلُغْنِيَ الكِبَرُ

وَذُبْـــتُ إِلَّا ذَمَـــاءً فِيَّ يُمســـكني ... أَنِّي عَهـــدتُكَ تَعفـــوْ حـــينَ تَقْتَـــدِرُ

لَمْ يـأتِ عبـدُكَ ذنبـاً يَسْـتَحِقُّ بِـهِ ... عُتْبَـــى وَهَـــا هُـــوَ نَـــادَاكَ يَعْتَـــذِرُ

مـا الـذَّنْبُ إِلَّا عَلـى قَـوْمٍ ذَوْي دَغَـلٍ ... وَفَى لَهُـمْ عهـدُكَ المعهـودُ إِذْ غَـدَرُوا

قَـوْمٌ نَصِيْحَتُهُـمْ غِـشٌّ وصِـدْقُهُمُ ... مَيْـنٌ وَنَفْعُهُـمْ إِنْ صَـرَّفُوا ضَـرَرُ

يُمَيِّـزُ البُغْـضُ في الأَلفـاظِ إِنْ نَطَقـوا ... وَيُعْـرَفُ الحِقْـدُ في الأَلحـاظْ إِنْ نَظَـرُوا

إِنْ يَحْـرِقِ القَلْـبَ نَفْـثٌ مِـنْ مَقَالِـهُمُ ... فَإِنَّمَـا ذاكَ مِـنْ نَـارِ القِلَـى شَـرَرُ

مَـولايَ دعـوةَ مَملـوكٍ بِـهِ ظَمَـأٌ ... بَـرْحٌ وَفِي راحَتَيْـكَ السَّلْسَـلُ الخَصِـرُ

أَجِـبْ نِـدَاءَ أَخِـي قَلْـبٍ تَمَلَّكَـهُ ... أَسـىً وَذِي مُقْلَـةٍ أَوْدَى بِـهَا السَّـهَرُ

لَمْ أُوتَ مِـنْ زَمَـني شَـيئاً أُسِـرُّ بِـهِ ... فلسـتُ أَعهَـدُ مـا كـأسٌ وَلا وَتَـرُ

وَلا تَمَلَّكَنِـــي دَلٌّ وَلا خَفَـــرٌ ... وَلا سَبَـى خَلَـدِي غُـنْجٌ وَلَا حَـوَرُ

رِضَـاكَ رَاحَـةُ نَفْسِـي لَا فُجِعْـتُ بِـهِ ... فَهْـوَ العَتَـادُ الَّـذي لِلدَّهْـرِ أَدَّخِـرُ

وَهْـوَ الـمُدامُ الَّـتي أَسْـلُو بِهـا فَـإِذا ... عَـدِمْتُهَا عَبِثَـتْ في قَلْـبِيَ الفِكَـرُ

مَـا تَرْكِـيَ الخَمْـرَ مِـنْ زُهْـدٍ وَلا وَرَعٍ ... فَلَـمْ يُفَـارِقْ لَعَمْـرِي سِـنِّيَ الصِّـغَرُ

وَإِنَّمَـا أَنَـا سـاعٍ في رِضـاكَ فَـإِن ... أَخْفَقْـتُ فيـهِ فَـلَا يُفْسَـحْ لِيَ العُمُـرُ

مَـا سَـرَّنِي وَأُحاشـي عَصْـرَ عَطْفِكـمُ ... يَـومٌ أَخَـلَّ بـهِ في عيـنيَ النَّظَـرُ

أَجَـلْ وَلِي رَاحَـةٌ أُخـرى عَلِقْـتُ بِهـا ... نَظْـمُ الكُلَـى في القَنَـا وَالهَـامُ تَنْتَثِـرُ

كَـمْ وقْعَـةٍ لِيَ في الأَعـداءِ واضِـحَةٍ ... تَفْـنَى اللَّيـالي وَمـا يَفْـنَى لَهَـا الخَبَـرُ

سارَتْ بِهـا العيسُ في الآفـاقِ فانتَشَـرَتْ ... فَلَـيسَ في كُـلِّ حَـيٍّ غَيْرِهـا سَمَـرُ

لازلْـتَ ذَا عِـزَّةٍ قَعْسَـاءَ شـامِخَةٍ ... لا يَبلُـغ الـوَهْمُ أَدْنَاهَـا وَلا البَصَـرُ

وَلا يَـزلْ وَزَرٌ مِـنْ حُسْـنِ رأيِـكَ لِي ... آوي إِلَيـهِ فَـنِعْمَ الكَهْـفُ وَالـوَزَرُ

إِلَيْـكَ رَوْضَـةُ فِكْـرِي جَـادَ مَنْبَتَهَـا ... نَـدَى يَمِينِـكَ لَا طَـلٌّ وَلَا مَطَـرُ

جَعَلْـتُ ذِكْـرَكَ في أَرْجَائِهَـا شَـجَراً ... فَكُـلُّ أَوْقَاتِهَـا لِلمُجتَنِـي ثَمَـرُ[1]

---

(١) الديوان: ٣٦-٤٠.

٢- الغزل

القَلْبُ قَدْ لَجَّ فَمَا يُقْصَرُ ... وَالوَجْدُ قَدْ جَلَّ فَما يُسْتَرُ

وَالدَمْعُ جَارٍ قَطْرُهُ وَابِلٌ ... وَالجِسْمُ بَالٍ ثَوْبُهُ أَصْفَرُ

هَذَا وَمَنْ أَعْشَقُهُ وَاصِلٌ ... كَيْفَ بِهِ لَو أَنَّهُ يَهْجُرُ

لَكِنْ عَدَتْني نائِباتُ النَّوَى ... في دَوْحِهِ وَالشادنُ الأَحْوَرُ

وَالكَوكَبُ الوَقّادُ تَحتَ الدُجى ... في أُفْقِهِ وَالقَمَرُ الأَزْهَرُ

وَالنَرجِسُ الفَوّاح غَبَّ النَدى ... في رَوضِهِ وَالمِنْدَلُ الأَذْفَرُ

قَدْ خُبِّرَتْ عَنِّيَ أَنِّي امْرُؤٌ ... فيهِ شُحوبٌ وَظَنّي يَظْهَرُ

فَأَبْدَتِ الإِشْفَاقَ مِنْ حَالَتِي ... وَمِثْلُ مَا تُبْدِيْهِ مَا تُضْمِرُ

واسْتفهمتْ إِنْ كُنْتُ ذَا عِلَّةٍ ... أَوْ ذَا اِشْتِيَاقٍ نَارُهُ تُسْعَرُ

سَيِّدَتِي لَمْ تُنْصِفِي عَاشِقاً ... أَضْحَى كَمَا أَخْبَرَكِ المُخْبِرُ

إِذْ قُلْتُ هَلْ مِنْ أَلَمٍ طائِفٍ ... ما بِكِ أَوْ شوقٌ فَما تَصْبُرُ

ظَلَمْتِ بالشكِّ هَوَايَ الَّذي ... يَعْرِفُهُ الغُيَّبُ وَالحُضَّرُ

وَاللَّهِ ما سُقْمِيَ إِلَّا هَوىً ... كُلَّ هَوىً في جَنْبِهِ يَصْغُرُ

غيّرَ جِسمي فاِعلَمي أَنَّني ... أَرومُ لُقياكِ وَلا أَقْدِرُ

فاِسْتَغْفِري اللَّهَ مِنَ الظلْمِ لي ... فَإِنَّ مَنْ يَظْلِمُ يَسْتَغْفِرُ[1]

وقال أيضاً:

يا لَيْتَ مُدّةَ بُعْدِكْ ... رَشِيْقَةٌ مِثْلُ قَدِّكْ

كَمُدَّةِ الوَرْدِ وَرْدِ الـ ... ـرَبِيْعِ لَا وَرْدِ خَدِّكْ

---

(١) الديوان: ١٦.

فَعُمْـــــرُ ذَا عُمْـــــرُ صَـــــبْرِي وَعُمْـــــرُ ذَا عُمْـــــرُ صَـــــدِّكْ

رَضِـــــيْتُ منـــــكَ وَإِنْ لَـــــمْ تُنْجِـــــزْ بِلَـــــذَّةِ وَعْـــــدِكْ[1]

وقال أيضاً:

قُلـــــتُ مَـــــتَى تَرْحَمُنِـــــي قـــــالَ وَلا طـــــولَ الأَبَـــــدْ

قُلـــــتُ فَقَـــــدْ أيأستَنِـــــي مِـــــنَ الحَيَـــــاةِ قَـــــالَ قَـــــدْ[2]

وقال أيضاً:

بَرَكَـــتْ تَلـــوحُ وَفِي الفُـــؤادِ بَلابِـــلُ سَـــفَهاً وَهَـــلْ يُثـــني الحَلِـــيْمَ الجاهِـــلُ

يـــا هَـــذِهِ كفِّـــي فَـــإِنِّيَ عَاشِـــقٌ مَـــنْ لا يَـــرُدُّ هَـــوايَ عَنهـــا عـــاذِلُ

حُـــبّ اعْتِمـــادٍ فِي الجَـــوانِحِ ســـاكِنٌ لا القَلْـــبُ ضـــاقَ بِـــهِ وَلَا هُـــوَ راحِـــلُ

يَـــا ظَبيَـــةً سَـــلَبَتْ فُـــؤادَ محمّـــدٍ أَوَلَـــمْ يُرَوّعْـــكِ الهِـــزَبْرُ الباسِـــلُ

مَـــنْ شَـــكَّ أَنّي هَـــائِمٌ بِـــكِ مُغـــرَمٌ فَعَلـــى هَـــواكِ لَـــهُ علـــيَّ دَلَائِـــلُ

لَـــونٌ كَسَـــتْهُ صُـــفْرَةٌ وَمَـــدَامِعٌ هَطَلَـــتْ سَـــحَائِبُها وَجِســـمٌ ناحِـــلُ[3]

وقال أيضاً:

يـــا بَـــديْعَ الحُسْـــنِ وَالإِحـــ ـــسانِ يـــا بَـــدْرَ الدَّيَـــاجي

يـــا غَـــزالاً صـــادَ مِـــنّي بِـــالطُلَى لَيْـــثَ الهيَـــاجِ[4]

قَـــدْ غَنِيْنَـــا بِسَـــنا وَجْـــ ـــهِكَ عَـــنْ ضَـــوْءِ السِّـــرَاجِ

---

(١) الديوان: ١٠.

(٢) الديوان: ٧.

(٣) الديوان: ٢٣.

(٤) الديوان: ٢١.

٣- الخمريات

عَلِّلْ فُؤادَكَ قَدْ أَبَلَّ عَلِيْلُ ... وَاغْنَمْ حَيَاتَكَ فَالبَقَاءُ قَلِيلُ

لَوْ أَنَّ عُمْرَكَ أَلْفُ عامٍ كامِلٍ ... ما كانَ حَقّاً أَنْ يُقالَ طَوِيلُ

أَكَذا يَقُوْدُ بِكَ الأَسى نَحْوَ الرَّدى ... وَالعُوْدُ عُوْدٌ وَالشَّمولُ شَمُولُ

لا يَستَبِيْكَ الهَمُّ نَفسَكَ عنوَةً ... وَالكَأْسُ سَيْفٌ في يَدَيْكَ صَقِيلُ

بِالعَقْلِ تَزْدَحِمُ الهُمُومُ عَلى الحَشا ... فالعَقلُ عِنْدي أَنْ تَزُوْلَ عُقولُ[1]

قال في الخمر:

دُرّاً بَعَثْتَ مُفصَّلاً بِجُمَانِ ... أَو رَوْضَةً مِسْكِيَّةَ الريحانِ

لا بَلْ عُروساً قَدْ زَفَفْتَ تولّدتْ ... ما بَيْنَ فكْرٍ نَاقِدٍ وَبَنَانِ

سَمعاً لأمرِكَ إِذْ دعوْتَ إِلى الَّتي ... تَدَعُ القُلوبَ قَليلَةَ الأَحْزانِ

أَمّا الكُؤوسُ فَقَدْ جَرَتْ ما بَيْنَنا ... بِيَدَي غَزالٍ ساحِرِ الأَجْفانِ

خَنِثٍ يُسَقِّيْنِي المُدامَ بطَرْفِهِ ... وَبِكَفِّهِ وَمَتَى أَشَأْ غَنَّانِي

فِعلاً لعمرُك لم أَكُنْ لأضيعهُ ... لا تَحْسَبَنَّا مِنْ بَنِي سَهْوَانِ[2]

وقال أيضاً:

رِيْعَتْ مِنَ البَرَقِ وَفي كَفِّهَا ... بَرْقٌ مِنَ القَهْوَةِ لَمَّاعُ

يَا لَيْتَ شِعْرِي وَهْيَ شَمْسُ الضُّحَى ... كَيْفَ مِنَ الأَنوارِ تَرتَاعُ[3]

وقال أيضاً:

يا كَرِيمَ المَحَلِّ في كُلِّ معنى ... وَالكَرِيمُ المحلُّ لَيْسَ يُعَنَّى

هَذِهِ الخَمْرُ تَبْتَغِيْكَ فَخُذْهَا ... أَوْ فَدَعْهَا أَوْ كَيْفَمَا شِئْتَ كُنَّا

---

(١) الديوان: ٢٥.

(٢) الديوان: ٢٨.

(٣) الديوان: ٢١.

٤– الفخر

الجُـوْدُ أَحلـى عَلـى قَلْـبي مِـنَ الظَّفَـرِ ... وَمِـنْ مَنـالِ قَصـيِّ السُّـؤْلِ وَالـوَطَرِ

وَمِـنْ غِنـاءِ أُرَيْـوَى في الصـبوح لَنـا ... يـا طلعـةَ الشَـمْسِ في الآصـالِ وَالبُكَـرِ

وَمِـنْ حَنَنْـتُ إِلى مـا اعْتَـدْتُ مِـنْ كَـرَمٍ ... حَنـينَ أَرْضٍ إِلى مُسـتأخرِ المَطَـرِ

وَقَـدْ تناهـتْ يَـدِي عَـنْ كأسِـها غَضَـباً ... وَمَجَّـتِ الأُذْنُ أَيضـاً نَغْمَـةَ الـوَتَرِ

حَـتّى أُمَلِّـكَ هـذي مَـا تَجـودُ بِـهِ ... وَأَسْمَـعَ الحَمْـدَ بِـالأُخْرَى عَلـى الأَثَـرِ

فَهَاتِهَـا خِلَعـاً أُرْضِـي السَّـمَاحَ بِهـا ... مَحْفُوفَـةً في أَكُـفّ الشَّـرْبِ بِالبِـدَرِ[1]

وقال أيضاً:

مَـنْ لِلمُلـوك بِشـأوِ الأَصْـيَدِ البَطَـلِ ... هَيْهَـاتَ جـاءَتكمُ مَهْدِيَّـةُ الـدُّوَلِ

خَطَبَـتُ قُرطبـةَ الحَسـناءَ إِذْ مَنَعَـتْ ... مَـنْ جـاءَ يَخطُبُهـا بـالبِيْضِ وَالأَسَـلِ

وَكَـمْ غَـدَتْ عـاطِلاً حَـتَّى عَرَضْـتُ لَهـا ... فَأَصـبَحتْ في سَـرِيِّ الحُلْـيِ وَالحُلَـلِ

عِـرْسُ المُلـوك لَنـا في قَصْـرِها عُـرُسٌ ... كُـلُّ المُـلوكِ بِـهِ في مَـأْتَمِ الوَجَـلِ

فَراقِبُـوا عَـنْ قَرِيْـبٍ لَا أَبَـا لَكُـمُ ... هُجـومَ لَيْـثٍ بِـدرعِ البـأسِ مُشـتَمِلِ[2]

وقال أيضاً:

أَبَـا هَاشـمٍ هَشَّـمَتْنِي الشِّـفَارُ ... فَلِلَّـهِ صـبري لـذاكَ الأُوَارِ

ذكـرتُ شخيصـكَ مَـا بينَهـا ... فلـمْ يَدْعُنِـي حُبُّـهُ للفِـرَارِ[3]

٥– الرثاء

يـا غَـيمُ عَيـنيَ أَقـوى مِنـكَ تَهْتَانَـا ... أَبكـي لِحُزنـي وَمـا حُمِّلْـتَ أَحزانـا

وَنـارُ بَرقِـكَ تَخبـوْ إِثْـرَ وَقْـدَتِهَا ... وَنـارُ قَلـبي تَبقـى الدَّهْـرَ بُركانـا

---

(١) الديوان: ٦٥.

(٢) الديوان: ٦٥ –٦٦.

(٣) الديوان: ٤٨.

نـارٌ وَمـاءٌ صَـميمُ القَلْـبِ أَصْـلُهُما ... مَـتى حَـوى القَلْـبُ نيرانـا وَطوفانـا
ضـدّانِ أَلَّـفَ صَـرْفُ الـدَّهْرِ بَيْنَهُمـا ... لَقَـدْ تَلَـوّن في الـدهرِ أَلوانـا
بَكيـتُ فَتحـاً فَـإِذ رُمْـتُ سَـلْوَتَهُ ... ثَـوى يَزيـدُ فَـزادَ القَلـبَ نيرانـا
يـا فلـذتَي كبِـدِي يـأبى تقطُّعَهـا ... مِـن وَجْـدِها بِكُمـا مـا عِشتُ سُـلْوانا
لَقَـدْ هَـوَى بِكُمـا نجمـانِ مـا رَميـا ... إِلَّا مِـنَ العُلْـوِ بِالأَلحـاظِ كِيْوانـا
مُخَفَّـفٌ عَـنْ فُـؤادي أَنَّ ثُكْلَكُمَـا ... مُثَقَّـلٌ لِيَ يَـوْمَ الحَشْـرِ ميزانـا
يـا فَـتحُ قَـد فتحَـتْ تِلـكَ الشـهادَةُ لي ... بـابَ الطَّمَاعَـةِ في لُقيـاكَ جَـذْلانا
وَيـا زَيْـدُ لَقَـدْ زادَ الرَّجَـا بِكُمـا ... أَنْ يَشـفَعَ اللَّـهُ بِالإحسـانِ إِحْسـانا
لَمَّـا شـفعتَ أَخـاكَ الفَـتْحَ تَتْبَعُـهُ ... لقَّاكُمَـا اللَّـهُ غُفْرانـاً وَرِضْـوانا
مِنِّـي السَّـلامُ ومِـنْ أُمٍّ مُفجَّعَـةٍ ... عَلَيْكُمـا أَبَـداً مَثْـنَى وَوحـدانا
أَبكـي وَنَبكـي وَنُبكـي غَيرنـا أَسَـفاً ... لـدى التَـذَكُّرِ نِسـوانا وَوُلـدانا[1]

وقال أيضاً:

بَكَـتْ أَنْ رأتْ إِلفَـينِ ضَـمَّهُمَا وَكْـرُ ... مَسـاءً وَقَـدْ أَخْـنى عَلـى إِلفِهـا الـدَّهْرُ
بَكَـتْ لَمْ تُـرِق دَمعـاً وَأَسـبلتُ عَـبرَةً ... يُقصّـرُ عَنهـا القطـرُ مَهمـا هَمى القَطْـرُ
وَناحَـتْ فَباحَـتْ وَاِسـتَراحَتْ بِسـرِّها ... وَمَـا نَطقَـتْ حَرْفـاً يَبـوحُ بِـهِ سِـرُّ
فَمَـالِيَ لا أَبكـي أَمِ القَلْـبُ صَخْـرَةٌ ... وَكَـمْ صَـخْرَةٍ في الأَرْضِ يَجْـرِي بِهَـا نَهْـرُ
بَكَـتْ وَاحِـداً لَمْ يُشْـجِها غَيْـرُ فَقْـدِهِ ... وَأَبكِـي لأَلَّافٍ عديـدُهُمُ كُثْـرُ
بُـنيٌّ صَـغيرٌ أَو خَليـلٌ مُوافِـقٌ ... يُمَـزّقُ ذا قَفْـرٌ وَيُغـرِقُ ذا بَحْـرُ
وَنجمـانِ زَيْـنٌ لِلزَمـان اِحتواهُمَـا ... بِقُرطبـةَ النكـداءِ أَو رُنْـدَةَ القَبْـرُ
عُـذرتُ إِذا إِن ضَـنَّ جَفـني بِقَطـرَةٍ ... وَإِنْ لؤُمَـتْ نَفسـي فَصَـاحِبُها الصَّـبْرُ
فَقـل لِلنُجـومِ الزُّهْـرِ تبكيهِمَـا معـي ... لِمِثْلِهِمَـا فَلْتَحْـزَنِ الأَنجُـمُ الزُّهْـرُ[2]

---

(١) الديوان: ٦٩ –٧٠.

(٢) الديوان: ٦٨ –٦٩.

وقال:

يَقُولـونَ صَـبْراً لا سَـبيلَ إِلى الصَـبْرِ ... سَأَبكي وَأَبكـي مَـا تَطَـاوَلَ مِـنْ عُمْرِي
نَـرى زُهْرَهـا في مـأتمٍ كُـلَّ لَيْلَـةٍ ... يُخَمّشـنَ لَهَفـاً وَسْـطَهُ صَـفْحَةَ البَـدْرِ
يَـنُحْنَ عَلـى نَجْمَـيْنِ أَثْكَلْـنَ ذَا وَذَا ... وَيا صَبرُ مَا لِلقَلبِ في الصَّبرِ مِن عُذْرِ
مَـدَى الـدهرِ فَلْيَبْـكِ الغَمـامُ مُصَـابَهُ ... بِصِـنْوَيْهِ يُعْـذَرُ في البُكـاءِ مَـدى الـدَّهْرِ
بِعَـينِ سَـحابٍ وَاِكِـفٍ قَطْـرُ دَمْعِهَـا ... عَلـى كُـلِّ قَـبْرٍ حَـلَّ فيـهِ أَخـو القَطْـرِ
وَبَـرْقٌ ذَكِـيُّ النـارِ حَـتّى كَأَنَّمـا ... يُسَـعَّرُ مِمَّـا في فُـؤادي مِـنَ الجَمْـرِ
هَـوى الكَوكَبـانِ الفَـتحُ ثُمَّ شَـقيقُهُ ... يَزيـدُ فَهَـلْ بَعْـدَ الكَواكِـبِ مِـنْ صَـبْرِ
أَفَـتْحٌ لَقَـدْ فَتَّحْـتَ لي بَـابَ رَحْمَـةٍ ... كَمَـا بِيَزيـد، اللَّـهُ قَـدْ زادَ في أَجْـرِي
هَـوى بِكُمـا المِقْـدَارُ عَـنّي وَلَمْ أَمُـتْ ... وَأُدْعَـى وَفيّـاً قَـدْ نَكَصْـتُ إِلى الغَـدْرِ
تَوَلَيتُمَـا وَالسِّـنُّ بَعْـدُ صَـغيرَةٌ ... وَلَمْ تَلْبَـثِ الأَيّـامُ أَنْ صَـغَّرتْ قَـدْرِي
تَوَلَيتُمَـا حـينَ اِنتَهَـتْ بِكُمـا العُـلَا ... إِلى غايَـةٍ كُـلٌّ إِلى غايَـةٍ يَجْـرِي
فَلَـوْ عُـدْتُمَا لاخترتُمَـا العَـوْدَ في الثَّـرَى ... إِذَا أَنْتُمَـا أَبْصَـرْتُمَانِيَ في الأَسْـرُ
يُعيـدُ عَلـى سَمعـي الحَديـدُ نَشـيدَهُ ... ثَقـيلاً فَتَبكـي العَـينُ بـالجسِّ وَالنَقْـرِ
مَعـي الأَخَـواتُ الهالِكـاتُ عَلَيكُمَـا ... وَأُمُّكمـا الثَكلـى المُضَرّمـةُ الصَـدْرِ
تُـذَلِّلُها الـذِكرى فَتَفـزَعُ لِلبُكـا ... وَتَصبرُ في الأَحيـان شُـحّاً عَلى الأَجْـرِ
فَتَبكـي بِـدَمعٍ لَـيْسَ للقَطْـرِ مِثْلُـهُ ... وَتَزجُرُهـا التَّقْـوَى فَتُصْـغِي إِلى الزَجْـرِ
أَبَـا خَالِـدٍ أَورَثْتَنـي البَـثَّ خالِـداً ... أَبَـا النَّصْـرِ مُـذْ وُدَّعْـتَ وَدَّعَنِي نَصْـرِي
وَقَبْلَكُمَـا مَـا أَوْدَعَ القَلْـبَ حَسْـرَةً ... تُجَـدّدُ طـولَ الـدَّهْرِ ثكـلُ أَبي عَمْـرِو[1]

وقال أيضاً:

إِذا كـانَ أَرْدَى الزَمـانُ بِمِثْلِـهِ ... وَلَمْ يَبْـقَ في عَـوْدٍ لَـهُ طَمَـعٌ بَعْـدُ
فَـلا بُـتِرَتْ بُتْـرٌ وَلَا فَنِيَـتْ قَنَـا ... وَلا زَأرتْ أَسْـدٌ وَلَا صَـهلَتْ جُـرْدُ

(١) الديوان طبعة السوسي: ١٦٢ – ١٦٤.

وَلا زالَ ملـذوعاً عَلـى سَـيِّدٍ حَشـاً ... ولا انفـكّ مَلطومـاً عَلـى مَلِـكٍ خَـدُّ[1]

وقال أيضاً

بَكـى المُبَـارَكُ في إِثْـرِ ابـنِ عَبَّـادِ ... بَكـى عَلـى إِثْـرِ غِـزلانٍ وَآسـادِ
بَكَـتْ ثُرَيّـاهُ لا غُمَّـتْ كَواكِبُهـا ... بِمِثـلِ نَـوْءِ الثرَيّـا الـرائح الغـادي
بَكـىَ الوَحيـدُ بَكـى الزاهـي وَقُبَّتُـهُ ... وَالنَّهْـرُ وَالتَّـاجُ كُـلٌّ ذُلُّـهُ بَـادِ
مَـاءُ السَّـماءِ عَلـى أَبنائِـهِ دَرَرٌ ... يَـا جُنَّـةَ البَحْـرِ دومـي ذاتَ إِزْبَـادِ[2]

٦- شعر الأسر

غَريـبٌ بِـأَرضِ المغـربينِ أَسـيرُ ... سَـيَبكي عَلَيـهِ مِنبَـرٌ وَسَـريرُ
وَتَندُبُـهُ البـيضُ الصَـوارِمُ وَالقَنَـا ... وَينهـلُّ دَمـعٌ بينَهُنَّ غَزيـرُ
سَـيبكيهِ في زاهيـهِ وَالزاهـرِ النَّـدَى ... وَطُلَّابُـهُ وَالعُـرْفُ ثَمَّ نَكـيرُ
إِذا قيـلَ في أَغمـاتَ قـدْ ماتَ جـودُهُ ... فَمـا يُرتَجـى لِلجـودِ بَعـدُ نُشـورُ
مَضـى زَمَـنٌ وَالمُلْـكُ مُستأنِسٌ بِـهِ ... وَأَصـبَحَ مِنْـهُ اليَـومَ وَهْـوَ نَفـورُ
بِـرأيٍ مِـن الـدهرِ المُضلِّـل فاسِـدٍ ... مَـتى صَـلُحَتْ لِلصـالِحينَ دُهـورُ
أَذَلَّ بَـني مـاءِ السَّـماءِ زَمـانُهُم ... وَذُلُّ بَـني مـاءِ السَّـمَاءِ كَبـيرُ
فَمـا ماؤُهـا إِلَّا بُكـاءٌ عَلَـيهِمُ ... يَفـيضُ عَلـى الأَكبـادِ مِنـهُ بُحُـورُ
فَيـا لَيْـتَ شِـعري هَـلْ أَبيـتَنَّ لَيْلَـةً ... أَمـامي وَخَلفـي رَوْضَـةٌ وَغَـديرُ
بِمُنْبَتَـةِ الزَّيتـونِ مورثـةِ العُـلَا ... يُغَـنّي حَمـامٌ أَو تَـرِنُّ طُيـورُ
بِزاهِرِهـا السـامي الـذُّرَا جـادَهُ الحَيَـا ... تُشـيرُ الثُرَيَّـا نَحْوَنـا وَنُشِـيْرُ
وَيلحظُنَـا الزاهـي وَسـعدُ سـعودِهِ ... غيـورَينِ وَالصَّـبُّ المُحِـبُّ غَيـورُ
تُـراهُ عَسـيراً أَو يَسـيراً مَنالُـهُ ... أَلَا كُـلُّ مـا شـاءَ الإِلَـهُ يَسـيرُ
قَضـى اللَّـهُ في حِمْـصَ الحِمَـامَ وَبُعثِـرَتْ ... هُنالِـكَ مِنّـا لِلنُشـورِ قُبـورُ[3]

---

(١) الديوان: ٦٨.

(٢) الديوان: ٩٥.

(٣) الديوان: ٩٨ -٩٩.

الحصري

يـــا ليـــلُ الصـــبُّ مـــتى غـــدُهُ ... أقيـــامُ السَّـــاعةِ مَوْعـــدُهُ

رقـــدَ السُّـــمَّارُ فأرَّقـــه ... أســـفٌ للبـــينِ يـــردِّدُهُ

فبكـــاهُ الـــنجمُ ورقَّ لَـــهُ ... ممّـــا يرعـــاه ويرْصُـــدُهُ

كَلِـــفٌ بغـــزالٍ ذِي هَيَـــفٍ ... خـــوفُ الواشـــينَ يُشَـــرِّدُهُ

نصـــبَتْ عينـــايَ لَـــهُ شَـــرَكاً ... في النـــومِ فعـــزَّ تَصـــيُّدُهُ

وكفـــى عجبـــاً أنِّي قـــنصٌ ... للسّـــربِ ســـباني أغْيَـــدُهُ

صـــنمٌ للفتنـــةِ منتصـــبٌ ... أهـــواهُ ولا أتعبَّـــدُهُ

صـــاحٍ والخمـــرُ جَـــنَى فمِـــهِ ... ســـكرانُ اللحـــظِ مُعرْبِـــدُهُ

ينضُـــو مِـــنْ مُقْلَتِـــهِ ســـيْفاً ... وكـــأنَّ نُعاســـاً يُغْمـــدُهُ

فيُريـــقُ دمَ العشّـــاقِ بِـــهِ ... والويـــلُ لمـــنْ يتقلَّـــدُهُ

كـــلّا لا ذنْـــبَ لمـــن قَتَلَـــتْ ... عينـــاهُ ولم تَقْتُـــلْ يـــدُهُ

يـــا مـــنْ جَحَـــدَتْ عينـــاهُ دَمِـــي ... وعلـــى خدَّيْـــهِ تَـــوَرُّدُهُ

خـــدَّاكَ قـــدْ اعْتَرفـــا بـــدَمِي ... فعـــلامَ جُفونُـــكَ تَجحَـــدُهُ

إنِّي لَأُعيـــذُكَ مـــنْ قَتْلِـــي ... وأظُنُّـــكَ لا تَتَعَمَّـــدُهُ

بـــاللهِ هَـــبِ المشـــتاقَ كَـــرًى ... فلعَـــلَّ خيالَـــكَ يُسْـــعدُهُ

مـــا ضَـــرَّكَ لـــو داوَيْـــتَ ضَـــنًى ... صَـــبٌّ يُـــدْنِيك وتُبْعـــدُهُ

لم يُبـــقِ هـــواكَ لَـــهُ رَمَقـــاً ... فلْيَبْـــكِ عليـــهِ عُـــوَّدُهُ

وغـــداً يَقْضـــي أو بَعْـــدَ غَـــدٍ ... هـــلْ مـــنْ نَظَـــرٍ يَتَـــزَوَّدُهُ

يـــا أهْـــلَ الشـــوقِ لنـــا شَـــرَقٌ ... بالـــدّمعِ يَفـــيضُ مَـــوْرّدُهُ

يهْـــوى المشْـــتَاقُ لقـــاءَكُمُ ... وصـــروفُ الـــدَّهْرِ تُبَعِّـــدُهُ

مـــا أحلـــى الوَصْـــلَ وأعْذَبَـــهُ ... لـــــولا الأيَّـــــامُ تُنَكِّـــــدُهُ

بـــــالبَيْنِ وبـــــالهجْرانِ فيـــــا ... لفُـــــؤَادِي كيـــــفَ تَحَلُّـــــدُهُ

الحُـــــبُّ أعَـــــفُّ ذَويـــــهِ أنـــــا ... غـــــيرِي بالباطِـــــلِ يُفْسِـــــدُهُ

كالـــــدهرِ أجـــــلُّ بنيـــــهِ أبـــــو ... عبـــــدِ الـــــرحمنِ محمّـــــدُهُ

...

ولقـــدْ ذهبـــتْ نُعْمـــى عَيْشـــي ... وطريـــــفُ المـــــالِ ومُتْلَـــــدُهُ

أمحبُّـــــكَ يُـــــدْخَلُ مجلسُـــــهُ ... فيقـــــالُ أهـــــذا مســـــجدُهُ

لا بُسْـــــطَ بـــــهِ إلّا حُصَـــــراً ... فعســـــى نعمـــــاكَ تمهّـــــدُهُ

فابعـــــثْ لمصـــــلٍّ أبســـــطَةً ... في الصـــــفِّ ليَحْسُـــــنَ مَقْعَـــــدُهُ

وعســـــاكَ إذا أنعمـــــتَ بـــــهِ ... مـــــنْ صـــــاحبِهِ لا تفـــــردُهُ

بـــــاثنينِ يُغَطَّـــــى البيـــــتُ ولا ... يُكْسَـــــى بـــــالفردِ مُجَـــــرَّدُهُ

صِـــلْنِي بهمـــا واغـــنَمْ شـــكري ... فَثَنَـــائِي عليـــكَ أُخَلِّـــدُهُ

أتـــراكَ غصـــبتَ لمـــا زعمُـــوا ... وطمَـــى مِـــنْ بحـــرِكَ مُزْبِـــدُهُ

وبَـــدَا مِـــنْ ســـيفِكَ مبرقُـــهُ ... وعَـــلَا مِـــنْ صـــوتِكَ مُرْعِـــدُهُ

هـــلْ تـــأتِي الـــريحُ علـــى رَضْـــوَى ... فتقوِّيْـــــــهِ وتُصَـــــــعِّدُهُ

أنـــتَ المـــولى والعبـــدُ أَنَـــا ... فبـــأيِّ وعيـــدِكَ تُوْعِـــدُهُ

مـــا ليْ ذنـــبٌ فتعـــاقِبُنِي ... كـــذبَ الواشـــي تَبَّـــتْ يَـــدُهُ

ولـــوِ اســـتحقَقْتُ مُعَاقَبَـــةً ... لأبَى كـــــرمٌ تَتَعَـــــوَّدُهُ

عـــنْ غـــيرِ رضـــايَ جـــرتْ أَشْـــيَا ... ءُ تغـــيضُ ســـواكَ وتجحـــدُهُ

واللهُ بـــــذاكَ قَضَـــــى لا أَنْـــــ ... تَ فلســـــتُ عليـــــكَ أُعَـــــدِّدُهُ

لا تَغْـــــدُ علـــــيَّ بمجـــــترِمٍ ... لَـــــمْ يثبُـــــتْ عنـــــدَكَ شُـــــهَّدُهُ

فـــــوزيرُ العصـــــرِ وكاتبُـــــهُ ... ومَرَسِّـــــلُهُ ومُقَصَّـــــدُهُ

يُبْـــدِي مَـــا قُلْـــتُ بمجلسِـــهِ ... أَيْضـــاً ولســـوفَ يُفَنِّـــدُهُ

إنْ كنـــتُ ســـببْتُكَ فُـــضَّ فَمِـــي ... وكفـــرتُ بـــربٍّ أعبُـــدُهُ

حاشَـــا أدبي وسَـــنَا حَسَـــبِي ... مِـــنْ ذَمِّ كـــريمٍ أحمَـــدُهُ

ســـتجودُ لعبـــدِكَ بـــالعفوِ ... فَيُـــذِيْبُ الغـــيظَ ويَطْـــرُدُهُ

وقـــديمُ الـــودِّ ســـتذكُرُهُ ... وتجـــدِّدُهُ وتؤكِّـــدُهُ

أوليـــسَ قـــديمُ فخـــارِكُ يُثْـــ ... ـــنِيْنِي وعُـــلَاكَ يُشَـــيِّدُهُ

يـــا بـــدرَ الـــتمِّ نكحـــتَ الشمـــ ... ـــسَ فـــذاكَ بُنَيِّـــكَ فَرْقَـــدُهُ

فاســـلمْ للـــدينِ تمهِّـــدُهُ ... ولشـــمْلِ الكفـــرِ تُبَـــدِّدُهُ

واقبـــلْ غيـــداءَ محبَّـــرَةً ... لَفْظـــاً كالـــدُّرِّ مُنَضَّـــدُهُ

لـــوْ أنَّ جمـــيلاً أنشـــدَهَا ... في الحـــيِّ لـــذابتْ خُـــرَّدُهُ

أهـــديتُ الشـــعرَ علـــى شَـــحَطٍ ... ونـــداكَ قريـــبٌ مَوْلِـــدُهُ

مـــا أجـــودَ شـــعريَ في خَبَـــبٍ ... والشـــعرُ قليـــلٌ جَيِّـــدُهُ

لـــولاكَ تَسَـــاوَى بَهْرَجُـــهُ ... في ســـوقِ الصَّـــرْفِ وعَسْـــجَدُهُ

ولضـــاعَ الشـــعرُ لـــذي أدبٍ ... أوْ ينفقُـــهُ مَـــنْ يَنْقُـــدُهُ

فعليـــكَ ســـلامُ اللهِ مَـــتَى ... غَـــنَّى بالأيـــكِ مُغَـــرِّدُهُ[1]

ابن خفاجة الشقري

وقال في الاعتبار:

بَعَيشِـكَ هَـلْ تَـدْرِي أَهُـوْجُ الـجَنَائِبِ ... تَخُـبُّ بِرَحْلِـي أَمْ ظُهُـورُ النَّجَائِـبِ

فَمـــا لُحْـــتُ في أُوْلَى المَشَـــارِقِ كَوكَبـــاً ... فَأَشـرَقْتُ حَـتَّى جُبْـتُ أُخْـرَى المَغَـارِبِ

وَحِيْـدَاً تَهَـادَانِي الفَيَـافِي فَـأَجْتَلِي ... وُجُـوْهَ المَنَايَـا فِي قِنَـاعِ الغَيَاهِـبِ

وَلا جَـارَ إِلَّا مِـنْ حُسَـامٍ مُصَـمَّمٍ ... وَلا دَارَ إِلَّا فِي قُتُـودِ الرَّكَائِـبِ

---

١ – علي الحصري، دراسة ومختارات: ١٧٣ –١٧٤، ١٧٧–١٧٨.

وَلا أُنْـــسَ إلَّا أَنْ أُضَـــاحِكَ سَـــاعَةً ... تُغُـورَ الأَمَـانِي فِي وُجُـوهِ الـمَطالِبِ

بِلَيـلٍ إذا مـا قُلْـتُ قَـدْ بَـادَ فَانْقَضـى ... تَكَشَّـفَ عَـنْ وَعْـدٍ مِـنَ الظَّـنِّ كَـاذِبِ

سَـحَبْتُ الـدَّياجي فيـهِ سُـوْدَ ذَوائِـبٍ ... لِأَعْتَنِـــقَ الآمَـــالَ بِـــيْضَ تَرَائِـــبِ

فَمَزَّقْـتُ جَيْـبَ اللَّيـلِ عَـن شَـخْصِ أَطْلَـسٍ ... تَطَلَّـعَ وَضّـاحِ المَضاحِـكِ قَاطِـبِ

رَأَيـتُ بِـهِ قِطْعـاً مِـنَ الفَجْـرِ أَغْبَشـاً ... تَأَمَّـــلَ عَـــنْ نَجْـــمٍ تَوَقَّـــدَ ثَاقِـــبِ

وَأَرْعَـــنَ طَمَّـــاحِ الذُّؤَابَـــةِ بَـــاذِخٍ ... يُطَـــاوِلُ أَعْنَـــانَ السَّـــمَاءِ بِغَـــارِبِ

يَسُـدُّ مَهَـبَّ الـرِّيحِ عَـنْ كُـلِّ وُجْهَـةٍ ... وَيَـــزْحَمُ لَـــيْلاً شُـــهْبَهُ بِالـــمَناكِبِ

وَقُـــوْرٍ عَلَـــى ظَهْـــرِ الفَـــلَاةِ كَأَنَّـــهُ ... طَـوَالَ اللَّيَـالي مُطْـرِقٌ فِي العَوَاقِـبِ

يَلُـوْثُ عَلَيْـهِ الغَـيْمُ سُـوْدَ عَمَـائِمٍ ... لَهَـا مِـنْ وَمـيْضِ البَـرْقِ حُمْـرُ ذَوائِـبِ

أَصَـخْتُ إِلَيْـهِ وَهْـوَ أَخْـرَسُ صَـامِتٌ ... فَحَدَّثَنِـي لَيْـلَ السُّـرَى بِالعَجَائِـبِ

وَقَـالَ أَلَا كَـمْ كُنْـتُ مَلْجَـأَ فَاتِـكٍ ... وَمَوْطِـــنَ أَوّاهٍ تَبَتَّـــلَ تَائِـــبِ

وَكَـمْ مَـرَّ بِي مِـنْ مُـدْلِجٍ وَمُـؤَوِّبٍ ... وَقَـالَ بِظِلِّـي مِـنْ مَطِـيٍّ وَرَاكِـبِ

وَلاطَـمَ مِـنْ نُكْـبِ الرِّيَـاحِ مَعَـاطِفِي ... وَزَاحَـمَ مِـنْ خُضْـرِ البِحَـارِ جَـوَانِبِي

فَمَـا كَانَ إلَّا أَنْ طَـوَتْـهُم يَـدُ الرَّدَى ... وَطَـارَتْ بِهِـمْ رِيْـحُ النَّـوَى وَالنَّوائِـبِ

فَمَـا خَفْـقُ أَيْكِـي غَيْـرَ رَجْفَـةِ أَضْـلُعٍ ... وَلا نَـوْحُ وُرْقِـي غَيْـرَ صَـرْخَةِ نَـادِبِ

وَمَـا غَيَّـضَ السُّـلْوَانُ دَمْعِـي وَإِنَّمَـا ... نَزَفْـتُ دُمُـوعِي فِي فِـرَاقِ الأَصَـاحِبِ

فَحَـتَّى مَـتَى أَبْقَـى وَيَظْعَـنُ صَـاحِبٌ ... أُوَدِّعُ مِنْـهُ رَاحِـلاً غَيْـرَ آيِـبِ

وَحَـتَّى مَـتَى أَرْعَـى الكَوَاكِـبَ سَـاهِراً ... فَمِـنْ طَـالِعٍ أُخْـرَى اللَّيَـالِي وَغَـارِبِ

فَرُحْمَـاكَ يَـا مَـوْلَايَ دَعْـوَةَ ضَـارِعٍ ... يَمُـــدُّ إلى نُعْمَـــاكَ رَاحَـــةَ رَاغِـــبِ

فَـأَسْمَعَنِي مِـنْ وَعْظِـهِ كُـلَّ عِـبرَةٍ ... يُتَرجِمُهَـا عَنْـهُ لِسَـانُ التَّجَـارِبِ

فَسَلَّى بِمـا أَبْكَـى وَسَرَّى بِـمَا شَـجَا ... وَكَـانَ عَلـى لَيْـلِ السُّـرى خَيْـرَ صَـاحِبِ

وَقُلْـتُ وَقَـدْ نَكَّبْـتُ عَنْـهُ لِطِيَّـةٍ ... سَـلَامٌ فَإِنَّـا مِـنْ مُقِـيْمٍ وَذَاهِـبِ[1]

---

١ - **الديوان : ٢١٥ - ٢١٧.**

لسان الدين بن الخطيب

١- الغزل

يَـــا هِـــلَالاً يَـــا قَضِـــيْباً يَـــا رَشَـــا ... إنْ تَبَـــدَّى أوْ تَثَنَّـــى أَوْ مَشَـــا[1]

يَـــــا غَـــــزَالاً وِرْدُهُ فِي أَدمُعِـــــي ... كُلَّمَـــا شَـــاءَ وَمَرْعَـــاهُ الحشَـــا

قَـــدْ فَشَـــا فِيـــكَ هُيَـــامِي فِي الـــوَرَى ... وَهْـــوَ لَـــوْلَا دَمْـــعُ عَيْـــنِي مَـــا فَشَـــا

ولَكَـــمْ آثَـــرْتُ كِتْمَـــانَ الهَـــوَى ... غَيْـــرَ أَنَّ الـــدَّمْعَ بالسِّـــرِّ وَشَـــا

كَيْـــفَ بالكِتْمَـــانِ يَوْمـــاً لامْـــرِىءٍ ... سِـــرُّهُ فِي خَـــدِّهِ قَـــدْ نُقِشَـــا

أَوْ بِسُـــــلوَانٍ لِمَـــــنْ فِي رِيَّـــــةٍ ... جِسْـــمُهُ والقَلْـــبُ فِي وَادِي الأَشَـــا

خُـــذْ فُـــؤَادِي لَـــكَ مِـــنِّي هِبَـــةً ... حُـــرَّةً وَافْعَـــلْ بِقَلْـــبِي مَـــا تَشَـــا

بِعْـــتُ فِيـــكَ النَّـــوْمَ بالسُّـــهْدِ فَـــلَا ... فَـــرْقَ عِنْـــدِي بَـــيْنَ صُـــبْحٍ وَعِشَـــا

كَـــمْ لَيَـــالٍ بِـــتُّ فِي ظَلْمَائِهَـــا ... أَمْتَطِـــي مِـــنْ نَـــارِ شَـــوْقِي فُرُشَـــا

كُلَّمَـــا صِـــحْتُ بِهَـــا وَاكَبِـــدِي ... مَـــادَتِ الأَرْضُ لِمَـــا بِي دَهَشَـــا

وَكَـــأَنَّ الـــنَّجْمَ شَـــرْبٌ ثَمِـــلٌ ... وَاصَـــلَ الثَّمْلَـــةَ حَـــتَّى ارْتَعَشَـــا

وكَـــأَنَّ الصُّـــبْحَ فِي اللَّيْـــلِ وَقَـــدْ ... مَـــلَأَ الأَرْجَـــاءَ مِمَّـــا جَيَّشَـــا

ثَـــائِرٌ رَاقَـــبَ مِنْـــهُ فُرْصَـــةً ... ثُمَّ لَمَّـــا أَمْكَنَتْـــهُ بَطَشَـــا

وَتَخَـــالُ الأُفْـــقَ ثَغْـــراً قَاصِـــياً ... غَلَـــبَ الـــرُّومُ عَلَيْـــهِ الحَبَشَـــا

مُلِئَـــتْ مِـــنْ جَـــوْهَرٍ الـــدَّمْعِ يَـــدِي ... عَجَبـــاً أَقْبَـــلُ فِي قَلْـــبِي الرُّشَـــا

وَجَـــرَى مِـــنْ مَـــاءِ عَيْـــنِي نَهَـــرٌ ... حِـــينَ أَرْسَـــلْتُ دُمُـــوعِي مُجْهِشَـــا

فَـــاعْجَبُوا مِـــنْ جَـــوْهَرٍ لا يُقْتَـــنَى ... وَلِنَهْـــرٍ لَـــيْسَ يَـــرْوِي عَطَشَـــا

---

(١) ديوانه ٢/٧٣٩-٧٤٠، والصيّب والجهام: ٦٥٢.

يَـــا نَـــدِيمَيَّ فُـــؤَادِي كُلَّمَـــا ... نَفَحَـــتْ رِيـــحُ النُّعَـــامَى انتعشَـــا

أَنِّسَـــا قلْـــبِي بِتَـــذْكَارِ الحِمَـــى ... فَـــالحِمَى مِـــنْ أَهْلِـــهِ قَـــدْ أَوْحَشَـــا

ضـــاعَ يَـــوْمَ البـــينِ قلـــبي فَابْحَثَـــا ... بَـــيْنَ أَخْفَـــافِ المطَايَـــا وَانْبِشَـــا

وَامْزُجَاهَـــــا قَهْـــــوَةً عِطرِيَّـــــةً ... كَرُمَـــتْ كَرَمـــاً وَطَابَـــتْ عُرُشَـــا

فَـــــإِذَا أَبْصَـــــرَها ذُو قِـــــرَّةٍ ... ظَنَّهَـــا بالْبُعْـــدِ نَـــاراً فَعَشَـــا

وإِذَا قَبَّلَهَـــــــا شَـــــــارِبُهَا ... قَطَّـــبَ الوَجْـــهَ لَهَـــا وانْكَمَشَـــا

فَسَـــلَا السَّـــاقِي الَّـــذِي أَتْرَعَهَـــا ... حَيَّـــةً أَوْدَعَهَـــا أَوْ حَنَشَـــا

٢- الخمريات:

ودَيْـــرٍ أَنَخْنَـــا فِي قَرارتِـــهِ العِيْسَـــا ... بِحِلّـــةِ رُهْبَـــانٍ إِلَهُهُـــمُ عِيْســـى

عُكـــوفٍ علَـــى التِّمْثـــالِ يَسْـــتَلِمُوْنَهُ ... ويُعْنَـــوْنَ بالإِنْجيـــلِ حِفْظـــاً وتَدْرِيْســـا

زَعَقْنَـــا بِهِـــمْ بعْـــدَ العَشـــيِّ فهَيْنَمـــوا ... كأَنَّـــا ذَعَرْنَـــا غابَـــةً منْـــهُ أو خِيْســـا

وقُلْنَـــا بَنُـــو سُـــبْلٍ جَـــوَانِحُ للقِـــرَى ... فقـــالَ زَعِـــيمُ القـــوْمِ رحْبـــاً وتَأْنِيْســـا

فَقُلْنَـــا هَـــوَاءُ الشَّـــامِ غَـــالَ نُفُوْسَـــنَا ... فَهَـــلْ لَـــكَ فِي شَـــيْءٍ يُـــنَفِّسُ تَنْفِيْســـا

فَقَـــالَ أَخَمْـــرٌ وَهْـــيَ شَـــيْءٌ مُحَـــرَّمٌ ... عَلَـــيْكُمْ لَبِـــئْسَ المسْـــلِمُونَ إِذَنْ بِيْســـا

فَقُلْنَـــا دَعِ الإِنْكَـــارَ إِنَّـــا عِصَـــابَةٌ ... يُطِيْعُـــوْنَ فِيْمَـــا تَشْـــتَهِي الـــنّفْسُ إِبْلِيْســـا

فَقَـــامَ يَجُـــرُّ المِسْـــحَ ثُمَّ أَتَـــى بِهَـــا ... فَأَبْصَـــرْتُ كِيْوَانـــاً تَنَـــاوَلَ بِرْجِيْســـا

وَصَـــارَفْتُهُ فِيْهَـــا لُجَيْنـــاً بِعَسْـــجَدٍ ... فَنَـــاوَلَنِي كَأْســـاً وَنَاوَلْتُـــهُ كِيْســـا

وَلِلَّـــهِ مِـــنْ عَـــيْشٍ نَعِمْنَـــا بِلَهْـــوِهِ ... حَمِـــدْنَا بِـــهِ مِنَّـــا مَقِـــيْلاً وَتَعْرِيْســـا[1]

---

(١) ديوانه: ٢/٧٢٠- ٧٢١، والصيّب والجهام: ٦٤٨-٦٤٩.

٣- المديح:

زَارَتْ ونَجْمُ الـدُجَى يَشْـكُو مِـنَ الأَرَقِ ... والزُّهْـرُ سَـابِحَةٌ في لُجَّـةِ الأُفُـقِ

واللّيـلُ مِـنْ رَوْعَـةِ الإِصْـبَاحِ في دَهَـشٍ ... قـدْ شـابَ مَفْرِقُـهُ مِـنْ شِـدّةِ الفَـرَقِ

وأوْشَـكَتْ أنْ تضِـلَّ القَصْـدَ زائِـرَةٌ ... لـوْلا أتَتْـني في بـاقٍ مِـنَ الرّمَـقِ

قالـتْ تَناسَيْتَ عهْـدَ الحُـبِّ قُلْـتُ لَهـا ... لا والـذي خَلَـقَ الإنسـانَ مـنْ عَلَـقِ

مـا كـانَ قَـطُّ تَناسِي العهْـدِ من شِيَمِي ... ولا السُّـلُوُّ عـنِ الأحْبـابِ مـنْ خُلُقِـي

ولا ترحّلْـتُ عـنْ مَغْنـاكِ مـنْ مَلَـلٍ ... قـدْ يُتْـرَكُ المـاءُ يوْمـاً خِيْفَـةَ الشَّـرَقِ

كـمْ ليلـةٍ بتُّهَـا والطَّيْـفُ يشـهدُ لي ... لمْ تَطْعَـمِ النّـوْمَ أجْفـاني ولمْ تَـذُقِ

أشـكوْ الى الـنّجْمِ وهْنـاً مـا أُكابِـدُهُ ... حتّى شَكا النّجْمُ منْ وَجْدي ومِنْ قَلَقِي

يـا لائِمـيَّ أفِيقَـا مـنْ ملامِكُمَـا ... فـإنَّني مُـذْ سُـقِيْتُ الحُـبَّ لمْ أُفِـقِ

هَـلْ تـذْكُرانِ لَيالِيْنَـا وقـدْ نَفَحَـتْ ... ريـحُ الصَّـبا في رِيـاضٍ للصَّـبا عَبِـقِ

وإذْ نَعِمْنـا بـرَغْمِ الـدّهْرِ فيـهِ وقـدْ ... عـضَّ الأنامِـلَ مـنْ غـيْظٍ ومِـنْ حَنَـقِ

بكُـلِّ سـاحِرَةِ الألْبـابِ آيَتُهَـا ... أنْ تُطْلِعَ الشّمْسَ في جُنْحٍ منَ الغَسَقِ

تُنَـازِعُ الغُصْـنَ لَـدْناً في تـأوّدِهِ ... وتخْصِـمُ الرّيْـمَ في الألحـاظِ والعُنُـقِ

والـرّوضُ يجْلـو عِذَارَيْـهِ وَقَـدْ لَبِسَـتْ ... عَقَائِـلُ الـوُرْقِ دِيْبَاجـاً مِـنَ الـوَرِقِ

كأنّمـا الغُصْـنُ فيـهِ شَـارِبٌ ثَمِـلٌ ... بكـأسِ مُصْـطَبِحٍ في الأُنْـسِ مُغْتَبِـقِ

فكلَّمـا ارْتـاحَ هـزَّ العِطْـفَ مـنْ طَـرَبٍ ... وزادَ زَهْـواً بمَنْثُـورٍ مِـنَ الـوَرَقِ

كأنّمـا الـدَّوْحُ والأغصـانُ جَائِلَـةٌ ... قـدْ جادَهَـا كـلُّ جَهْـمِ الغيْـثِ مُنْـدَفِقِ

كأنّمـا الطّـلُّ إذْ طُـلَّ الشّـقيقُ بـهِ ... خَـدٌّ بِصَـفْحَتِهِ رَشْـحٌ مـنَ العَـرَقِ

هَمّـــتْ تُغـــورُ الأقـــاحي أنْ تُقَبِّلَـــهُ ... فلِلْبَنفْسَـــجِ وجْـــهُ الـــواجِمِ الحَنِـــقِ

كـــأنَّ أوْراقَـــهُ والـــرّيحُ تعطِفُهَـــا ... سَـواعِدٌ رفَعَـتْ خُضْـراً مِـنَ الـوَرَقِ

كأنَّمَـــا الآسُ آذانُ الجِيـــادِ وقـــدْ ... شَـعَرْنَ بـالرّوْعِ في قَفْـرٍ مـنَ الطُـرُقِ

كأنّمـــا النّهْـــرُ في أثْنائِـــهِ أفُـــقٌ ... والـوَرْدُ في الشّـطِّ مِنْـهُ حُمْـرَةُ الشّـفَقِ

أو سَـيْفُ يوسُـفَ يـوْمَ الـرّوْعِ سـالَ بـهِ ... نَجيـــعُ أعْدائِـــهِ المحمـــرُّ في الـــزُّرَقِ

إمـــامُ عَـــدْلٍ يُحـــبُّ اللهُ ســـيرَتَهُ ... عَـفُّ العُيـونِ كـريمُ الخَلْـقِ والخُلُـقِ

أقـــامَ للـــدّينِ قِسْطاســـاً فأمّنَـــهُ ... مَـا سَـامَهُ الجَـوْرُ مِـنْ بخْسٍ ومِـنْ رَهَـقِ

وعـمَّ بـالرِّفْقِ هـذا القُطْـرَ فابْتَـدَرَتْ ... تَنْمِـــي مـــآثِرَهُ جوّابَـــةُ الأُفُـــقِ

أقـــولُ للرّاكـــبِ المُزْجِـــي مَطِيَّتَـــهُ ... يحُثُّهَـا السّـيْرَ بـيْنَ الـنَّصِ والعَنَـقِ

يـا زاجـرَ العِـيْسِ أنْضـاءً مُضَـمَّرَةً ... كأنَّهَـا أسْـهمٌ يَمْرُقْـنَ عـنْ فُـوَقِ

أهِلّـــةٌ مـــا لَهَـــا عَهْـــدٌ بمنزِلَـــةٍ ... مِـنْ كـلِّ مُنْخَسِـفِ الجثْمَـانِ مُنْمَحِـقِ

أرِحْ رِكابَـــكَ قـــدْ أوْرَدْتَ في نَهَـــلٍ ... وقْـــدْ ظَفِـــرْتَ بحبْـــلِ اللهِ فـــاعْتَلِقِ

حَلَلْـــتَ بالمنـــزِلِ المَحْبُـــوِّ نَائِلُـــهُ ... ببـــابِ مَلْـــكٍ لبـــابِ البِـــرِّ مُسْـــتَبِقِ

نَمَتْـــهُ أمْـــلاكُ صِـــدْقٍ بـــلْ ملائِكَـــةٌ ... مِـــنْ كـــلِّ مُحْتَـــزِمٍ بـــالحَزْمِ مُنْتَطِـــقِ

آثـــارُهُمْ في سَمَـــاءِ المُلْـــكِ لائِحَـــةٌ ... تَهْـدِي وذِكْـرُهُمُ مِسْـكٌ لِمُنْتَشِـقِ

وحَـلَّ مـنْ مَحْتِـدِ الأنصـارِ مُنْتَسِـباً ... في معْشَـرٍ صُـبُرٍ عِنْـدَ الـوَغَى صُـدُقِ

حِـزْبُ النّـبِيِّ الأُلَى إنْ رَوْعـةٌ دَهَمَـتْ ... مِـلْءَ الفَضـا لمْ تَهِـنْ ذَرْعـاً ولم تَضِـقِ

يـا قائِـدَ الخَيْـلِ تـرْدِي في أعنّتِهـا ... هَـزْلَى الأبـاطِنِ والأنْسـاءِ والصُّـفُقِ

مـــنْ كـــلِّ أحْمَـــرَ وَرْديٍّ تُنازِعُـــهُ ... ظِبـــاءُ وجْـــرَةَ في الألْـــوانِ والخِلَـــقِ

وأشْـــهَبٍ في سَمَـــاءِ النّقْـــعِ مُخْـــتَرِقٍ ... كأنّـــهُ قـــاذِفٌ يَهْـــوِي لمُسْتَـــرِقِ

وأدْهَـــمِ اللـــوْنِ إنْ أبْـــدَاكَ غُرّتَـــهُ ... تخـــالُ زِنْجيّـــةً تفـــترُّ عـــنْ يَقَـــقِ

كأنّـــهُ وهْـــوَ بالظّلْمـــاءِ مُشْـــتَمِلٌ ... خَاضَـــتْ قَوائِمُـــهُ نَهْـــراً مـــنَ الفَلَـــقِ

وأبْلَـــقٍ شُـــغِفَتْ حُـــورُ العُيـــونِ بـــهِ ... كأنّمـــا عَطفَتْهـــا نســـبَةُ الحَـــدَقِ

تُشـــارِكُ اللّيْـــلَ في إحْكـــامِ صـــنْعَتِه ... واليـــوْمَ واتّفَقـــا فيـــهِ عَلَـــى البَلَـــقِ

أنتَ الذي خاصَمَتْ فيكَ السّيوفُ إلى ... أنْ خلّصَ الحقُّ رهْنَ المُلْـكِ مِـنْ غَلَـقِ

وأنـــتَ أمّنْـــتَ حقّـــاً ثغْـــرَ أنْـــدَلُسٍ ... وقَلْـــبُ ســـاكِنِها يَـــرْتَجُّ مِـــنْ خَفَـــقِ

قـــدْ عـــاوَدَتْ دولَـــةُ الإســـلامِ جِـــدّتَهَا ... والكُفْـــرُ مُشـــتَمِلٌ بـــالواهِنِ الخَلِـــقِ

فـــأَفْلِقِ البـــيضَ واهْـــزُزْ كـــلَّ غالِبَـــةٍ ... فالـــدّينُ في مَـــرَحٍ والكُفْـــرُ في وَهَـــقِ

حـــتَّى إذا الـــرّومُ رامَـــتْ فُرصَـــةً ونَـــزا ... يومـــاً مُنافِقُهـــا الأشْـــقَى عَـــنِ النَّفَـــقِ

فـــاهْزُز برُعْبِـــكَ قبـــلَ الجـــيْشِ مـــا جمَعـــوا ... واضْـــرِبْ بسَـــعْدِكَ قبـــلَ الصّـــارِمِ الـــذَّلِقِ

واسْـــتقْبِلِ الفَـــتْحَ والنّصْـــرَ الـــذي نطَقَـــتْ ... آثـــارُهُ بصَـــحيحٍ غـــيرِ مُخْتَلَـــقِ

وإنْ شـــكَتْ مرْهَفَـــاتُ البـــيضِ مِـــنْ ظَمَـــأٍ ... فســـقّيْهَا عَلَـــلاً صِـــرْفاً مـــنَ العَلَـــقِ

وإنْ هُـــمُ جنَحَـــوا للسِّـــلْمِ واعْتَلَقـــوا ... منْهـــا بمُسْـــتَحْكَمِ الأسْـــبابِ والعُلَـــقِ

اجْـــنَحْ لهـــا بكتـــابِ اللهِ مُقْتَـــدِياً ... إذْ ذاكَ واسْـــتَبْقِ فـــلّاً مـــنْ ظُبـــاكَ بَقِـــي

واهْنـــأْ بقابِـــلِ أعْيـــادٍ مَواسِمُهـــا ... منْظومـــةً ككُعـــوبِ الـــرُّمْحِ في نَسَـــقِ

في ظـــلِّ مُلْكـــة مـــنْ دونِ ســـاحَتِها ... رِدْءٌ مـــنَ اللهِ يحْمِـــي حَوْزَهـــا ويَقِـــي

مـــوْلايَ دونَكَهـــا عِقْـــداً فرائِـــدُهُ ... تُزْهَـــى بمنـــتَظِمِ الإبْـــداعِ مُتَّسِـــقِ

يوَدُّهَـــا الـــدوْحُ في أغْصـــانِهِ زَهَـــراً ... غَضّـــاً وتحْسِـــدُها داريـــنُ في العَبَـــقِ

تُــزْرِي بطيــبِ أواليهــا أواخرُهَــا ... كــذلِكَ السّــبْقُ يبْــدُو آخِــرَ الطَّلَــقِ

لـوْ جِئْتُ فِي حَلْبَةِ العُرْبِ التي سبقَتْ ... مَـا كُنْـتُ فِي القـوْمِ إلَّا حـائِزَ السّـبَقِ

وإنْ تــأخّرَ بي عــنْ جــيلِهِمْ زمَــني ... فربّمَـا جـاءَ معْـنَى الصّـبْحِ فِي اللَّحَـقِ

والعقْــلُ كــالبَحْرِ إنْ هالَتْــكَ هيبتُــهُ ... فالشّــعْرُ يسْــبُرُ منْــهُ مُنْتَهــى العُمُــقِ

فـإنْ وفّيْـتُ بمعـنَى المـدْحِ فهْـوَ جَـنَى ... روْضٍ بإنعامِـكَ السّـحِّ الغَمـامِ سُـقِي

وإنْ عجَـزْتُ فعَـنْ عُـذْرٍ وثقــتُ بــهِ ... مَـنْ رامَ عـدَّ الحَصـى والقَطْـرَ لمْ يُطِـقِ

وإنْ وفَيْــتُ بِــبَعْضِ القَــوْلِ رُبَّمَــا ... يَكْفِي مِنَ العِقْدِ مَا قَدْ حَفَّ بالعُنُقِ[1]

٤– الفخر

لَنَــا فِي الْفَخْــرِ أَسْــنِمَةٌ مُطِلَّــهْ ... تَقُــومُ عَلَــى دَعَاوِيْهَــا الأَدِلَّــهْ

وَشَــمْسُ الْحَــقِّ مَنْظُــورٌ سَــنَاهَا ... عَلَــى الشُّــبَهِ الْمُخَيَّلَــةِ الْمُخِلَّــهْ

بَــنِي سَــلْمَانَ سَــلْ عَــنْهُمْ سَــتَدْرِي ... عَلَــى الأَجْيَــالِ مِــنْهُمْ كُــلَّ جِلَّــهْ

يَمَانِيَــةُ الْمَنَاسِــبِ وَالْمَوَاضِــي ... مَفَاخِرُهَــا رُسُــومٌ مُسْتَقِلَّــهْ

فَمِــنْ نَــارِ الْــوَغَى فِيْ كُــلِّ وَادٍ ... وَمِــنْ نَــارِ الْقِــرَى فِي كُــلّ حِلَّــهْ

وَمِــنْ فَصْــلِ الْخِطَــابِ بِكُــلِّ نَــادٍ ... ومِــنْ فَضْــلِ الثنــاءِ بِكُــلِّ مِلَّــهْ

تَهَــشُّ لَنَــا البُــدُوْرُ بِكُــلِّ خِــدْرٍ ... وَتَهْوَانَــا الشَّــمُوْسُ بِكُــلِّ كِلَّــهْ

ويمرضُــنَا العَفَــافُ فَكَــمْ عَلِيْــلٍ ... وَمَــا غَيْــرُ الْهَــوَى وَالْكَــتْمِ عِلَّــهْ

تَحُــجُّ بُيُوتَنَــا الْقُصَّــادُ دَأبــاً ... فَــلَا تَنْفَــكُّ طَائِفــةً مُهِلَّــهْ

بِحَيْــثُ البِــيْضُ ضَــامِنَةُ المَسَــاعِي ... وَحَيْــثُ السُّــمْرُ مُثْمِــرَةٌ مُغِلَّــهْ

---

(١) ديوانه ٢/٦٩٠– ٦٩٣، والصيّب والجهام: ٦٣٤–٦٣٩

فَعِنْـــدَ السِّـــلْمِ مُحْرِمَـــةٌ عُكُـــوْفٌ ... وَعِنْـــدَ الْحَـــرْبِ فَاتِكَـــةٌ مُحِلَّـــهْ

وَحَيْـــثُ الْجُـــرْدُ لِلْغَـــارَاتِ تُـــرْدَى ... فَتَتْرُكُهَـــا حَوَاسِـــرَ مُشْمَعِلَّـــهْ

وَلَمْ أَرَ مِثْلَنَـــا فِي الـــدَّهْرِ قَوْمـــاً ... رِيَـــاحَ الْجَـــوِّ تُلْحِـــفُ بالأَجِلَّـــهْ

وَتَضْـــطَبِنُ الصَّـــوَاعِقُ فِي غُمُـــودٍ ... وَتَقْـــتَصُّ البَـــوَارِقُ بِالأَهِلَّـــهْ

فَتُطْعِمُنَـــا الْمَغَـــانِي وَالـــرَّوَابِي ... وَتَسْـــقِيْنَا الْغُيُـــوْثَ المُسْتَهِلَّـــهْ

وَتَفْـــتَرِشُ الْبِطَـــاحَ لَنَـــا الْحَشَـــايَا ... وَلِلرَّايَـــاتِ أَرْوِقَـــةٌ مُظِلَّـــهْ

وَتُعْـــرَفُ مِـــنْ أَعِزَّتِنَـــا الدَّيَـــاجِي ... لِعِـــزِّ اللَّـــهِ خَاشِـــعَةً أَذِلَّـــهْ

أَبَـــا عَبْـــدِ اللَّـــهِ فَـــدَتْكَ نَفْـــسٌ ... عَلَـــى مَـــا حُـــزْتَ مِـــنْ فَضْـــلٍ مُدِلّـــهْ

دَعَوْتُـــكَ مُسْـــتَجِدّاً عَهْـــدَ أُنْـــسٍ ... أَمَلَّتْـــهُ اللَّيَـــالِي الْمُسْتَمِلَّـــهْ

وَقَـــدْ طَعَـــنَ الصِّـــبَا إِلَّا ادِّكَـــارٌ ... وَقَـــدْ ذَهَـــبَ الْهَـــوَى إِلَّا تَعِلَّـــهْ

فَسَـــاعِدْنِي عَلَيْـــهِ مِـــنَ اغْـــتِرَابٍ ... لَـــهُ فِي مُهْجَـــتِي وَخْـــزُ الأَخِلَّـــهْ

وَسَـــاجِلْنِي بِفَخْـــرِكَ فِي صَـــرِيْحٍ ... فَكَـــمْ تَـــاجٍ هُنَـــاكَ وَكَـــمْ تَجَلَّـــهْ

وَدُمْـــتَ مُجَمِّعـــاً شَمْـــلَ الْمَعَـــالِي ... وَمُقْتَـــاداً مِـــنَ الـــدُّنْيَا شِمِلَّـــهْ[1]

٥- التصوّف

هَـــبَّ النّســـيمُ مُعَطَّـــرَ الآرَاجِ ... فَشَـــفَى لَـــوَاعِجَ قَلْبِـــيَ المُهْتَـــاجِ

وَافَى يُحَـــدِّثُ عَـــنْ أَحِبّـــتِيَ الأُلَى ... أَصْـــبَحتُ أُكْـــنِي عَـــنْهُمُ وأُحَـــاجِي

فَاشْـــرَبْ عَلَـــى ذِكْـــرِ الحَبِيْـــبِ وسَـــقِّنِي ... صَـــهْبَاءَ تُشْـــرِقُ فِي الظَّـــلَامِ الـــدّاجِي

مِـــنْ خَمْـــرَةِ السِّـــرِّ المُقدّسَـــةِ الـــتي ... كَلِفَـــتْ بِطاسَـــتِها يَـــدُ الحَـــلَّاجِ

وأَرَتْ لـــهُ الأشـــياءَ شـــيئاً واحـــداً ... فَغَـــدَا يُخاطِـــبُ نَفْسَـــهُ ويُنَـــاجِي

---

(١) ديوانه: ٥٢٣، ٥٢٤

ورأى ابْـنُ أدْهَـمَ لَمْحـةً مِـنْ نورِهـا ... تَلْتَـاحُ بـينَ مَخـارِمٍ وفِجَـاجِ

فَغَـدَا ومِـنْ صـوفِ الصّـفاءِ شِـعارُهُ ... واعْتاضَـهُ مِـنْ لِبْسَـةِ الـدِّيْبَاجِ

رَفَعُـوا لَهـا قَبَسـاً بجانِـبِ طُـوْرِهِمْ ... فَعَشَـوْتُ نَحْـوَ سِـرَاجِهِ الوَهَّـاجِ

وبَحَثْـتُ عَنْهـا خَمْـرَةً لمَّـا تَـزَلْ ... سَـبَبَ النّجـاةِ لِطالِـبٍ أوْ راجِ

لمّـا عَلِمْـتُ مَكَانَهـا وزَمَانَهَـا ... أَعْمَلْـتُ في لَيْـلِ السُّـرَى إِدْلاَجِـي

وأتَيْـتُ رَبَّ الـدّيْرِ في مِحْرابِـه ... فَبَثَثْـتُ إفْلاسـي إليْـهِ وَحَـاجِي

نَادَيْتُـهُ مُتَرَحِّمـاً واللّيْـلُ قـدْ ... رَجَعَـتْ كتائِبُـهُ عَلَـى الأَدْرَاجِ

مَـا لِي سِـواكَ فَـلَا تُخَيِّـبْ مَقْصَـدِي ... مَـا خَـابَ فيـكَ رَجَـاءُ عَبْـدٍ رَاجِ

وافَيْـتُ مـنْ أرْضٍ بَعيـدٍ خَطْوُهـا ... مِـنْ بَعْـدِ طـولِ تَخَـبُّطٍ ولَجَـاجِ

مَهْمـا ضَـحَيْتُ فظِـلُّ حُبِّـكَ مَلْجَئِـي ... ومَـتَى مَرِضْـتُ فَفـي يَـدَيْكَ عِلَاجِـي

ومَـدَدْتُ كـفَّ الفَقْـرِ أسْـأَلُهُ فَيـا ... عِـزَّ الغَـنِيِّ وذِلّـةَ المُحْتَـاجِ

فَـرَأَى افْتِقَـارِي في يديْـهِ فَجَـادَ لي ... مِـنْ جُـوْدِهِ بالوابِـلِ الثَّجَّـاجِ

وأحَلَّـنِي مِـنْ دَيْـرِهِ في هَضْـبَةٍ ... تَـنْحَطُّ عَنْهـا الشُّـهْبُ في الأَبْـرَاجِ

وجَـلا عَلَـيَّ الـرّاحَ في أكْوَاسِـهَا ... فَشَـرِبْتُها صِـرْفاً بغَـيْرِ مِـزَاجِ

تَخْفَـى عـن الإدْراكِ إلَّا أنَّهـا ... يَهْـدي سَـنَاها راحَـةَ المُـزَّاجِ

فَـتَرى زُجَاجَتَهـا بِغَـيْرِ مُدَامَـةٍ ... وتَـرَى مُـدَامَتَها بِغَـيْرِ زُجَـاجِ

وَالَى عَلَـيَّ بِهـا وَقَـالَ هِـيَ الـتي ... فِيهـا سَمَحْـتَ بخَيْرِهـا النَّسَّـاجِ

فَاشْـرَبْ وبُـحْ بـاسْمي جِهَـاراً لَا تَخَـفْ ... في الـدّيْرِ مِـنْ نَصَـبٍ ولا إحْـرَاجِ

يَـا صـاحِبَيَّ وَمـا أرَى لي صـاحِباً ... غَـيْري أُعاطِيـهِ الهَـوَى وَأُنَـاجِي

عُوْجَـا علَـى طَلَـلِ الوُجُـودِ وبَلِّغَـا ... عَـنِّي السّـلامَ فَـلَاتَ حِـيْنَ مَعَـاجِ

للّـهِ إخْـوانُ الصّـفاءِ فـإنّهُمْ ... سَـلَكوا الطّريـقَ الواضِـحَ المِنْهَـاجِ

مِـنْ كُـلِّ ذِي طِمْـرَيْنِ أَشْـعَثَ أَغْـبَرٍ ... عَبِثَـتْ بشَـمْلَتِهِ يَـدُ الإنْهَـاجِ

وقَفُـوا بِـأبْوابِ اليَقـينِ وفَتَّحُـوا ... مَـا كَـانَ مِنْهـا قَبْـلُ ذَا إرْتَـاجِ

حَـتَّى إِذَا كَـادَتْ سِمَـاتُ طَـرِيْقِهِمْ ... تَخْفَـى بِكُـلِّ مُمَـوِّهٍ ومُـدَاجِ
نَـادَتْ هَلُمّـوا جَـدِّدوا عهْـدَ الرِّضـا ... أيّـامَ مَولانـا أبي الحَجَّـاجِ
فاسْـتَقْبَلوا داعِـي المَقَـام كأنَّمـا ... أَتَـتِ المَقَـامَ رَكائِـبُ الحُجَّـاجِ
أحْيَـا الإلـهُ بـهِ رُسـومَ طَـرِيقِهِمْ ... وحَمـاهُمُ مِـنْ مُلْكِـهِ بسِـيَاجِ
مَلِـكٌ يَحُـثُّ الصّـالِحِينَ ويَقْتَـدِي ... فِي الـدِّينِ مِـنْ أَنْـوَارِهِم بِسِـرَاجِ
ويُواصِـلُ اللَّيْـلَ التَّمَـامَ مُسَـهَّداً ... للّـهِ بـيْنَ مُراقِـبٍ ومُنَـاجِ
أَبْـدَى رُسُـومَ العِلْـمِ بَعْـدَ عَفَائِهَـا ... وأعـادَ وَجْـهَ الحَـقِّ ذَا إبْهَـاجِ
وغَـدَا الزّمـانُ بسَـيْفِهِ وبِسَـيْبِه ... يَـوْمَيْنِ يَـوْمَ نَـدىً ويَـومَ هِيَـاجِ
وأَحَـقُّ مَـنْ مَلَـكَ الخِلافَـةَ نَاصِـرٌ ... يَنْمِيْـهِ صَـاحِبُ صَـاحِبِ المِعْـرَاجِ
كُـلُّ الفَضَـائِلِ لَمْ تُحَـلَّ بِحَمْـدِهِ ... لَبَّاتُهَـا فَتَمَامُهَـا بِخِـدَاجِ
خُـذْهَا أميـرَ المُسْلِميـنَ قَوَافِيـاً ... ثـارَتْ عَجَاجَتُهَـا عَلَـى العَجَّـاجِ
أَنَـا جَـوْهَرِيُّ اللَّفْـظِ لا عَجَـبٌ إذا ... جَمْعِـي مُنَظِّمُهَـا بِهَـذا التَّـاجِ
أَبْقَيْـتُ بِالـذِّكْرِ الجَمِيْـلِ مَـدَائِحاً ... لَـكَ فِي فَـمِ الـرّاوي وقَلْـبِ الرَّاجِـي
واخْلُـدْ ونَصْـرُ اللهِ جَـلَّ جَلَالُـهُ ... يَأْتِيْـكَ أَفْوَاجـاً عَلَـى أَفْـوَاجِ[1]

٦- الوعظ

مَـا أَوْبَـقَ الأَنْفُـسَ إِلَّا الأَمَـلُ ... وَهْـوَ غُـرُورٌ مَـا عَلَيْـهِ عَمَـلُ
يَفْـرِضُ مِنْـهُ الشَّـخْصُ وَهْمـاً مَـا لَـهُ ... حَـالٌ وَلَا مَـاضٍ وَلَا مُسْتَقْبَـلُ
مَـا فَـوْقَ وَجْـهِ الأَرْضِ نُفْـسٌ حَيَّـةٌ ... إِلَّا قَـدِ انْقَضَـى عَلَيْهَـا أَجَـلُ
لَـوْ أَنَّهُـمْ مِـنْ غَيْرِهَـا قَـدْ كُوِّنُـوا ... لَامْـتَلأَ السَّـهْلُ بِهِـمْ وَالْجَبَـلُ
مَـا ثَمَّ إِلَّا لُقْمَـةٌ قَـدْ هُيِّئَـتْ ... لِلْمَـوْتِ وَهْـوَ الآكِـلُ الْمُسْتَعْجِـلُ
وَالْوَعْـدُ حَـقٌّ وَالْـوَرَى فِي غَفْلَـةٍ ... قَـدْ خُودِعُـوا بِعَاجِـلٍ وَضُلِّلُـوا
أَيْـنَ الَّـذِينَ شَـيَّدُوا وَاغْتَرَسُـوا ... وَمَهَّـدُوا وَافْتَرَشُـوا وَظَلَّلُـوا

---

(١) ديوانه: ١٩٩ - ٢٠٢، والصيّب والجهام: ٣٤٨-٣٥١

أَيْـــنَ ذَوُو الرَّاحَـــاتِ زَادَتْ حَسْـــرَةً ... إِذْ جُنِّبُـــوا إِلَى الثَّـــرَى وَانْتَقَلُـــوا
لَمْ تَـدْفَعِ الأَحْبَـابُ عَـنْهُمْ غَيْـرَ أَنْ ... بَكَـــوْا عَلَـــى فِـــرَاقِهِمْ وَأَعْوَلُـــوا
اللهُ فِي نَفْسِـــكَ أَوْلَى مَـــنْ لَـــهُ ... ذَخَـــرْتَ نُصْـــحاً وَعِتَابـــاً يَقْبَـــلُ
لاَ تَتْرُكَنْهَـــا فِي عَمـــى وَحَيْـــرَةٍ ... عَـنْ هَـوْلِ مَـا بَـيْنَ يَـدَيْهَا تَغْفُـلُ
حَقِّـرْ لَهَـا الْفَـانِي وَحَـاوِلْ زُهْـدَهَا ... وَشَـــوِّقْهَا إِلَى الَّـــذِي تَسْتَقْبِـــلُ
وَفِـــدْ إِلَى اللَّـــهِ بِهَـــا مُضْـــطَرَّةً ... حَـتَّى تَـرَى السَّـيْرَ عَلَيْهَـا يَسْهُـلُ
هُـــوَ الْفَنَـــاءُ وَالْبَقَـــاءُ بَعْـــدَهُ ... وَاللَّـــهُ عَـــنْ حِكْمَتِـــهِ لَا يُسْـــأَلُ
يَـــا قُـــرَّةَ الْعَـــيْنِ وَيَـــا حَسْـــرَتَهَا ... يَـوْمَ يُـوَفَّى النَّـاسُ مَـا قَـدْ عَمِلُـوا[1]

وقال:

الحمـــدُ لله مَوْصُـــولا كمـــا وجبـــا ... فهـــو الـــذي بـــرداء العِـــزّة احْتَجَبـــا
البـاطِن الظّـاهرِ الحـق الـذي عَجَـزَتْ ... عنـــه المـــدارِكُ لمـــا أمْعَنَـــتْ طَلَبـــا
عـلا عـنِ الوصْـفِ مَـن لا شـيءَ يُدْرِكُـه ... وجَـلَّ عـن سـبَبٍ مـن أوْجَـدَ السّـببا
والشُّـــكرُ للهِ في بـــدْءٍ ومُخْتَـــتَم ... فـالله أكـرَمُ مـن أعْطـى ومَـنْ وَهَبـا
ثم الصّـلاةُ علـى النُّـورِ المبـينِ ومـن ... آياتـــه لَمْ تَـــدَعْ إفْكـــاً ولا كَـــذِبا
مُحَمَّـــدٌ خـيرُ مـن تُرْجـى شَـفاعتُهُ ... غـداً وكُـلّ امـرىءٍ يُجْـزَى بمـا كَسَـبا
ذو المعجـزات الـتي لاحَـتْ شـواهِدُها ... فشـــاهَدَ القـــوْمُ مـــن آياتِـــهِ عجَبَـــا
ولا كمِثْـــلِ كتـــابِ الله مُعجِـــزَةٍ ... تبْقَـى علـى الـدَّهْرِ إنْ ولّى وإنْ ذهبـا
صـلّى عليـه الـذي أهْـداهُ نُـورَ هُـدًى ... مـا هبَّـتِ الرِّيحُ مـن بعـدِ الجنـوبِ صَبـا
ثمّ الرّضـا عـن أبي بكْـرٍ وعـن عُمَـرٍ ... بَـدْرانِ مـن بعـده للمِلّـةِ انْتُخِبـا[2]

---

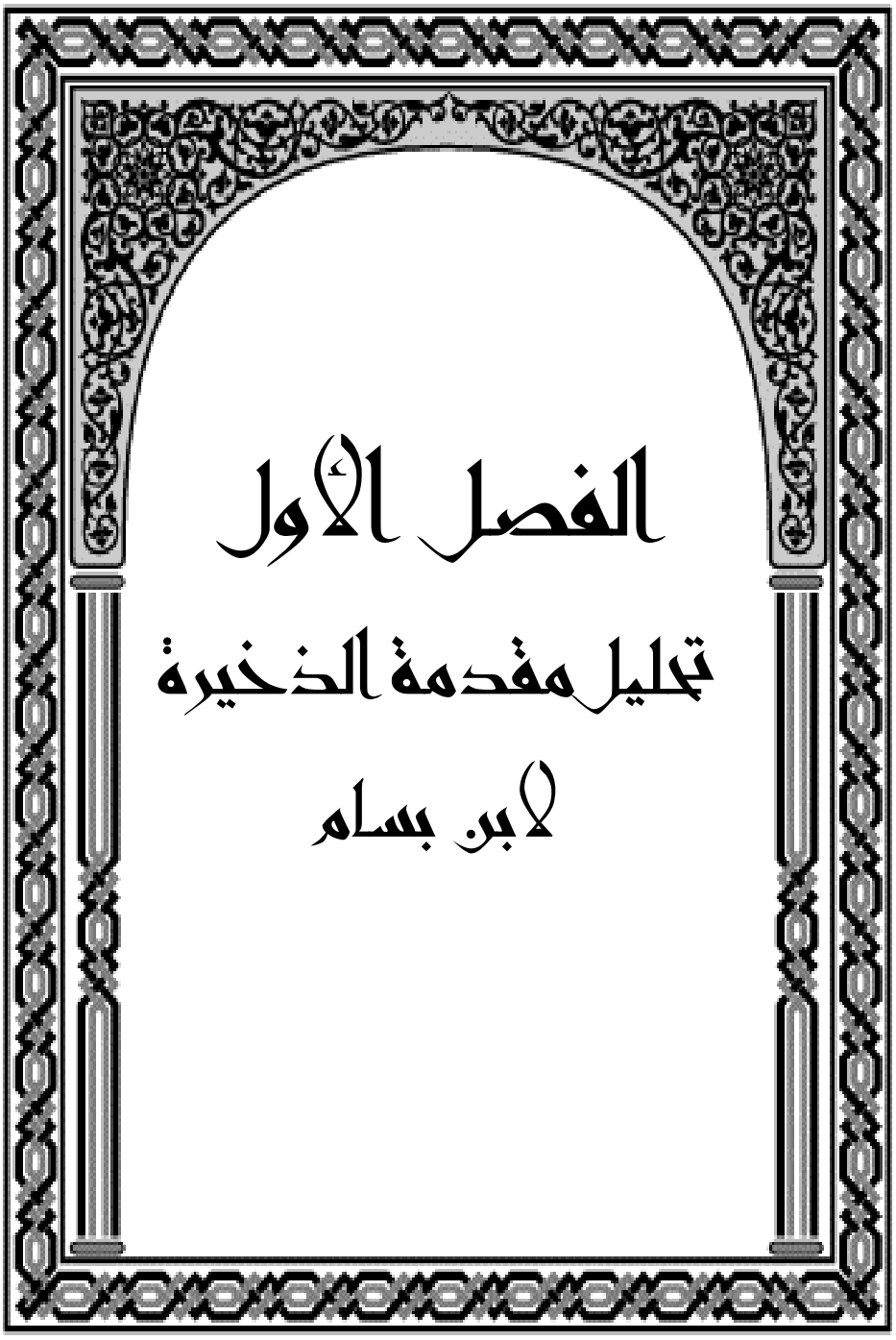
(١) ديوانه: ٥١٢-٥١٣.

(٢) ديوانه: ٤٥؟

الباب الثاني

تحليل

النثر الأندلسي



الفصل الأول

تحليل مقدمة الذخيرة

لابن بسام

مقدمة كتاب الذخيرة في محاسن أهل هذه الجزيرة

بسم الله الرحمن الرحيم

قال أبو الحسن عليّ بن بسّام الشنتريني الأندلسي، رحمه الله:

«أَمَّا بَعْدَ حمدِ اللهِ وليِّ الحمدِ وأهلِهِ، والصلاةِ علَى سيِّدِنَا محمَّدٍ خاتَمِ رُسُلِهِ، فإنَّ ثمرةَ هذَا الأدبِ، العالي الرُّتَبِ، رسالةٌ تُنْثَرُ وتُرْسَلُ، وأبياتٌ تُنْظَمُ وتُفْصَلُ؛ تنثالُ تلكَ انثيالَ القِطَارِ، على صفحاتِ الأزهارِ، وتتَّصِلُ هذِهِ اتِّصَالَ القلائِدِ، عَلَى نحورِ الخرائِدِ؛ ومَا زالَ في أفقِنَا هَذا الأندلسيِّ القصيِّ إلى وقتِنَا هَذا مِنْ فرسانِ الفَنَّيْنِ، وأئمَّةِ النوعَيْنِ، قومٌ همُ مَا همُ طِيْبَ مَكَاسِرَ، وصَفَاءَ جَوَاهِرَ، وعذوبَةَ موارِدَ ومَصَادِرَ؛ لعبُوا بأطرافِ الكلامِ المُشَقَّقِ، لَعِبَ الدُّجَى بجفونِ المُؤَرَّقِ، وحَدَوا بِفُنُوْنِ السحرِ المنمَّقِ، حُدَاءَ الأعشَى ببناتِ المُحَلَّقِ؛ فصَبُّوا عَلَى قوالِبِ النجومِ، غرائِبَ المنثورِ والمنظومِ؛ وباهَوا غُرَرَ الضُّحَى والأصائِلِ، بعجائبِ الأشعارِ والرسائِلِ: نثرٌ لَو رآهُ البديعُ لنسيَ اسمَهُ، أو اجتَلَاهُ ابنُ هلالٍ لَوَلَّاهُ حُكْمَهُ؛ ونظمٌ لَو سمعَهُ كُثَيِّرٌ مَا نَسَبَ ولَا مَدَحَ، أَو تَتَبَّعَهُ جَرْوَلٌ مَا عَوَى ولا نَبَح؛ إِلَّا أَنَّ أهلَ هَذا الأُفْقِ، أَبَوا إِلَّا متابعةَ أهلِ الشرقِ، يرجعونَ إِلى أخبارِهِمْ المعتادَةِ، رجوعَ الحديثِ إِلَى قَتَادَةَ؛ حتَّى لَو نَعَقَ بتلكَ الآفاقِ غرابٌ، أَوْ طَنَّ بأقصَى الشامِ والعراقِ ذبابٌ، لجَثَوا عَلى هَذا صَنَماً، وتَلَوا ذلكَ كتاباً مُحْكَماً؛ وأخبارُهُمْ الباهِرَةُ، وأشعارُهُمْ السائِرَةُ، مرمَى القصيَّةِ، ومُنَاخُ الرذيَّةِ، لَا يَعْمُرُ بهَا جَنَانٌ ولَا خَلَدٌ، ولَا يُصَرَّفُ فيهَا لسانٌ ولَا يَدٌ. فغاظنِي منهمْ ذلكَ، وأنفتُ ممَّا هنالِكَ، وأخذتُ نفسِي بجمعِ مَا وجدْتُ مِنْ حسناتِ دَهْرِي، وتتبُّعِ محاسِنِ أهلِ بَلَدِي وعَصْرِي، غَيْرَةً لهَذا الأُفْقِ الغريبِ أنْ تعودَ بدورُهُ أهلَّةً، وتصبحَ بحارُهُ ثَمَاداً مُضْمَحِلَّةً؛ مَعَ كثرةِ أدبائِهِ، ووفورِ علمائِهِ؛ وقديماً ضيَّعُوا العلمَ وأهلَهُ، ويَا رُبَّ محسنٍ مَاتَ إحسانُهُ قَبْلَهُ؛ وليتَ شِعْرِي مَنْ قَصَرَ العِلْمَ عَلَى بَعْضِ الزمانِ، وخَصَّ أهلَ المشرقِ بالإحسانِ.

وقد كتبت لأرباب هذا الشان، من أهل الوقت والزمان، محاسن تبهر الألباب، وتسحر الشعراء والكتّاب، ولم أعرض لشيء من أشعار الدولة المروانيّة، ولا المدائح العامريّة؛ إذ كان ابن فرج الجيّاني قد رأى رأيي في النصفة، وذهب مذهبي من الأنفة؛ فأملى في محاسن أهل زمانه كتاب "الحدائق" معارضاً لكتاب "الزهرة" للإصبهاني، فأضربت أنا عمّا ألّف، ولم أعرض لشيء ممّا صنّف. ولا تعدّيت أهل عصري، ممّن شاهدته بعمري، أو لحقه بعض أهل دهري؛ إذ كلّ مردد ثقيل، وكلّ متكرّر مملول، وقد مجّت الأسماع: "يا دار ميّة بالعلياء فالسند"، وملّت الطباع: "لخولة أطلال ببرقة ثهمد"؛ ومجّت: "قفا نبك" في يد المتعلّمين، ورجعت على ابن حجر بلائمة المتكلّفين؛ فأمّا "أمن أمّ أوفى "، فعلى آثار من ذهب العفا. أما آن أن يصمّ صداها، ويسأم مداها، وكم من نكتة أغفلتها الخطباء، وربّ متردّم غادرته الشعراء، والإحسان غير محصور، وليس الفضل على زمن بمقصور؛ وعزيز على الفضل أن ينكر، تقدّم به الزمان أو تأخّر، ولحى الله قولهم: الفضل للمتقدّم، فكم دفن من إحسان، وأخمل من فلان. ولو اقتصر المتأخّرون على كتب المتقدّمين، لضاع علم كثير، وذهب أدب غزير.

وقد أودعت هذا الديوان الذي سمّيته بكتاب "الذخيرة في محاسن أهل هذه الجزيرة" من عجائب علمهم، وغرائب نثرهم ونظمهم، ما هو أحلى من مناجاة الأحبّة، بين التمنّع والرقبة، وأشهى من معاطاة العقار، على نغمات المثالث والأزيار؛ لأنّ أهل هذه الجزيرة –مذ كانوا– رؤساء خطابة، ورؤوس شعر وكتابة، تدفّقوا فأنسوا البحور، وأشرقوا فباروا الشموس والبدور؛ وذهب كلامهم بين رقّة الهواء، وجزالة الصخرة الصماء، كما قال صاحبهم عبد الجليل ابن وهبون يصف شعره:

رقيـق كمـا غنّـت حمامـة أيكـة وجـزل كمـا شـقّ الهـواء عقـاب

على كونهم بهذا الإقليم، ومصاقبتهم لطوائف الروم؛ وعلى أنّ بلادهم آخر الفتوح الإسلاميّة، وأقصى خطى المآثر العربية؛ ليس وراءهم وأمامهم إلّا البحر المحيط، والروم والقوط؛ فحصاة من هذه حاله ثبير، وثمده بحر مسجور؛ وقد حكى أبو علي البغدادي

الوافد على الأندلس في زمان بني مروان قال: "لما وصلت القيروان وأنا أعتبر من أمرّ به من أهل الأمصار، فأجدهم درجات في الغباوة وقلّة الفهم بحسب تفاوتهم في مواضعهم منها بالقرب والبعد، حتّى كأنّ منازلهم من الطريق هي منازلهم من العلم محاصّة ومقايسة". قال أبو علي"فقلت: إن نقص أهل الأندلس عن مقادير من رأيت في أفهامهم، بقدر نقصان هؤلاء عمّن قبلهم، فسأحتاج إلى ترجمان، بهذه الأوطان".

قال ابن بسّام: فبلغني أنّه كان يصل كلامه هذا بالتعجّب من أهل هذا الأفق في ذكائهم، ويتغطّى عنهم عند المباحثة والمفاتشة، ويقول لهم: "إنّ علمي علم رواية، وليس بعلم دراية، فخذوا عنّي ما نقلت، فلم آل لكم أن صحّحت". هذا مع إقرار الجميع له يومئذ بسعة العلم وكثرة الروايات، والأخذ عن الثقات؛ ولولا أنّ كلّ معنى معترض، يزيح سهمي عن ثغرة الغرض، المقصود في هذا الكتاب، لأوردت في هذا الباب، بعض ما وقع لأهل الأندلس من عجب، وسمع لهم من نادر مستغرب. وسيمرّ منه في تضاعيف هذا التصنيف ما فيه كفاية، ويربي إن شاء الله على الغاية. ولعلّ بعض من يتصفّحه سيقول: إنّي أغفلت كثيراً، وذكرت خاملاً وتركت مشهوراً. وعلى رسله، فإنّما جمعته بين صعبٍ قد ذلّ، وغرب قد فلّ، ونشاط قد قلّ، وشباب ودّع فاستقلّ؛ من تفاريق كالقرون الخالية، وتعاليق كالأطلال البالية، بخطّ جهّال كخطوط الراح، أو مدارج النمل بين مهابّ الرياح؛ ضبطهم تصحيف، ووضعهم تبديل وتحريف؛ أيأس الناس منها طالبها، وأشدّهم استرابة بها كاتبها؛ ففتحت أنا أقفالها، وفضضت قيودها وأغلالها؛ فأضحت غايات تبيين وبيان، ووضحت آيات حسنٍ وإحسان.

على أنّ عامّة من ذكرته في هذا الديوان، لم أجد له أخباراً موضوعة، ولا أشعاراً مجموعة، تفسح لي في طريق الاختيار منها، إنّما انتقدت ما وجدت، وخالست في ذلك الخمول، ومارست هنالك البحث الطويل، والزمان المستحيل، حتّى ضمنت كتابي هذا من أخبار أهل هذا الأفق، ما لعلّي سأربي به على أهل المشرق. وما قصدت به –علم الله– الطعن على فاضل، ولا التعصّب لقائل على قائل؛ لأنّ من طلب عيباً وجده، وكلّ يعمل

باقتداره، وبجهد اختياره؛ وما أغفل أكثر ممّا كتب وحصّل؛ والأفكار مزن لا تنضب، ونجوم لا تغرب؛ ومن يحصّل ما تثيره القرائح، وتتقاذف به الجوانح، وقد قال أبو تمّام :

ولو كان يفنى الشعر أفناه ما قرت حياضك منه في العصور الذواهب

ولكنّه صوب العقول إذا انجلت سحائب منه أعقبت بسحائب

وهذا الديوان إنّما هو لسان منظوم ومنثور، لا ميدان بيان وتفسير، أورد الأخبار والأشعار لا أفكّ معمّاها، في شيء من لفظها ولا معناها؛ لكن ربما ألممت ببعض القول، بين ذكر أجريه، ووجه عذر أريه؛ لا سيما أنواع البديع ذي المحاسن، الذي هو قيّم الأشعار وقوامها، وبه يعرف تفاضلها وتباينها؛ فلا بدّ أن نشير إليه، وننبّه عليه؛ ونكل الأمر في كلّ ما نثبته، ونردّ الحكم في كلّ ما نورده، إلى نقد النقدة المهرة، وتمييز الكتبة الشعرة، الذين هم رؤساء الكلام، وصيارفة النثار والنظام؛ فأمّا من رين على قلبه، وطبع بالجهل على لبّه، فقد وضعت عنّا وعنه، كلفة الاعتذار منه. وقد كان في وقتي من فرسان هذا الشان، من كان أجدر أن يجري بهذا الميدان، ويعرب عمّا أعربت فيه عن القوم بأفصح لسان، يثير فيه المعاني من مرابضها، وأشد عارضة يظهر بها الأغراض المقصودة في أجمل معارضها؛ لكنّي بما أقدمت عليه، وتصدّيت إليه، كالنسيم دلّ على الصبح، والسهم ناب عن الرمح؛ ولا أقول إنّي أغربت، لكن ربّما بيّنت وأعربت؛ ولا أّدعي أنّي اخترعت، ولكنّي لعلّي قد أحسنت حيث اتّبعت، وأتقنت ما جمعت، وتألّفت عنن الشارد، وأغنيت عن الغائب بالشاهد؛ وتغلغلت بقارئه بين النظم والنثر، تغلغل الماء أثناء النور والزهر؛ وانتقلت من الجدّ إلى الهزل، انتقال الضحيان من الشمس إلى الظلّ، واستراحة البهير من الحزن إلى السهل؛ وتخلّلت ما ضممته من الرسائل والأشعار، بما اتّصلت به أو قيلت فيه من الوقائع والأخبار؛ واعتمدت المئة الخامسة من الهجرة فشرحت بعض محنها، وجلوت وجوه فتنها، ولخّصت القول بين قبيحها وحسنها؛ وأحصيت علل استيلاء طوائف الروم، على هذا الإقليم، وألمعت الأسباب التي دعت ملوكها إلى خلعهم، واجتثاث أصلهم وفرعهم؛ وعبّرت عن أكثر ذلك، بلفظ يتتبّع الهمّ بين الجونح، ويحلّ العصم سهل الأباطح

وعوّلت في معظم ذلك على تاريخ أبي مروان بن حيان، فأوردت فصوله ونقلت جمله وتفاصيله؛ فإذا أعوزني كلامه، وعزّني سرده ونظامه، عكفت على طللي البائد، وضربت في حديدي البارد؛ على حفظ قد تشعّب، وحظٍّ من الدنيا قد ذهب.

ومع أنّ الشعر لم أرضه مركباً، ولا اتخذته مكسباً، ولا ألفته مثوى ولا منقلباً؛ إنّما زرته لماماً، ولمحته تهمّماً لا اهتماماً؛ رغبةً بعزّ نفسي عن ذلّه، وترفيعاً لموطئ أخمصي عن محلّه؛ فإذا شعشعت راحه، ودأبت أقداحه، لم أذقه إلّا شميماً، ولا كنت إلّا على الحديث نديماً؛ وما لي وله، وإنّما أكثره خدعة محتال، وخلعة مختال؛ جدّه تمويه وتخييل، وهزله تدليه وتضليل؛ وحقائق العلوم، أولى بنا من أباطيل المنثور والمنظوم؛ وعلى ذلك فقد وعدت أن ألمع في هذا المجموع، بلمع من ذكر البديع؛ وأن أمهّد جانباً من أسبابه، وأشرح جملاً من أسمائه وألقابه؛ وإذا ظفرت بمعنى حسن، أو وقفت على لفظ مستحسن؛ ذكرت من سبق إليه، وأشرت إلى من نقص عنه أو زاد عليه؛ ولست أقول: أخذ هذا من هذا قولاً مطلقاً، فقد تتوارد الخواطر، ويقع الحافر حيث الحافر؛ إذ الشعر ميدان، والشعراء فرسان.

وعلم الله تعالى أنّ هذا الكتاب لم يصدر إلّا عن صدر مكلوم الأحناء، وفكر خامد الذكاء، بين دهر متلّون تلّون الحرباء؛ لانتباذي كان من شنترين قاصية الغرب، مفلول الغرب، مروّع السرب؛ بعد أن استنفد الطريف والتلاد، وأتى على الظاهر والباطن النفاد، بتواتر طوائف الروم، علينا في عقر ذلك الإقليم؛ وقد كنا غنينا هنالك بكرم الانتساب، عن سوء الاكتساب، واجتزأنا بمذخور العتاد، عن التقلّب في البلاد؛ إلى أن نثر علينا الروم ذلك النظام، ولو ترك القطا ليلاً لنام؛ وحين اشتد الهول هنالك، اقتحمت بمن معي المسالك؛ على مهامه تكذب فيها العين الأذن، وتستشعر فيها المحن:

مهامه لم تصحب بها الذئب نفسه ولا حملت فيها الغراب قوادمه

حتّى خلصت خلوص الزبرقان من سراره، وفزت فوز القدح عند قماره؛ فوصلت حمص بنفسٍ قد تقطعت شعاعاً، وذهب أكثرها التياعاً؛ وليتني عشت منها بالذي فضلا! فتغرّبت بها سنوات أتبوّأ منها ظلّ الغمامة، وأعيا بالتحوّل عنها عيّ الحمامة؛ ولا أنس إلّا

الانفراد، ولا تبلّغ إلّا بفضلة الزاد؛ والأدب بها أقلّ من الوفاء، حامله أضيع من قمر الشتاء؛ وقيمة كلّ أحد ماله، وأسوة كلّ بلد جهّاله؛ حسب المرء أن يسلم وفره، وإن ثلم قدره، وأن تكثر فضّته وذهبه، وإن قلّ دينه وحسبه. وهذا الديوان نيّة لم يفصح عنها قول ولا عمل، وأمنيّة لم يكن منها حول ولا حول؛ كامن بين العيان والخبر، كمون النار في الحجر، وجار بين اللسان والقلب، جري الماء في الغصن الرطب؛ إلى أن طلع على أرضها شهاب سعدها وتمكينها، وهبّت لها ريح دنياها ودينها، ونفخ فيها روح تأميلها وتأمينها، ملك أملاكها، وجذيل حكّاكها، وأسعد نجوم أفلاكها؛"فلان" ثمال المظلوم، ومال السائل والمحروم؛ ومحيي العلم، ومربع ذويه وحامليه، ومستدعي التأليفات الرائقة فيه؛ جعل الله الدهر أقصى أيّامه، والنجوم مراكز أعلامه، والأرض نهبة سيوفه وأقلامه؛ فحامت عليه أطيارها، وأهلّ إليه حجّاجها وزوّارها، وانتثرت في يديه شموسها وأقمارها؛ من كلّ أشعث ذي طمرين، مشنوء الأثر والعين، محروم محسود، محلّأ عن طريق الماء مطرود؛ قد جعلوا بيوتهم قبوراً، واتّخذوا بنات أفكارهم ولداناً وحوراً، وركبوا الحدثان صعباً وذلولاً، وعاهدوا الحرمان ليبلونّه صبراً جميلاً ﴿فمنهم من قضى نحبه ومنهم من ينتظر وما بدّلوا تبديلا﴾فما هو إلّا أن سطع لهم هذا الشهاب، وفتح بينهم وبين روح الله ذلك الباب، حتّى نفروا خفافاً وثقالاً، وابتدروا بطاءً وعجالاً؛ ينظرون بعيون لم ترو من ماء وجه كريم، ويصغون بآذان لم تأنس بنغمة صديق حميم؛ قد كانوا يئسوا من هذا النشور ﴿كما يئس الكفار من أصحاب القبور﴾ فاسألهم أيّ جانب يمّموا، وبأي جناب خيّموا، وإلى أي ملك لبابٍ أنجدوا وأتهموا؛ ويا رحمتا لبحور أدب، وصدور رتب، كان نظمني وإيّاهم ودّ قديم، ولفّ هواي بهواهم عهد كريم، لا منسيّ ولا مذموم؛ قد طال ما عاطيتهم أكؤس الخمول، على البكاء والعويل؛ في أيّام أوحش من توديع الشباب، وليال أنكد من مناقشة الحساب؛ ألا يكونوا قد أخذوا على القضاء عهداً مسؤولاً، ومتّعوا بالبقاء ولو قليلاً؛ حتّى يروا حظّ الأدب كيف نفق، وعزّ الإسلام كيف اتّفق، وشمل الجور كيف تصدّع وتفرّق؛ ويا حسرتا ألّا ينشقّ عن حاتم ضريحه، ويعاد في جسمه روحه؛ فيرى أنّ الكرم بعده علم، وأنّ علوّ الهمم بغيره بدئ وختم.

ولمّا سمعت صوت المهيب، وتنسّمت ريح الفرج القريب، ووجدت لسبيل التأمّل مدرجاً، وجعل الله لي من ربقة الخمول مخرجاً؛ طالعت حضرته المقدّسة بهذا الكتاب على حكمه، مطرّزاً بسمته واسمه؛ مستدلّاً بمجده، متوسّلاً إليه بكرم عهده؛ ولعلمي أنّ الأدب ضالّة اهتباله، ونتيجة خلاله، وأنّ أهله على ذكر من إجماله، وبمكان مكين من كماله؛ ولمّا سئلت أيضاً انتساخ هذا الديوان، ورأيت شره أهل الزمان، إلى الاقتباس من نوره، بما يلتقطونه من شذوره، أحببت أن يجوب الآفاق، وتسير به الرفاق، وعليه من اسم من له جمع، وإلى جوانبه العليّة رفع، طراز به تنفق سوقه، ولا تضيع إن شاء الله حقوقه.

وقسمته أربعة أقسام؛ الأول: لأهل حضرة قرطبة وما يصاقبها من بلاد موسطة الأندلس ....وإنّما ذكرت هؤلاء ائتساء بأبي منصور، في تأليفه المشهور، المترجم بـ "يتيمة الدهر، في محاسن أهل العصر".

وتحرّيت في الجملة حرّ النظام،وتخيرت جيّد الكلام،وجرّدت جملة الفصول والأقسام وإذا مرّ معنى غريب وتعلّق به خبر مشهور، وأمكنني فيه شعر كثير، مددت أطنابه، ووصلت أسبابه؛ وقد أذكر الشاعر الخامل، وأنشد الشعر النازل، لأربٍ يتعلّق به، أو لخبرٍ أذكره بسببه؛ وقد أذكر الرجل لنباهة ذكره، لا لجودة شعره؛ وأقدّم الآخر لاشتهار إحسانه، مع تأخّر زمانه.

وبدأت بذكر الكتّاب، إذ هم صدور في أهل الآداب، إلّا أن يكون له حظّ من الرياسة، أو يدعو إلى تقديمه بعض السياسة؛ فأوّل من ذكرت من أهل قرطبة من كان بها من ملوك قريش في المدّة المؤرّخة من أهل هذا الشأن ثمّ من تعلّق بسلطانهم، أو دخل في شيءٍ من شانهم؛ وتلوتهم بالكتّاب والوزراء، ثمّ بأعيان الشعراء، ثمّ بطوائف من المقلّين منهم. وكذلك فعلت في كلّ قسم: بدأت بالملوك، ثمّ أستمر على ما وصفته من الترتيب، وأنتظم على ما شرحت من التبويب، وعلى الله أتوكّل، وهو حسبي فيما أقول وأفعل، لا إله سواه»[1].

---

١ – **الذخيرة في محاسن أهل هذه الجزيرة: ١/١/١١-٢٢. ٣٢.**

تحليل مقدّمة خطبة الذخيرة لابن بسّام

أولاً: مستوى المضمون

هذا النصّ خطابٌ أدبيٌّ بلاغيٌّ إبلاغي.

النصّ: (بسم الله الرحمن الرحيم

قال أبو الحسن علي بن بسّام الشنتريني الأندلسي، رحمه الله)

بدأ الكتاب بالبسملة في صيغتها القرآنيّة المعتادة، ثمّ نجد عبارة نقل القول عن ابن بسّام والترحّم عليه، وهي من ناسخ الكتاب من دون شكّ، إذ ليس من المعقول أن يقول المرء عن نفسه قال فلان، ولا يمكن كذلك أن يترحّم على نفسه بهذه الصيغة، ممّا يجعل البسملة عائدة على الناسخ وليس على ابن بسّام، ولكنّ البسملة جزء أساسيّ مهمّ من الخطاب الإسلامي، يفتتح بها الكلام لقول النبيّ صلّى الله عليه وسلّم:«كُلُّ كَلَامٍ لَا يُبْدَأُ فِي أَوَّلِهِ بِذِكْرِ اللهِ، فَهُوَ أَبْتَرُ»[1]، وكلام ابن بسّام من الجدّ ذي القيمة، ومن ثمّ فلا بدّ له أن يبدأ بالبسملة. ولعلّ الناسخ دمج البسملتين معاً في نسخه لافتتاح هذه الخطبة، وجعلهما لقربهما بسملة واحدة، اقتصر عليها، وبدأ بها نسخه للكتاب.

ولم تكن بداية ابن بسّام بداية عادية بحمد الله جلّ ثناؤه، والصلاة على رسوله الأعظم صلّى الله عليه وسلّم،بالطريقة المعهودة بل غيّر صيغة الحمدلة، فلم يستفتح بلفظة "الحمد" فيقول الحمد لله وليّ الحمد، بل بدأ بأداة فصل الخطاب "أمّا بعدُ" الظرف المبنيّ على الضمّ لحذف المضاف إليه، وفكَّ بناءها على الضمّ، بإضافتها إلى الحمد، لتغدو منصوبة مفتوحة (أمَّا بعدَ حمدِ اللهِ وليِّ الحمدِ وأهله..) ممّا يدلّ على رغبته في الدخول إلى غرضه الرئيس مباشرة، وتسرّعه في ذلك، ويؤكّد ذلك قصر الحمدلة، إذ لا تزيد على عبارة واحدة فقط (حمد الله وليّ الحمد وأهله).

١- الحديث في السنن الكبرى للنسائي: رقم الحديث: ١٠٢٥٨، وهو بصيغ متقاربة في عدد من كتب الحديث النبوي: في مسند أحمد ٨٧١٢، سنن أبي داود: ٤٨٤٠، مصنف ابن أبي شيبة:٢٦٦٨٣

والحمد هو الثناء والشكر لمن هو أهل له، وقيل إنّ الحمد"أعمّ من الشكر لأنّه يكون عن يد وعن غير يد" أي يكون بمقابل صنيع أو من دون مقابل، أمّا "الشكر فلا يكون إلّا في مقابلة الصنيع، فلا يقال شكرته على شجاعته... ويكون في الحمد معنى التعظيم للممدوح وخضوع المادح"[1].

والحمد في اللغة يشمل الثناء لكلّ شيء مستحقّ للثناء، ومن ثمّ خصّصت لفظة الحمد لله وحده، كما في الفاتحة ﴿الحمدُ للهِ ربّ العالمين﴾، وبعد الركوع في الصلاة "ربّنا لك الحمد"، ومن ذلك شعار دولة الموحّدين"الحمد لله وحده".

الله: لفظ الجلالة المفخّم تعظيماً، ويرقّق إذا كان ما قبله مكسوراً، ثمّ أردف بصفة خاصّة لله تعالى، فلم ينتق من صفات الله سبحانه وأسمائه القاهر الجبّار الوهّاب ولا الرحيم الودود الرؤوف، وإنّما اختار اسم الوليّ ليصف الله عز وجل وليضيفه إلى الحمد كذلك (وليّ الحمد وأهله).

والوليّ –لغة– الذي يلي عليك أمرك ويقوم به، ومنه أولية جمع أولياء الأمور، "الوليّ فعيل بمعنى فاعل، من وليه: إذا قام به، ومنه﴿واللهُ وليُّ الذينَ آمنوا﴾ والجمع أولياء، قال ابن فارس: كلّ من ولي أمر أحد فهو وليّه"[2].

ثم أضاف لفظة وليّ إلى الحمد فغدت العبارة: (وليّ الحمد)، أي إنّ ولاية الحمد هي لله تعالى، (وليّ الحمد وأهله)، فهو–سبحانه– أهله، وأهل له وحده، وهو المستأثر بالحمد وحده، وتقتصر الحمدلة على هذه الجملة فحسب.

ثمّ يصلّي على سيّدنا محمّد صلّى الله عليه وسلّم بجملة واحدة كذلك (والصلاة على سيّدنا محمّد خاتم رسله)، واختار من صفات النبوّة صفة واحدة، وهي أنَّه آخر الرسل، ونحن لا نعلم لمَ انتقى هذه الصفة (خاتم الرسل) من دون غيرها، ولعلّه جاء بهذه اللفظة

---

١ – المصباح المنير: ح م د.

٢ – المصباح المنير: و ل ي.

من أجل السجع، (أهله... رسله)، وهو لم يستكمل توابع الصلاة على الرسول الأعظم، فلم يترضّ عن الآل الأطهار والصحابة الأبرار؛ ممّا يدلّ على استعجاله الشديد.

أمّا بعد هذه الحمدلة والصلاة على رسول الله صلّى الله عليه وسلّم فإنّ المؤلّف انتقل مباشرة إلى موضوعه الرئيس (فإنّ ثمرة هذا الأدب): الفاء هنا رابطة لـ(أمّا) ويغفلها كثيرون، وهي واجبة، و(إنّ) للتوكيد، و(ثمرة) اسم إنّ، و(هذا) اسم إشارة للقريب. و(الأدب) هنا الشعر والنثر، (العالي الرتب): هناك أدب شعبي، وأدب عالي القيمة. وخبر إنّ: (رسالة تُنْثر وتُرسَل، وأبياتٌ تُنظم وتُفصل).

لم يقل ابن بسّام: إنَّ الأدب بذرة تغرس وتسقى وتنمو وتشتدّ، ولم يذكر مراحل تطورها ونموّها حتّى تزهر وتثمر، ولم يقل إنّ الأدب ثمرة بشكل مباشر، بل تحدّث عن ثمرة الأدب، أي الشيء المفيد والطيّب منه، وهي صورة فنّيّة تعبّر عن أسلوب ابن بسّام المميّز الذي يعتمد على التصوير في إيصال المعنى وتجميله. وتعبّر بصفة عامّة عن السمات الأندلسيّة في التشخيص والخيال، وهذا أمرٌ يشترك به المشرق والمغرب. ولكنّ ما يميّز الأندلسيّين من غيرهم هو التصوير بعناصر الطبيعة.

واسم الإشارة (هذا) الخاصّ بالقريب يشير إلى أدبٍ قريب من قلبه ومن مكانه، وهو أدب بلده الأندلس. وسنرى أنّ ابن بسّام يكثر من استخدام أسماء الإشارة، ويحسن استخدامها، ويوظّفها توظيفاً جيّداً.

والأدب الذي بين يديه (عالي الرتب)، أي إنّه ينحّي كلّ أدبٍ ساقطٍ هابط. وكلُّ أدبٍ لا يكون جيداً فنّيّاً فهو لا يعدُّ في مرتبة الفنّ المستحقّ للبقاء برأيه، فهو ينحّي الأدب العامّيّ الشعبيّ كالزجل، وينحّي-كذلك- الأشكال الجديدة الأقرب إلى الشعبيّة في الأدب الفصيح كالموشّحات، حتّى إنّه عندما يذكر شيئاً من تاريخ الموشّحات فإنّه لا يورد شيئاً منها. إذًا ثمرة الأدب الراقي هي (رسالة تنثر وترسل، وأبيات تنظم وتفصل)، وهو أوّلاً قدّم النثر على الشعر، وانتقى أهمّ فنّ من فنون النثر قاطبة؛ وهو الرسالة التي تنقسم أقساماً متعدّدة ؛ الرسالة الديوانيّة، والإخوانيّة، والأدبيّة، والنقديّة.

فالثمرة الأولى هي الرسالة، وهذه الرسالة (تنثر)، ونَثَر ونَثِر الكلامَ أكثرَه، وقال الزمخشري:رجل نَثِرٌ أي حسن الكلام، وفي لسان العرب: ورجلٌ نَثِرٌ بَيِّنُ النَّثَرِ كثيرُ الكلام. والنثر: الكلام المرسل بلا وزن ولا قافية. ويقال كلامه كالدرّ المنثور، ونثر الحَبَّ: رمى به متفرّقاً وهذه الرسالة تنثر فلا تلتزم بوزن أو قافية، وتبعث إلى المرسل إليه لتؤدّي وظيفتها.

والثمرة الثانية هي القصائد ولكنّه عبّر عنها بقوله: (أبيات)، ولم يقل إنّها قصائد، وكأنّه أراد أن يقلّل من قيمة الشعر، وهذه الأبيات (تنظم): أي تؤلّف وتجمع في سلك، كما يجمع اللؤلؤ في عقد، (وتُفْصَل)- كما ضبطها محقّق الكتاب-:أي توضع بين كلّ لؤلؤتين خرزة في العقد، قال الفيروزآبادي: "الفاصِلَةُ: الخَرَزَةُ تَفْصِلُ بين الخَرَزَتَيْنِ في النِّظامِ. وقد فَصَلَ النَّظْمَ". وصحّح الزبيدي قوله: "والصَّحِيح وقد فَصَّلَ بالتشديدِ، فإنّ الجَوْهَرِيّ قال بعدَه: وعِقدٌ مُفَصَّلٌ، أي جُعِلَ بينَ كلِّ لؤلؤتينِ خَرَزَة"، وعلى ذلك فإنّه من الأفضل أن تقرأ (تفصّل). وإن كانت بالتخفيف تُفْصَل، فهي تدلّ على الحجز والتفريق والتفكّك، فتستطيع أن تفصل أيّ بيت من الأبيات عمّا سبقه، أو تلاه.

(تنثالُ تلك انثيال القطار):(تنثال) تنصبّ (تلك) اسم إشارة للبعيد، وهي عائدة على الرسائل، ونلحظ توظيفه أسماء الإشارة بدقّة.

(انثيال القِطار، على صفحات الأزهار): أي مثل انصباب المطر برقّة على عرض الزهر أو جانبه، وانثيال لفظة تدلّ على الرقّة والرفق والعذوبة، ويقصد بالأزهار هنا المتلقّي فالرسائل النثريّة بمنزلة المطر الذي ينهمر للنبات وللإنسان.

(وتتّصل هذه اتّصال القلائد، على نحور الخرائد)(هذه) اسم إشارة للقريب، وهي عائدة على الأبيات: أي كلّ بيت من الشعر يتّصل بما بعده، كما تتّصل حبّات اللؤلؤ في أطواق الفتيات العازبات الخفرات الحييّات المستترات.

وهنا يؤكد كلامه في اهتمامه بالنثر أكثر من الشعر، وتفضيله النثر على الشعر، فحاجة الإنسان إلى النثر كحاجة الأزهار إلى ماء الأمطار، وهي حاجة ماسّة فلا تعيش من دونه، فقيمته عليا زيادة على قيمته الجماليّة. أمّا حاجة الإنسان إلى الشعر فهي

كحاجة الفتيات إلى العقود ليتجمّلن بها فقيمته تجميليّة فحسب، فقد تزداد الفتاة المتوسّطة الجمال بالعقد درجات في الجمال، ولكنّ الجميلة الغانية مستغنية عن القلائد، والقلائد قد تُفصَل حبّاتها، فهي ليست أشياء مهمّة لدى الرجال، وهي ليست أموراً رئيسة عند النساء الغواني، فالغانية تستغني بجمالها عن التزيّن بها.

(وما زال في أفقنا هذا الأندلسيّ القصيّ، إلى وقتنا هذا من فرسان الفنّيّن): (ومازال): أي إنَّ الأمر الذي يتحدّث عنه كان قديماً، وهو مستمرّ.(في أفقنا): "الأفق: الناحية، والأفُق: ما ظهرَ من نَواحي الفَلَك وأَطْراف الأرْضِ"[1] و(نا) الجماعة تعود إلى ابن بسّام والأندلسيّين الذين يتحدّث باسمهم، فقد نسب الأندلس إلى الأندلسيّين الذي هو واحد منهم، وجعلها أفقاً له ولهم.(هذا الأندلسيّ القصيّ): استخدم اسم الإشارة للقريب (هذا) إشارة إلى القرب المكاني فهو في الأندلس، والقرب القلبي فهي قريبة من قلبه بل هي في قلبه وهو يحبّها حبّاً جمّاً، (الأندلسيّ):بدل من أفقنا، وذكر الأندلس بلفظها تلذّذاً باسمها مع ياء النسبة، ثمّ يصفها بوصف يظنّ أوّل وهلة أنّه غير مناسب وهو (القصيّ): البعيد من المشرق، أي بعيد من منبع الثقافة الإسلاميّة.

(إلى وقتنا هذا): أي إلى نهاية القرن الخامس وبداية القرن السادس، أو زمن بداية تأليف الكتاب (٤٩٣هـ) في عصر المرابطين.. أي إنَّ بلده الأندلس مع مروره بالحروب والفتن، وتطاول الزمن عليه، وبعده من مراكز العلوم العربية فإنّه مازال يحتوي (من فرسان الفنّين): هم فرسان الفنّين معاً: والفنّان هما الشعر والنثر، و(فرسان): من الألفاظ الدالّة على العمق الزماني السحيق ومنذ العصر الجاهليّ فالإسلاميّ، وتدلّ على الموروث الثقافي، أي على الأصالة والموروث.

(وأئمّة النوعين)والأئمّة جمع إمام وهو"الذي يُقْتَدى به، وإمامُ كلِّ شيء قَيِّمُهُ والمُصْلِح له والقرآنُ إمامُ المُسلمين، وسَيّدُنا محمّد رسول الله صلّى الله عليه وسلّم إمام

---

١ – **تاج العروس: أ ف ق**

الأَئِمَّة، والخليفة إمام الرَّعِيَّةِ، وإِمامُ الجُنْد قائدهم"[1]، وتحمل هذه اللفظة سمة دينيّة ودنيويّة، "الإمام الذي له الرياسة العامّة في الدين والدنيا جميعاً"[2] وقال المناوي"قالوا الإمام الخليفة والعالم المقتدى به ومن يؤتمّ به في الصلاة"[3]. فلفظة الإمام صار لها في الإسلام دلالة دينيّة رفيعة. وتدلّ على الاحترام الديني والتوقير والتقدير.

(النوعين) لفظة تدلّ على الشعر والنثر، وهنا توضيح للفنّين.

(قوم هم ما هم): وكلمة (قوم) تدلّ على الرجال، أي مازال لدينا على بعدنا الزمني والمكاني رجال عظام، أي لأهل الأندلس من فرسان الأدب وأئمّة الكثير.

و(هم ما هم) من التعابير القديمة الموروثة التي تدلّ على التعظيم والتعجّب والفخر (طيب مكاسر) ويقال: فلان طَيِّبُ المِكْسِرِ إذا كان محموداً عند الخِبْرَةِ، ومِكْسِرُ كلّ شيء أَصله والمِكْسِرُ المِخْبَرُ"[4].

(وصفاء جواهر) قال ابن منظور: "وجَوْهَرُ كُلِّ شيء ما خُلِقَتْ عليه جِبِلَّتُه"[5] .

(وعذوبة موارد ومصادر) والمورد الذهاب إلى الماء، والماء نفسه، والمصدر: عكسه رجوع الوارد بعد شربه من الماء العذب الحلو، وعذوبة مصادر ومراجع أي هم ولّاجون وخرّاجون أي قادرون على فنون الأدب .

(لعبوا بأطراف الكلام المشقّق، لعب الدجى بجفون المؤرّق): الجملة صفة لقوم، أي لمبدعي الأندلس. و(الكلام المشقّق) هو الكلام الذي خرج من أحسن مخرج. ولعبوا بأطراف الكلام المشقّق من قول المتنبّي:

ضـــروبٌ بـــأطرافِ السُّـــيوفِ بنانُـــهُ لعـــوبٌ بـــأطرافِ الكـــلامِ المشـــقَّقِ

---

١ – لسان العرب: أ م م

٢ – التعريفات :٥٣

٣ – التوقيف على مهمات التعاريف: ٩٠

٤ – لسان العرب: ك س ر

٥ – لسان العرب: ج هـ ر

ولعبوا بأطراف الكلام:أي إنّ الأدب صار سهلاً عندهم، طيّعاً في أيديهم يلعبون به كما يلعبون بالسيوف، ولم يقتصر على الصورة المضمّنة بل أضاف إليها صورة جديدة خياليّة، توضّح اقتدار قومه على صنع الكلام. فهم قد لعبوا بأطراف الكلام كما يلعب الظلام بجفون المؤرّق باقتدار، فلا يستطيع أن ينام، ويتقلّب على فراشه، ولا ينطبق جفناه، فيشعر أنَّ الليل طويل ثقيل لا يتزحزح.

ويكرّر معنى اقتدار الأندلسيّين وتفوّقهم بصورة ثانية كعادته؛(وحدوا بفنون السحر المنمق): (وحدوا) حداه أو حدا به، والحُداء في الأصل غناء للإبل لسوقها وحثّها على السير، أي هي من المفردات الصحراويّة القديمة. ولكنّ الحداء هنا لفنون السحر، والسحر هو الفعل الخارق للعادة. وعنى بفنون السحر أنماط الشعر، فلم يعد الشعر الأندلسي شعراً بل أصبح سحراً، فقد انتقل إلى درجة أعلى، فهو لا يريد أن يتحدّث عن الشعر بل عن الشعر الخارق كالسحر والمؤثّر تأثير السحر.

ووصفه بالمنمّق: المزيّن الأنيق، وهذه من صفات الأندلسيّين في المأكل والمشرب والملبس، فقد كان الأندلسيّون يتنوّقون في لباسهم، ويبالغون في التنوّق والتأنّق، وكانوا يهتمّون بلباسهم ونظافتهم وأناقتهم كثيراً. أي إنّهم يغنّون بفنون الشعر المزيّن الأنيق، وهي صفة تعطي وظيفة دلاليّة جماليّة، فهو ليس سحراً فحسب، بل سحر مزيّن منمّق. ومعنى ذلك كلّه أنّهم غنّوا للشعر فأجادوه، وحقّقوا الأثر المطلوب منه.ك(حداء الأعشى ببنات المحلّق): أي مثلما حدا الأعشى بشعره (ببنات المحلِّق)، وتحيلنا هذه الصورة الإشاريّة إلى قصّة جاهليّة قديمة، وهي أنّه كان للمحلِّق بنات أوانس عوانس، وعندما أتى إليه الأعشى أكرمه فمدحه بقصيدة ذكر فيه أنّهم كرام ويتحلّقون حول النار[1]:

لعمــريَ قــد لاحــت عيــون كثــيرة ... إلى ضـــوء نـــار باليفـــاع تحـــرّق

تشـــبّ لمقـــورين يصـــطليانها ... وبــات علــى النــار النــدى والمحلِّــق

١- **العمدة في محاسن الشعر وآدابه:١/ ٤٩**

واشتهرت هذه القصيدة وانتشرت انتشار النار في الهشيم، فلم يمض زمن يسير إلّا وقد تزوجت بناته كلّهن.

أي إنّ الأندلسيّين استفادوا من التاريخ والموروث الثقافي الشعري استفادة ذكيّة ونجحوا في توظيفه في أشعارهم وتألّقوا في إبداعهم.

ويكرّر معنى إبداع الأندلسيّين في صورة جديدة وخيال واسع، فقال: (فصبّوا على قوالب النجوم غرائب المنثور والمنظوم): لفظة القوالب تدلّ على صناعة الحديد ونحوه، أي إن كان الحرفي يصبّ ما يريد صنعه في قوالب؛ فهم كذلك يصبّون ألفاظهم ومعانيهم ولكن في قوالب جديدة عجيبة؛ إنّها النجوم، ليغدو إبداعهم لامعاً رائعاً، بعيد المنال كالنجوم، ولكنّهم لايصبّون الشعر والنثر العاديّين بل يصبّون غرائبهما، والغريب مفهوم أندلسي لا يدلّ على الوحشيّ والحوشيّ من اللفظ بل يدلّ على المتميّز والرفيع والمتفرّد والعالي الدرجة، فالأندلسيّون يحدون الأدب سحراً وغرائب، وقدّم المنثور على المنظوم، (وباهوا غرر الضحى والأصائل، بعجائب الأشعار والرسائل) فالأندلسيّون تركوا مباهاة المشارقة والمغاربة ليباهوا بعض العناصر الكونيّة الزمانيّة، فهم يفاخرون"الضحى: ويستعمل مفرداً، وهو من حين تشرق الشمس إلى أن يمتدّ النهار وتنبسط الشمس ويصفو ضوؤها" ويبارون (الأصائل): جمع أصيل: "وهو ما بعد العصر إلى الغروب" [1] في إشراقها، والغرر جمع غرّة وهي بياض في الجبهة أو في جبهة الفرس،أو هي في الفرس خاصّة، ليشخّص الضحى والأصائل تشخيصاً حيوانيّاً فتغدو خيولاً يتبارى معها، وهذه المباراة إنّما هي بعجائب الأشعار والرسائل، وليس بالأشعار والرسائل فحسب، والعجائب أيضاً من المفهومات النقديّة الأندلسيّة كالغرائب، وتدلّ على التميّز والتفرّد والإبداع، وهو هنا –أوّل مرّة– يقدّم الشعر على النثر، وإنّما كان ذلك لأجل السجع، ثمّ يعود ليقدّم النثر كعادته (نثر لو رآه البديع لنسي اسمه) والبديع لفظة موفّقة جدّاً، فالبديع هو بديع الزمان الهمذاني؛ صاحب المقامات والأسلوب المسجّع، الذي شاع كثيراً في عصر ابن بسّام

١– التوقيف على مهمات التعاريف: ٦٩

ومصره، لو رآه البديع، ولو: أداة امتناع لامتناع، فلا يمكن أن يراه البديع الذي توّفي سنة (٣٩٨هـ) أي قبل كتابة الذخيرة بنحو قرن من الزمان، ونتيجة هذه الرؤية المستحيلة هي (لنسي اسمه) أي لنسي البديع اسمه، وهي تورية لها معنيان، الأوّل: لنسي اسمه الحقيقي لروعة هذا النثر وهوله، والثاني: لنسي فنّ البديع، وهو أحد علوم البيان الثلاثة، علم البلاغة، وعلم المعاني وعلم البديع، أي لعاد بديعه غير بديع، بالموازنة ببدائع الأندلسيّين.

(أو اجتلاه ابن هلال لولّاه حكمه) "اجتلى الشيء: نظر إليه وتأمّل وتبصّر وأمعن النظر فيه"[١].

(ونظم لو سمعه كثيّر ما نسب ولا مدح)، وبعد النثر يأتي الشعر، شعر الأندلسيّين الفائق الذي يذهل الشعراء المشرقيّين عن أشعارهم عندما يسمعون أشعار الأندلسيّين، وقد انتقى ابن بسّام شاعراً أمويّاً مبرّزاً، ولكنّه ليس أعظم الشعراء المشرقيّين، ولا يصل إلى مستوى عظماء الشعراء العباسيّين، وذلك ليكون كلام ابن بسّام في حيّز القبول، ولا يعترض عليه، فلو سمع كثيّر شعر الأندلسيّين لترك الشعر، وتخلّى عن أهمّ غرضين من أغراضه وهما المديح والغزل، مستفيداً ممّا يعرفه من الأخبار عن الشاعر، فقد قال ابن قتيبة: "قيل لكُثَيِّر: ما بَقِيَ من شِعرك. فقال: ماتت عَزّة فما أطرب، وذهب الشبابُ فما أعْجَب، ومات ابن لَيْلَى فما أرغب –يعني عبدَ العزيز بن مَرْوان– وإنّما الشعر بهذه الخِلال"[٢].

(أو تتبّعه جرول ما عوى ولا نبح) ولو تتبّعه الحطيئة جرول بن أوس العبسي، وقد ذكره باسمه الحقيقي ولم يذكره بلقبه الذي اشتهر به وهو الحطيئة، ليورّي به، فجرول من أسماء والسباع والكلاب، أي إذا تتبّع جرول الشعرَ الأندلسيَّ وتطلّبه شيئاً فشيئاً في مهلة فإنّه لا يجد فيه ما ينتقد فلا يعوي كالسباع ولا ينبح عليه كالكلاب، لقد انتقى ابن بسّام اسماً ذكيّاً وحارّاً ليسخر من الشعراء المشارقة سخرية شديدة، ويزري بهم، ويقلّل من شأنهم، ولم

١- تكملة المعاجم العربية:٢/ ٢٦٠

٢- عيون الأخبار:٢/٢٠٠

يعد الأمر مجرّد ادّعاء بالمساواة بالمشرق، أوالتميّز منهم، أو التفوّق عليهم، بل وصل إلى درجة الإزراء عليهم، والحطّ من أقدارهم.

وبعد أن أثنى ابن بسّام على الأدباء الأندلسيّين وأشاد بهم زمنيّاً ومكانيّاً وكونيّاً، أيّما إشادة قام بعتابهم عتاباً شديداً، (إلّا أنّ أهل هذا الأفق، أبوا إلّا متابعة أهل الشرق)، ولم يشأ أن يقول أهل هذا الأفق الأندلسي كما قال من قبل (في أفقنا هذا الأندلسي) لأنّه في موقف العتاب لا الفخر والإعجاب، في القول السابق، فهولاء الأندلسيّون على تميّزهم وإبداعهم وتفوّقهم على أهل المشرق -كما يزعم- فإنّهم يكرهون ويمتنعون عن أدب بلادهم، ولا يرضون إلّا باتّباع أهل الشرق، فهم (يرجعون إلى أخبارهم المعتادة، رجوع الحديث إلى قتادة)؛ فهم يهتمّون بأخبار المشرق المكرّرة على نهج واحد والمعتادة وفي رواية أخبارهم(المعادة) مرّة بعد مرّة، كما يرجع الحديث إلى قتادة بن دعامة السدوسي و"كان حافظ عصره وهو مشهور بالتدليس وصفه به النسائي"[1]، وسرده العلائي في أسماء المدلّسين وقال: "قتادة بن دعامة السدوسي أحد المشهورين بالتدليس"[2] .

فهو كذلك لم ينتق كبار محدّثي المشرق كالبخاري ومسلم ومالك وابن حنبل، بل ذكر قتادة السدوسي ... الذي يجمع الغثّ والسمين.

(حتى لو نعق بتلك الآفاق غراب، أوطنّ بأقصى الشام والعراق ذباب)

فأهل الأندلس يتّبعون أهل المشرق بعجرهم وبجرهم إلى درجة عجيبة، حتّى لو قام -بتلك الآفاق- وتلك للبعيد قلباً ومكاناً، أديب مشرقي ضئيل القيمة، سيئ النتاج، وجعله غراباً -بصيغة التنكير- ينعب ويصيح بصوته المزعج، أي قبيح الشكل والمضمون، وهو نذير الشؤم، وقبل أن يأتي بجواب (لو) يكرر المعنى ويصوغه بصورة ثانية أشدّ قبحاً منها، فيجعل الأديب المشرقي مقزّزاً عديم القدر والأثر والتأثير، كطنين ذباب -بصيغة التنكير أيضاً- وهو رمز القذارة ونقل الأمراض، ولكنّه هنا يحدّد ذلك المكان القصيّ بتلك الآفاق

١- تعريف أهل التقديس بمراتب الموصوفين بالتدليس: ٤٣

٢- جامع التحصيل في أحكام المراسيل: ٢٥٤/١

وهو الشام والعراق، وهما مركزا الثقافة والحضارة العربيّة، ولكن ليس وسط الشام والعراق بل أقصى مكان فيهما، ثمّ يأتي جواب هاتين الجملتين بجملتين أيضاً، فلو نعب غراب أو طنّ ذباب في الشرق(لجثوا على هذا صنماً، وتلوا ذلك كتاباً محكماً)؛ وهاتان صورتان الأولى سماتها جاهليّة، والثانية إسلاميّة، وأدوات الإشارة تحدّد أركان الصورة، فهذا للقريب تعود على ذباب، والذباب تقال للمفرد والجمع، أي إذا طنّ ذباب واحد في أقصى الشام والعراق لقعد أهل الأندلس كلهم جثيّاً على الركب يمجّدونه ويعبدونه كالأصنام التي كانت تعبد في جاهلية العرب.

وتلك للبعيد تعود إلى غراب نكرة، أي إذا نعب غرابٌ واحد في المشرق تلا الأندلسيّون جميعهم ذلك الأثر كتاباً محكماً، والقرآن﴿كِتَابٌ أُحْكِمَتْ آيَاتُهُ ثُمَّ فُصِّلَتْ مِنْ لَدُنْ حَكِيمٍ خَبِيرٍ﴾[1] أي كالقرآن، فهم يتلونه كما يتلو المسلمون القرآن.

بينما تظلّ (أخبارهم الباهرة، وأشعارهم السائرة، مرمى القصيّة، ومناخ الرذيّة)، وعبّر عن ذلك بجملتين على طريقة الازدواج بصوررتين قديمتين تحملان قدراً كبيراً من المفارقة الشعوريّة، وجعل أخبار الأندلسيّين في قبالة أشعارهم، وكأنّه يعني بها نثرهم، ووصف هذه الأخبار بأنّها باهرة، أي معجبة، غالبة، وبهر القمر النجوم غمرها بضوئه، ووصف أشعارهم بأنّها سائرة أي شائعة بين الناس لروعتها، ومع ذلك فهي (مرمى القصيّة) أي مهملة في مكان رمي الناقة الرَّذْلَة، (ومناخ الرذيّة) أي مبرك الناقة الضعيفة الْمَهْزُولَةُ مِنَ السَّيْرِ، الَّتِي تُرِكَتْ فِي الطَّرِيقِ لأنّها "لَا تَقْدِرُ أَن تَلْحَق بِالرِّكَابِ"[2]. فالمفارقة تكمن في أنّ هذا الأدب الباهر مهمل، وأنّ أصحاب هذا الأدب أنفسهم لايقدّرون أدبهم النفيس، (لا يعمر بها جنان ولا خلد، ولا يصرّف فيها لسان ولا يد)، فلا القلب عامر بها،ولا هي تجول في البال والخاطر والفكر. ولا هي تدرّس في أماكن العلم، فلا تقلّب باللسان فتقرأ، ولا تخطّ باليد فتكتب وتحفظ.

١- سورة هود: ١

٢- لسان العرب: ر ذ ي

(فغاظني منهم ذلك، وأنفت ممّا هنالك)، الغيظ: أشدّ الغضب، أو سورته وأوّله، أو: الغيظ هو الكمين[1] الذي لا يظهر على ملامح الوجه.

هنا يظهر ابن بسّام أوّل ظهور له بشكل مباشر، ليقرّر غيظه وحنقه على أهل أفقه من ذلك الفعل المشين؛ وهو متابعة أهل الشرق، ويؤكّد أنفته: أي كرهه لذلك الأمر واستنكافه منه وامتناعه عنه استكباراً (ممّا هنالك) أي: ممّا يجري من متابعة أهل الشرق، أو من أهل الشرق أنفسهم. (وأخذت نفسي بجمع ما وجدت من حسنات دهري، وتتبّع محاسن أهل بلدي وعصري)،أخذتُ نفسي أي ألزمتها بجمع ما وجدت وأدركت بنفسي (من حسنات)-بالجمع- (دهري) أي زمني الذي أعيش فيه، وتقصّي (محاسن)-بالجمع- (أهل بلدي وعصري) في الأندلس، وفي ياء الملكية حميميّة واضحة، تظهر في سبب هذا التتبّع والتقصّي لأدب الأندلس.

(غيرةً لهذا الأفق الغريب أن تعود بدوره أهلّة، وتصبح بحاره ثماداً مضمحلّة)؛

فالغَيرة والحميّة هي السبب الرئيس لاهتمامه الشديد بجمع أدب عصره ومصره الذي أشار إليه إشارة القريب(هذا الأفق) والذي وصفه بالغريب، والغريب مرحوم بغربته، فهو منفصل عن جسد الأمّة العربيّة الإسلاميّة، غيرةً...(أن تعود بدوره أهلّة): جمع هلال: أي يدركها المحاق في آخر الشهر، فتتضاءل وتصغر ويقل ضوؤها، أي خشية أن يضيع هذا الأدب ولا يبقى منه إلّا القليل، ويأتي بعبارة أخرى مصوّرة للمعنى نفسه، (وتصبح بحاره ثماداً مضمحلّة) أي تصبح بحار الأندلس ماء قليلاً لا مادّة فيه، كماء الحُفَر، ثمّ يضمحلّ فيذهب ويفنى. أي يتلاشى أكثر هذا الأدب، مع كثرة أدباء الأندلس وعلمائها؛ وهنا أضاف العلم بوصفه قيمة عليا أخرى، يجب الحفاظ عليها.

(وقديماً ضيّعوا العلم وأهله، ويا رُبّ محسن مات إحسانه قبله)؛

١- تاج العروس: غ ي ظ

يشير هنا إلى عدم اهتمام الأندلسيّين الأوائل بتقييد سير علمائهم وأدبائهم وعلومهم وآدابهم، فضاع هذا العلم والأدب، وما أكثر المحسنين من الأدباء الذين مات أدبهم الحسن –وهي صورة تشخيصيّة دالّة– قبل موتهم، بعدم تقييده، أو بعدم إكرام صاحبه.

(وليت شعري من قصر العلم على بعض الزمان، وخصّ أهل المشرق بالإحسان؟).

يأتي بعبارة عربية قديمة (ليت شعري): أي ليتني أعلم، ليقرّر حقيقة بأسلوب إنشائي لا يحتمل التصديق أو التكذيب، فيسأل مستنكراً داحضاً الحجج المكانيّة والزمانيّة المزعومة الواهية، من قصر العلم على زمن محدّد من دون غيره، ومن خصّ أهل المشرق بالإحسان من دون غيرهم من أهل الأماكن الأخرى.

خصائص المعنى:

١. الازدواج: أخبارهم الباهرة، أشعارهم السائرة، مرمى القصيّة، مناخ الرذيّة.
٢. التعبير البلاغي: منذ البداية، إنّ ثمرة...
٣. الطابع الأندلسي في الأزاهير والجواهر: الأزهار، القلائد.
٤. الحماسة: هم ما هم، فغاظني.
٥. التفصيل ثمرة الأدب رسالة، فأبيات، تنثال تلك...وتتّصل هذه، وتعانق المعنى كذلك.
٦. المبالغة: قوالب النجوم، باهوا غرر الضحى.
٧. السخرية: لو رآه البديع لنسي اسمه، ولو اجتلاه ابن هلال لولاه حكمه، نظم لو سمعه كثيّر ما نسب ولا مدح...
٨. التعالي: الأدب العالي الرتب، لأرباب هذا الشان، فرسان، أئمّة... القلائد
٩. المنطقيّة من قصر العلم على بعض الزمان.
١٠. الثنائيات الضدّيّة: نعق غراب، وطنّ ذباب/ لجثوا صنماً وتلوا ذلك كتاباً محكماً

بدور ⟵ أهلّة – بحار ⟵ ثماد

تحليل الشكل

ثانياً: البنية العامّة:

إنّ البنية العامّة للنصّ هي بنية نثريّة وليست شعريّة، وإن كان النصّ لا يخلو من الشعر الذي جاء لخدمة النثر وتقويته.

فهذا النصّ الذي نحلّله هو مقدّمة كتاب تأليفيّ أدبيّ في مجال التراجم والأدب، ذي نزعة نقديّة، هدفه هو جمع آثار الأدباء الأندلسيّين؛ الشعريّة والنثريّة في القرن الخامس الهجري أو كما يقول مؤلِّفه: "هو لسان منظوم ومنثور لا ميدان بيان وتفسير"[1]، وفيه لمحات نقديّة ثاقبة في الصورة الفنّيّة والمحسّنات البلاغيّة التي يسمّيها بـ"البديع ذي المحاسن الذي هو قيّم الأشعار وقوامها"[2]، تدلّ على ثقافة ابن بسّام الموسوعية الأدبية والتاريخية، وبعد أفقها.

لذلك فإنّ هذه المقدّمة هي خطبة كتاب ولكنّها موشّاة بالفنّ الجميل الراقي، وهي ليست قطعة أدبيّة مقصودة لذاتها، ولكنّها بما تحتويه من عناصر أدبيّة فنّيّة تفوق بعض النصوص الأدبيّة المقصودة لذاتها، وتجعلها جديرة بالتحليل والتدبّر، هذا من جانب، ومن جانب آخر فإنّ هذه المقدّمة تختلف –من حيث الشكل– عن كثير من أنماط النثر الإبداعي كالمقامات والقصص والمناظرات والزُّرزوريات والرحلات، وتقترب من الخطابة التي اشتقّ منها "خطبة الكتاب" وإن كانت تخلو من الجانب الشفهي من الخطابة، والخطابة ذاتها تقترب من نمط الرسائل؛ وإن كانت تتمايز قليلاً من أنواعها، وتأخذ جانباً محدّداً منها فتأخذ من الرسائل الديوانيّة جدّيتها، ومن الرسائل الإخوانيّة عاطفتها، ومن الرسائل الأدبيّة جماليتها، وتتّسع فيها هوامش الحرّيّة في الشكل فتكون كما يريد لها منشئها، وكما تستطيع أن تعبر عن غرضها بأيّ حجم كان لها ولفقرها المكوّنة منها، والتي تتّخذ نمط السرد الإخباري هنا.

---

١ – **الذخيرة في محاسن أهل هذه الجزيرة: ١٦/١/١.**

٢ – **المصدر نفسه: ١٦/١/١.**

أ: البنية الخارجية للنصّ:

يتكون هيكل هذه الخطبة أو بنيتها الخارجية من مقدّمة ومتن وخاتمة.

١– المقدّمة:

"بسم الله الرّحمن الرحيم

قال أبو الحسن عليّ بن بسّام الشنتريني الأندلسي، رحمه الله:

أمّا بعد حمد الله وليّ الحمد وأهله، والصلاة على سيّدنا محمّد خاتم رسله"

أ– بما أن هذا النصّ الذي سندرسه هو جزء من كتاب تراثي قديم حقّق على مخطوطات عدّة فإنّ ثمة زيادات ونواقص وفروقاً في النسخ المخطوطة وروايات متعدّدة لبعض الكلمات، وهذا أمر معروف لدى المتمرّسين في أمور المخطوطات، لذلك فإنّنا نجد عبارة دخيلة بعد البسملة وهي: "قال أبو الحسن... رحمه الله"، فهي من دون شكّ ليست من كلام ابن بسّام بل هي إضافة من أحد نسّاخ كتاب الذخيرة الشهير الذي طبّق صيته الآفاق، وقد يكون هذا الناسخ من طلّابه أو أحبابه لأنّه يترحّم عليه، وقد أشرنا إلى ذلك سابقاً، ثمّ تبدأ الحمدلة.

ب– جاءت الحمدلة مصوغة صوغاً معكوساً نادراً فهو لا يحمد الله تعالى على عادة المؤلّفين "الحمد لله...، والصلاة على رسول الله..." يأتي بفصل الخطاب أمّا بعد، التي تأتي غالباً بعد الحمدلة لأنّها تفصل بين الكلام الأوّل والثاني «وتأتي عقيب البسملة، وتأتي ابتداء كأنّها عقيب الفكر والرويّة.

وأوّل من قالها داود عليه السلام، وقيل إنّها فصل الخطاب المذكور في الكتاب العزيز، وقيل أوّل من قالها قُسّ بن ساعدة، والأوّل أصحّ، وإنّما قُسّ أوّل من خطب بها وكتبها أوّل الكتب على ما ذكر...

ولا بدّ من اقتضائها الفاء لردّ الكلام بعضه على بعض»[1].

---

١ – **سرح العيون في شرح رسالة ابن زيدون:٢٥**

ولكنّ ابن بسّام غيّر هذا التقليد الأدبي المعروف وقلب شكله عقباً على رأس فقال: "أمّا بعد حمد..." وإن لم يكن الأوّل في ذلك والوحيد فيه، وهذا يدلّ على هجومه على غرضه الرئيس.

ج- قصر الحمدلة فهي لا تزيد على جملة واحدة، وكذلك قصر الصلاة على الرسول الكريم صلّى الله عليه وسلّم، ممّا يؤكّد استعجاله لمعالجة غرضه الذي يريد معالجته ويشي بظروف نفسيّة عصيبة.

وهذا الحمد خاصّ بالله سبحانه وتعالى وحده فذكر صفة واحدة من صفات الله عزّ وجلّ (وليّ الحمد وأهله) وهي ولايته للحمد واستحقاقه له، كما يقال وليّ الأمر ووليّ المرأة، وأهل الحمد أي المستوجب له.

وهذه الصلاة القصيرة على سيّدنا محمّد تقتصر على وصفه صلّى الله عليه وسلّم بـ(خاتم رسله) وفي قبالة ذلك فإنّ أهل الأندلس هم (أرباب هذا الشان) وهم (رؤساء خطابة ورؤوس شعر وكتابة) وهم أحرياء بالمدح وأهل له.

أمّا ابن بسّام نفسه فهو الذي جمع محاسنهم وسجّل أخبارهم في القرن الخامس الهجري، وقيّد أشعارهم من تفاريق قديمة وتعاليق مهترئة (ففتحت أنا أقفالها، وفضضت قيودها وأغلالها).

د- وقد اقتصر ابن بسّام على الصلاة على سيّدنا محمّد صلّى الله عليه وسلّم وأغفل الترضّي عن آله الطاهرين المنتجبين، وأصحابه الطيّبين المنتخبين، وهذا الأمر ليس بدعاً في ذلك الصّقع البعيد؛ بل كان لأمور سياسية معروفة، ويشي- كذلك- بسرعة اندفاعه لغرضه من المقدمة.

هـ- وهذه الحمدلة لا تشي بموضوع الكتاب وهدفه لا من قريب ولا من بعيد، فهو لا يحمد الله الذي علّم الإنسان فنون البيان، ولا يصلّي على الرسول الكريم مثنياً على بلاغته وفصاحته وجوامع كلمه، أو متحدّياً البلغاء بمعجزة القرآن، ولا يرشّح بموضوع كتابه

الأدبي البياني على عادة بعض المؤلّفين السابقين له والتالين له، فأبو إسحاق الحصري القيرواني (ت ٤٥٣هـ) يقول في مقدّمة كتابه (زَهْر الآداب وثمر الألباب):«الحمد لله الذي اختصّ الإنسان بفضيلة البيان، وصلّى الله على محمّد خاتم النبيين، المرسل بالنور المبين، والكتاب المستبين، الذي تحدّى الخلق أن يأتوا بمثله، فعجزوا عنه، وأقرّوا بفضله، وعلى آله وسلم تسليماً كثيراً» [1].

وألّف محيي الدين البركوي (ت ٩٨١هـ) كتاباً عن الصلاة سمّاه "معدِّل الصلاة" فأشار في حمدلته إلى موضوع الكتاب فقال: "الحمد لله الذي أمر عباده بإقامة الصلاة وتعديلها، وجعلها رأس الدين، وعروة الإسلام، وأفضل أعمالها، ونوراً ونجاة... والصلاة والسلام على أفضل رسله محمّد خير من عدّلها وسوّاها بلا منكر، وآله وصحبه الذين مكّنوا في الأرض فأقاموا الصلاة وآتوا الزكاة"[2].

٢- المتن:

يتألف متن خطبة الكتاب من فقر نثريّة مطوّلة تعرض موضوعات وأفكاراً تتعلّق بموضوع الكتاب وهو جمع أدب أدباء الأندلس في القرن الخامس الهجري، وفيها يحدّد اسم الكتاب بدقّة -وهو أزيد ممّا هو مطبوع- بكلمة "هذه"[3]، ويذكر الصعاب التي اعترضته في أثناء تأليفه، ويبين منهج الكتاب، ويحدّد إطاره الزمني، ويشير إلى بحثه عن أحد الكبراء ليطرّز كتابه باسمه "فلان" فيخرجه من ربقة الخمول، ويورد أقسامه الأربعة مفهرساً لمن يودّ الترجمة لهم، وكلّ هذه من الأمور المنهجيّة المطلوبة في الرسائل العلمية الحديثة (ماجستير- دكتوراه). ويربط ابن بسّام فصل الخطاب بالمتن، ويردّ الكلام بعضه على بعض بوساطة الفاء، وهذا أمر يغفله بعض الكتّاب المحدثين.

ويمهّد لغرضه في المتن بكلام يسير يدلّ على استعجاله يدل على استعجاله فيبدأ بالثمار

---

١ - **زهر الآداب وثمر الألباب: ٣٣/١.**

٢ - **معدّل الصلاة:٧١.**

٣ - **عنوان الكتاب المطبوع: الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة: ١٦/١/١.**

قبل الغرس والاعتناء والسقي والإنبات والنمو والإزهار وأخيراً الإثمار، فهو لا يتحدّث عن الأدب بل عن ثماره، ولا يبدأ بالأدب بل بثماره، فلا يقول إنّ الأدب نبتة تغرس وتزهر وتثمر بالرسائل والشعر، ولا إنّ الأدب ثمرة لها نوعان النثر والشعر؛ بل يقدّم الثمرة على الأدب فيقول إنّ ثمار الأدب رسائل وقصائد.

ويسود هذه الخطبة النثر فليس فيها سوى أربعة أبيات شعريّة متفرّقة موظّفة في خدمة النثر وتقوية حجّته، لذلك ليس لهذه الخطبة شكل خارجي محدّد خاصّ بها بل هو نمط سرديّ إخباري في فقر مختلفة الحجم وَفق ما يريد الكاتب أن يخبر به.

٣- الخاتمة

تتنوّع خواتيم خطب الكتب والرسائل بين الدعاء وإقراء السلام أو البتر أو حمد الله أو الاستعانة به، وهذا ما كان في خاتمة خطبة ابن بسّام: "وعلى الله أتوكّل، وهو حسبي فيما أقول وأفعل، لا إله سواه".

ومن الواضح أيضاً قصر الخاتمة واقتصارها على معنى التوكّل على الله سبحانه وتعالى والاقتصار عليه؛ ممّا يدلّ على استعجاله للخوض في غرضه الأصيل.

ويلفت الانتباه أنّه يذيّل بعبارة الإيمان (لا إله سواه) مع أنّها خارجة عن السجعة الملتزمة ممّا يدل على الطابع الإسلامي العميق.

ب: البنية الداخليّة للنصّ:

١- بنية التشابه:

أي إنّ ثمة مجموعة من العبارات والجمل تعبّر عن معنى واحد أو متشابه أو متقارب في جوّ شعوريّ واحد، وهذه هي البنية الأساسية للكلام الغالبة لجميع البنى الأخر في النثر عامّة وفي نثر ابن بسّام خاصّة.

"إنّ ثمرة الأدب العالي الرتب ——— نحور الخرائد

فرسان الفنين وأئمة النوعين ——— الأشعار والرسائل

وفي النفي: "لا يعمر بها جنان ولا خلد، ولا يصّرف فيها لسان ولا يد"

وفي الأسلوب الإنشائي الذي لا صدق فيه ولا كذب كقوله: "من قصر العلم على بعض الزمان، وخصّ أهل المشرق بالإحسان؟".

٢- بنية التناقض:

وتتشكل من مجموعة الثنائيّات الضدّيّة وتزيد عليها بإنشاء علائق متعدّدة بين المتضادات، قد يرفضها المنطق أوّل وهلة:

نثر لو رآه البديع لنسي اسمه...

فالبديع بديع الزمان الهمذاني (ت ٣٩٨هـ) قد مات قبله بزمن طويل فكيف يمكن له أن يراه، وكذلك فهذه الرؤية -لو حدثت- فهي لا تؤدي إلى أثرها المعرفي الجمالي المعتاد، بل تقوم بفعل معاكس وأثر مخالف للمتوقّع، فرؤية البديع لنثر الأندلسيّين يؤدّي لنسيان البديع لاسمه وتركه لإبداعه وبديعه.

- واجتلاء نثرهم يؤدّي لتنازل ابن هلال عن منصبه العلمي لهم.
- نظم لو سمعه كثيّر لأضرب عن أعظم أغراض شعره.
- تقليد الأندلسيّين للمشارقة على تفوّق أدبهم عليهم وغلبتهم لهم:

(حتى لو نعق بتلك الآفاق غراب... محكماً)

- أخبارهم الباهرة ≠ ... مناخ الرذية
- الأشعار الأندلسية الباهرة ≠ لا يعمر بها جنان ولا خلد ولا يصرّف فيها لسان ولا يد
- الأشعار المشرقيّة المكرّرة المملولة ≠ محّت في أيدي الدارسين لكثرة تداولها
- بدور الأدب الأندلسي ≠ أهلّة ضئيلة
- بحاره ≠ ثماد مضمحلّة

٣- بنية التوتّر:

وتحمل شحنات عاطفيّة كثيفة تدلّ على اضطراب وانفعال وتوتّر:

- فغاظني منهم ذلك، وأنفت ممّا هنالك، وأخذت نفسي بجمع...

- غيرةً...

- وليت شعري من قصر العلم على بعض الزمان وخصّ أهل المشرق بالإحسان؟، وقد يتجاوز الانفعال الحدّ المقبول ويتميّز غيظاً وغضباً ويصل إلى السخرية والإزراء والشتم.

فيجعل الحطيئة باسمه وبدلالته اللغوية المعروفة ويصفه بأنّه ما عوى ولا نبح، ويجعل شعراء المشرق كغراب ينعب وذباب يطنّ.

٤- بنية الحوار والزمان والمكان:

الخطبة نمط تواصلي إخباري يتّجه من المرسل إلى المرسل إليه أي القارئ، فكأنّه يتخيّل منصتاً لكلامه مصيخاً إليه، فيخبره عن ثمرة الأدب وتفوّق الأندلسيّين فيه وتقليدهم للمشرق، وغضبه من ذلك، وجهده في جمع أدب أهل عصره ومصره، وتتّضح بنية الحوار بجلاء في قوله: "ولعلّ بعض من يتصفّحه يقول: إنّي أغفلت كثيراً، وذكرت خاملاً، وتركت مشهوراً، وعلى رسله فإنّما جمعته بين صعب قد ذلّ..." فابن بسّام يتخيّل محاوراً له ناقداً لعمله مخاطباً له، ثمّ يردّ عليه ويعلّل ذلك، فهو نوع من الحوار الداخلي اليسير.

أمّا الفضاء المكاني أي مجموع الأمكنة المذكورة في النصّ، فهي ترد بطرائق متعدّدة إمّا بذكر اسم البلد عينه كقوله: أفقنا هذا الأندلسي، الوافد على الأندلس، وقع لأهل الأندلس

- القيروان

- ثبير.

وإما بذكر الأماكن العامة مثل: أفقنا هذا- أهل هذا الأفق- بتلك الآفاق- الأفق الغريب- هذا الأفق.

- أهل بلدي- مصاقبتهم لطوائف الروم- وعلى أنّ بلادهم آخر الفتوح الإسلاميّة وأقصى خطا المآثر العربيّة، ليس وراءهم وأمامهم إلّا البحر المحيط والروم والقوط.

- أهل المشرق- أهل المشرق بالإحسان

- الأمصار- الأوطان

وإمّا بذكر ألفاظ مكانيّة أو ذات دلالة على المكان كقوله: جثوا، مرمى القصيّة، مناخ الرذيّة، متردّم غادرته الشعراء.

وأمّا الفضاء الزماني:أي مجموع الأزمنة التي أوردها المؤلّف في النصّ فهي أكثر عموميّة لا تشير إلى زمن محدّد باليوم والشهر والسنة، وأكثر الأزمنة تحديداً في الخطبة قوله زمان بني مروان، وهو يشمل من (سنة ١٣٨ إلى ٤٢٢هـ)، والدولة المروانية (١٣٨-٤٢٢هـ)، والمدائح العامريّة (٣٦٧- ٣٩٩هـ).

- ومازال... إلى وقتنا هذا- أي زمن تأليف الكتاب الذي لم يذكره في مقدّمة الكتاب.

ويشير إلى زمن أهل عصره وزمانه (حسنات دهري- محاسن أهل بلدي وعصري، ولا تعدّيت أهل عصري- أو لحقه بعض أهل دهري- من أهل الوقت والزمان، أي زمانه هو (ت٥٤٢هـ).

- وأنّ ابن فرج الجيّاني (ت ٣٦٠هـ) أملى في محاسن أهل زمانه

وأنّ أهل الأندلس (مذ كانوا) أي مذ وجدوا على شبه جزيرة الأندلس أي سنة (٩٢هـ)، وقسم يدلّ على العموم: وقديماً... المتقدّمين- تقدّم به الزمان أو تأخّر

- من قصر العلم على بعض الزمان

زيادة على أنّ بعض الكلمات في النصّ يستشف منها الزمان: الضحى والأصائل، الدجى

ثالثاً - المستوى التركيبي النحوي والتصويري

أ- المستوى التركيبي النحوي

أي دراسة التركيب النحويّ للنصّ المكوّن من جمل، أو دراسة الجمل بمختلف أنواعها والنظر في خصائصها وأساليبها.

أوّلاً: - الخصائص التركيبية:

١- البدء بشبه جملة في الحمدلة ثمّ في الصلاة على النبيّ الكريم، والاقتصار عليهما في كلتيهما، وهذا الأمر أضعف تأثيرهما، وجعلهما فضلة وليسا عمدة الكلام، ممّا يؤكّد ما ذكرته سابقاً باستعجاله للولوج في غرضه الأصيل أو الدخول إلى متن الخطبة الذي جعله يبدأ بجملة اسميّة مؤكّدة بإنّ، والجملة الاسميّة تدل بنفسها على الثبوت ممّا زاد في قوّتها وتأكيدها.

٢- غلبة الجمل الفعليّة على الجمل الاسميّة:

لو نظرنا في الفقرة الأولى المطوّلة من المقدّمة، من قوله:"أمّا بعد... الإحسان" وأحصينا أنماط الجمل التي تحتويها، فإننا واجدون أنّ عدد الجمل الاسمية هو ثماني جمل، وعدد الجمل الفعلية هو سبع وثلاثون جملة مع جملتين أفعالهما ناقصان، ومنه نستنتج أنّ الجمل الاسميّة تشكّل ربع النسيج اللغوي للجمل فقط، ومن المعروف أنّ الجمل الفعليّة تحمل قدراً أكبر من الحركة والانفعال منها في الجمل الاسميّة التي تشير غالباً إلى الثبوت والاستقرار، ممّا يدلّ على طبيعة النصّ الحماسيّة وارتفاع الخطّ البياني للانفعال.

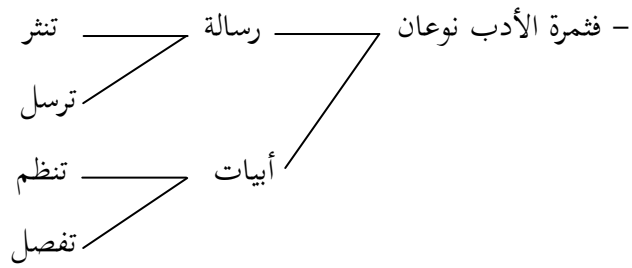
٣- طول الجمل:

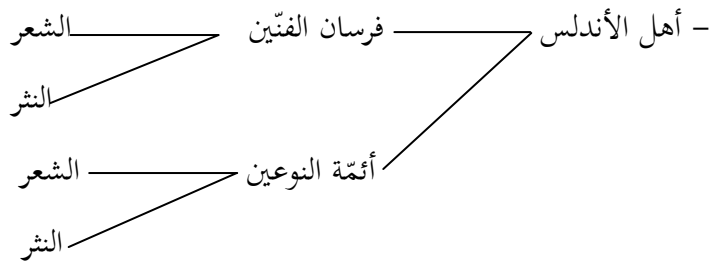
تتميّز جمل المقدّمة بالطول والطول المفرط منذ الجملة الأولى التي تبدأ (أمّا بعد... تفصل) وتزيد على سطرين. وكذلك قوله: (وما زال في أفقنا... مصادر

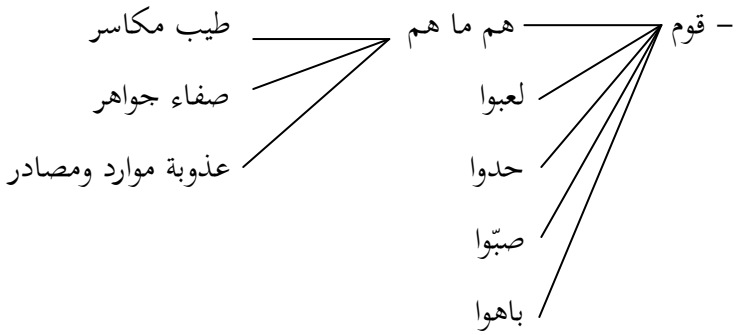
تنثال تلك تتصل هذه، لعبوا..، وحدوا.. ممّا يدلّ على رغبته في التفصيل والتوضيح والشرح.

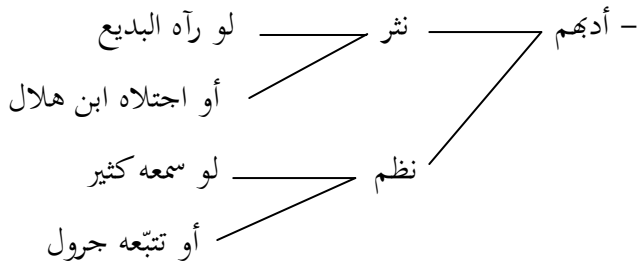
– الازدواج والثنائيّة:

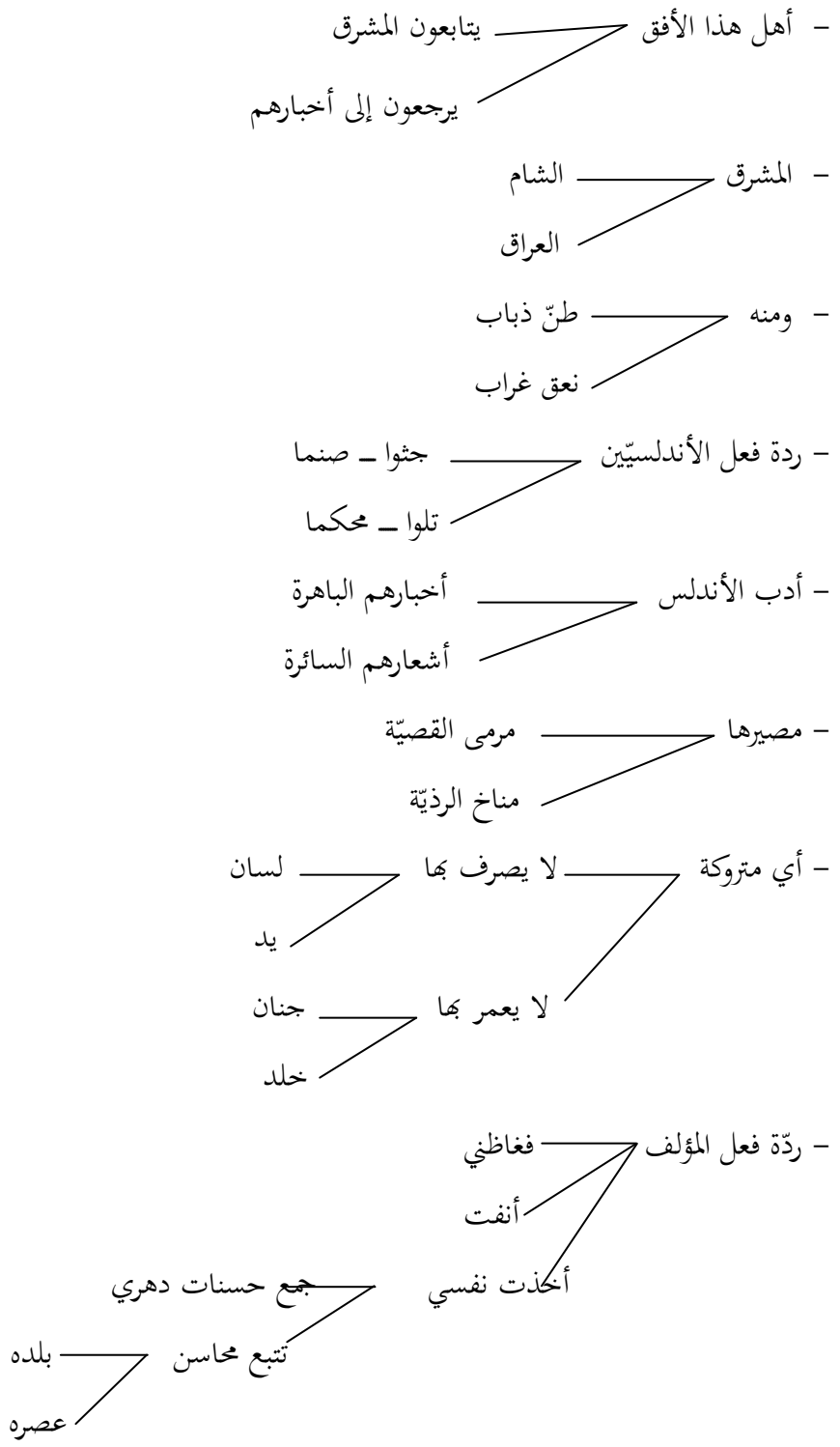
وتشمل أغلب جمل الفقرة الأولى ممّا يدل على حرصه على التكرار المعنوي للشرح والتفصيل والتقسيم.

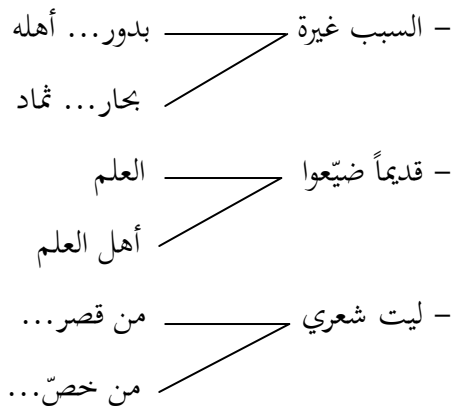









- أهل هذا الأفق
يتابعون المشرق
يرجعون إلى أخبارهم
- المشرق
الشام
العراق
- ومنه
طنّ ذباب
نعق غراب
- ردة فعل الأندلسيّين
جثوا ـ صنما
تلوا ـ محكما
- أدب الأندلس
أخبارهم الباهرة
أشعارهم السائرة
- مصيرها
مرمى القصيّة
مناخ الرذيّة
- أي متروكة
لا يصرف بها
لسان
يد
لا يعمر بها
جنان
خلد
- ردّة فعل المؤلف
فغاظني
أنفت
أخذت نفسي
جمع حسنات دهري
تتبع محاسن
بلده
عصره



٥– الموازنة:

يصل الازدواج إلى درجة كبيرة من الدقّة حتّى لتتقابل ألفاظ الجمل بشكل لافت غير عفوي يدلّ على تنظيم هندسي كبير.

رسالة تنثر وترسل = أبيات تنظم وتفصل

تنثال / تلك / انثيال / القطار / على / صفحات / الأزهار =

تتّصل / هذه / اتّصال / القلائد / على / نحـــور / الخرائد

فرسان الفنّيّن= أئمّة النوعين

لعبوا بأطراف الكلام المشقّق، لعب الدجى بجفون المؤرّق =

وحدوا بفنون السحر المنمّق ، حداء الأعشى ببنات المحلّق

لو رآه البديع لنسي اسمه= أو اجتلاه ابن هلال لولّاه حكمه

لو سمعه كثيّر ما نسب ولا مدح= أو تتبّعه جرول ما عوى ولا نبح

٦– الخبر والإنشاء:

الفقرة الأولى التي ندرسها كلّها جمل خبريّة– دلالة على طبيعة الكتاب الإخباريّة التأليفيّة، ما عدا آخرها حيث الاستفهام في جملتين فحسب:من قصر..، من خصّ...

وفي الاستفهام تظهر ذات الكاتب أوّل مرّة في اعتراضه على بعض المفاهيم الخاطئة الشائعة

ثانياً– الأساليب التركيبية:

١– التقديم والتأخير:

– قدّم شبه الجملة (الحمدلة) على الجملة المكوّنة من مسند ومسند إليه

بعد حمد الله.... فإنّ ثمرة

– ما زال في أفقنا... قومٌ (مبتدأ مؤخّر)

– فصبّوا على قوالب النجوم غرائب المنثور والمنظوم

– نعق– بتلك الآفاق– غراب

– طنّ– بأقصى الشام والعراق– ذباب

– لا يعمّر– بها– جنان ولا خلد

– لا يصرّف– فيها– لسان ولا يد

– غاظني منهم ذلك

وتقديم ما حقّه التأخير وتأخير ما حقّه التقديم يدلّان على اضطراب نفسي انعكس على السياق النحوي.

٢– أسلوب الإضافة:

وهو الأسلوب الأوّل الذي بدأ به ابن بسّام كتابه، وهو كثير، ويفيد زيادة الترابط والتلاحم بين أجزاء كلامه.

– بعد حمد الله

– وليّ الحمد

– خاتم رسله

– ثمرة هذا الأدب

– انثيال القطار

- صفحات الأزهار

- اتّصال القلائد

- نحور الخرائد

- أفقنا- وقتنا

- فرسان الفنّيّن

- أئمّة النوعين

- طيب مكاسر

- صفاء جواهر

- عذوبة موارد ومصادر

- أطراف الكلام- لعب الدجى- بجفون المؤرّق- فنون السحر- حداء الأعشى ببنات المحلّق- قوالب النجوم- غرائب المنثور والمنظوم- غرر الضحى والأصائل- بعجائب الأشعار والرسائل.

٣- أسلوب التوكيد:

- التوكيد بالأدوات: فإنّ ثمرة هذا الأدب

- أنّ أهل هذا الأفق

- التوكيد بالمصدر: تنثال انثيال

- تتّصل اتّصال

- لعبوا لعب

- حدوا حداء

- يرجعون رجوع.

- التوكيد بالتكرار: هم ما هم

٤- أسلوب الشرط:

ويفيد ربط أوصال الجملة والتشويق إلى معرفة الجواب

- لو رآه البديع لنسي...

- لو اجتلاه ابن هلال...

- لو سمعه كثيّر...

- لو تتبّعه جرول...

- لو نعق...

هـ- الانزياح:

وهو انتهاك مقصود للنمط اللغوي المعروف والمألوف والتحوّل عنه إلى نمط إبداعي مفاجئ لإثارة القارئ وتحفيزه وتحقيق الوظيفة التأثيريّة فيه.

- بعد حمد الله ←الأصل: الحمد لله...

- لعبوا ←مهارة ←أطراف الرماح ←أطراف الكلام

- حدوا ← ساقوا الإبل ← فنون السحر

- صبّوا على قوالب معدنية ←قوالب النجوم

- باهوا الناس ←غرر الضحى

- وفي النصّ أساليب أخرى وردت مرّتين:

- الاستثناء ← إلّا أنّ أهل هذا الأفق

أبوا إلّا متابعة أهل...

- الأفعال الناقصة: وما زال...- وتصبح بحاره...

- الاستفهام: من قصّ — من خصّ

ممّا يدلّ على تنوّع الأساليب المستخدمة في النصّ وغناها.

ب–المستوى التركيبي التصويري[1]

الصورة الفنّيّة: هي«تعبير لغوي عن تراسل بين لفظتين أو تراسل بين علاقتين وسواء أكانت هذه الصورة بسيطة أم معقّدة، فإنّها تعبّر عن مشابهة إذا ما حقّقت بوساطة أداة مثل الكاف ونظير، وتعبّر عن مماثلة وتوحّد إذا ما حققت دون أداة»[2] وبعبارة وجيزة هي «"كلّ تعبير غير حرفي" ليس بالضرورة أن يكون مجازيًا»[3].

أولاً– طبيعة الصورة الفنّيّة في النصّ

ليس النصّ الذي بين أيديكم نصّاً أدبيّاً صرفاً بل هو خطبة كتاب، وطبيعة الخطب السرديّة الإخباريّة ووظيفتها تختلفان عن طبيعة النصّ الأدبي ووظيفته، فقد كان النثر أساساً للإقناع وكان الشعر للإمتاع، ويجمع هذا النصّ المدروس هاتين الطبيعتين والوظيفتين معاً.

وكذلك فإنّ النصوص النثريّة الأندلسيّة في عهد تخمّر الأندلسيّة وبلوغها ذروتها تقترب من النصوص الشعريّة في طبيعتها الجماليّة، وهذا الأمر أدركه ابن بسّام عندما قال: «إنّه تأتي من إشبيليّة كتبٌ هي بالمنظوم أشبه منها بالمنثور»[4]

ويقول بوضوح في وصف أدب ابن زيدون بأنّه «ذو حظّ من النثر غريب المباني، شعريّ الألفاظ والمعاني».[5]

وقد أدرك ابن بسّام أهمية الصورة الفنّيّة، وأنّها عماد الأدب وأهمّ القيم المعياريّة التي تقاس بها جودته، وجعل البديع وهو ما يعبّر عنه بصورة فنّيّة «قيّم الأشعار وقوامها، وبه

١– انظر: جوانب من الصورة الفنّيّة في النقد العربي الحديث– د. أحمد عبد القادر صلاحية– مجلّة جامعة دمشق– دمشق، عدد مزدوج (٢٩– ٣٠) سنة (١٩٩٢م) الصفحات: (٩١– ١١٠).

٢– بنية الصورة الفنّيّة عند أبي تمّام– د. فهد عكّام– مجلّة التراث العربي– دمشق– عدد مزدوج (١١– ١٢) صفحة: ٢٥٤.

٣– جوانب من الصورة الفنية في النقد العربي الحديث: ٩٤.

٤– الذخيرة في محاسن أهل هذه الجزيرة١/١/٣٣٧.

٥– المصدر نفسه: ١/١/٣٣٦ .

يعرف تفاضلها وتباينها»[1]، وهذا أمر متّفق عليه لدى الأندلسيّين منذ القرن الخامس الهجري، لذلك فإنّ ابن بسّام يسعى نحو التركيب المجازي سعياً حثيثاً ليكون الأسلوب الأنسب لديه والطاغي على غيره من الأساليب، فأوّل جملة بدأ بها بعد الحمدلة إنّما هي صورة فنّيّة (إنّ ثمرة الأدب..).

وإذا أنعمنا النظر في كنه هذه الصورة الفنّيّة وطبيعتها وعلاقتها بنسيج النصّ الذي تكوّنه وسألنا سؤالاً عامّاً: هل الصورة الفنّيّة الأدبيّة العربية عامّة، والأندلسيّة خاصّة لاحقة تزيينيّة تتمّ بمرحلتين منفصلتين؛ عرض الفكرة ثمّ إلباسها صوراً مزركشة، كما زعم بعض الدارسين المحدثين، أم هي عنصر بنائي عضويّ في التشكيل الفنّي وفي التركيب النحوي؟

إنّ الصورة الأولى التي استهلّ ابن بسّام خطبته بها بعد الحمدلة هي- كما ذكرت آنفاً-: "إنّ ثمرة هذا الأدب، العالي الرتب، رسالة... وأبيات" فهل يمكن أن ننزع المعنى من إهاب الصورة، الجواب: لا بالتأكيد لأنّ الصورة هي المعنى كلّه ولأنّ التركيب النحوي مشكل تشكيلاً بلاغيّاً في الأساس، فلا يمكن بحال من الأحوال أن نحذف الصورة من هذا التركيب لأنّ ذلك سيؤدّي إلى ذهاب المعنى وتلاشيه، ولأنّها ذاتها هي المسند والمسند إليه، أي الركنان الأساسيّان في الجملة.

فهو لا يتحدّث عن الأدب عامّة بل عن ثماره خاصّة، فالأدب- هنا- شجرة وارفة باسقة لأنّه موصوف بـ(العالي الرتب)، وثمارها رسالة وأبيات، أي إنّ الرسالة هي ثمرة شجرة الأدب، وهي صورة عضويّة بحذفها تحذف الجملة كلّها فيتطابق التركيب البلاغي مع التركيب النحوي الأساسي، أو يكون عنصراً مهمّاً من عناصر التركيب النحوي.

ومثل هذا في كثير من الصور التي تكوّن لحمة السياق وسداه، فلا يمكن حذفها وإلّا لحذف المعنى ذاته.

١- **الذخيرة في محاسن أهل هذه الجزيرة:١/١/١٦ .**

ولكن لا يمكن للتركيب البلاغي أن يشغل المسند والمسند إليه من التركيب النحوي دائماً بل قد يكون أقلّ درجة منهما في السياق النحوي، ولكنّه ليس زائداً لا حاجة له بل يضيف معنى جديداً أو ظلالاً جماليّة فنّيّة كقول ابن بسّام: "تنثال تلك انثيال القطار على صفحات الأزهار"، فانثال أي انصبّ، وانثال عليه القول: تتابع وكثر فلم يدرِ بأيه يبدأ، فإن كنّا لا ندرك معنى الانثيال إدراكاً دقيقاً فإنّ الصورة تشرح حالته بدقّة وتصف درجته وتبيّن قيمته، فهذا الانثيال أو الانصباب هو انصباب الأمطار، وجاءت بصيغة القطار جمع القطر لتدلّ على الهَطْل الرفيق الرقيق غير المفسد على صفحات الأزهار الناعمة لتمنحها الحياة والاستمراريّة قبل الجمال والنضارة والنعومة.

إذاً فالصورة الفنّيّة وسيلة أساسيّة من وسائل نقل ابن بسّام أفكاره إلى الناس، ولكنّه لا يعبّر بها دائماً ولا يمكن لأيّ أديب أن يفعل ذلك.

كما أنّه قد لا يقتصر على صورة واحدة في التعبير عن المعنى الواحد ممّا يؤكّد اهتمامه بالصور الفنّيّة وجنوحه إليها كقوله عن فرسان الفنّين وأئمّة النوعين بأنّهم لعبوا... وحدوا.

ثانياً– الأدوات الحسّيّة للصورة الفنّيّة

١– الصورة البصريّة: وهي النمط الغالب في أغلب النصوص الأدبيّة لسهولة صنعها، ولكون العين هي الحاسّة الأساسيّة لصنع الصور، وتبدو في النصّ منذ رؤية ثمرة الأدب... إلى انثيال الأمطار على صفحات الأزهار، إلى تحوّل البدور إلى أهلّة والبحار إلى ثماد مضمحلّة.

٢– الصور السمعيّة: أي الصور تصدر أصواتاً ويُسمع منها ذلك، ومن المعروف أنّ حاسة السمع تقدّم على حاسة البصر في القرآن الكريم قال تعالى:﴿إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُولئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْؤُولاً﴾ [الإسراء:٣٦]،

وقوله:﴿وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَالْأَفْئِدَةَ قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ﴾[السجدة٩].

ومن الصور السمعيّة التي تعتمد في صوغها على حاسّة السمع قول ابن بسّام: "حدوا بفنون السحر المنمّق حداء الأعشى ببنات المحلّق" فالحداء يعني الغناء للإبل وحثّها للسير والإسراع أو زجرها لأجل ذلك.

- نظم لو سمعه، عوى، نبح، طنّ ذباب، نعق غراب، تلاكتاباً، صداها، الأسماع، لسان ومناجاة الأحبّة، نغمات المثالث والأزيار.

٣- الصور اللمسيّة أي الصور التي تظهر فيها هذه الحاسّة أداة أساسيّة في تكوينها:

تنظم وتفصل- القطار على صفحات الأزهار- تتّصل اتّصال- القلائد على نحور الخرائد- لعبوا بأطراف- صبّوا- اجتلاه- يصرّف بها يد- محّت بأيدي المتعلّمين.

٤- الصور الذوقيّة: وتتعلّق بالطعوم ومذاقها وهي قليلة نسبيّاً: ثمرة هذا الأدب- عذوبة موارد ومصادر- مجّت- أحلى- أشهى.

٥-الصور الشمّيّة: وتظهر من العناصر التي تصدر روائح، وهي الأقلّ في هذه المقدّمة: صفحات الأزهار- طيب مكاسر.

ثالثًا: أنواع الصور الفنّيّة

١- الصور الحركيّة: أي إنّ الحركة أو التحريك هو العنصر الأبرز فيها.

رسالة ترسل- أبيات تنظم (حركة ضمّ) وتفصل (حركة تفريق)

تنثال: تتحرّك من الأعلى إلى الأسفل، انثيال القطار: كهطل المطر.

تتّصل: حركة جمع بين طرفي شيء ما.

فرسان: الفارس على الفرس: الحركة الأماميّة.

لعبوا بأطراف الكلام: اللعب حركة متنوّعة، بأطراف الرماح: حركة فروسيّة ومهارة.

وحدوا بفنون...: من معاني الحداء: سوق الإبل وزجرها وحثّها على السير بالغناء.

صبّوا: حركة تفريغ.

اجتلاه: حركة إظهار جمال

تتبّعه جرول: حركة الاتّباع

أهل الأندلس: أبوا إلّا متابعة أهل الشرق.

يرجعون: حركة ارتداديّة.

جثوا: حركة إلى وضعيّة القعود.

يصرّف بها لسان ولا يد: يحرّك اللسان بالقراءة واليد بالكتابة.

تتبّع محاسن أهل بلدي: حركة جمع واقتناء.

٢- الصور الضوئيّة واللونيّة

وغالباً ما تستخلصان في هذا النصّ الموحي من طبائع الأشياء وخصائصها وألوانها المعهودة:

أ- **الضوئيّة**:

- القلائد على نحور الخرائد: لمعان الجواهر
- النجوم: اللمعان
- غرر الضحى والأصائل
- البدور

ب- **اللونيّة**:

- صفحات الأزهار المتعدّدة الألوان
- الدجى، ظلام: سواد
- غراب، سواد
- ذباب، سواد لامع مقزّز

٣- الصور المتجاوبة

أي الصور التي تتقارض فيها الحواس فتؤدّي إحدى الحواسّ الخمس وظيفة حاسّة أخرى كأن يرى بسمعه ويسمع بشمه ويشم بذوقه ويذوق ببصره.

- نثر لو رآه البديع لنسي اسمه: تجاوب بين حاسّتي الرؤية البصر، والسمع، فالنثر يقرأ ويسمع.

- مجّت الأسماع: فالأسماع تعتمد حاسّة السمع، ومجّت: تعتمد حاسة الذوق أي ذاقت ثمّ كرهت ثمّ تفلت

٤- صور المفارقة الشعوريّة

أي تصادم بين بعض العلاقات المتضادّة، مع وجود رابط شعوري معيّن بينها، يؤدّي إلى إحداث توهّج تعجّبي باهر وهو نوعان:

أ- المفارقة العامّة:

- أخبارهم الباهرة وأشعارهم السائرة: المتوقّع أن توقّر وتحترم وتتداول، ولكنّها ترمى وتبعد: مرمى القصية ومناخ الرذية، وتنفى فلا يعمر بها جنان ولا خلد.

- ابن فرج الجيّاني (ت ٣٦٠هـ) يذهب مذهب ابن بسّام (ت ٥٤٢هـ) في النصفة، مع أنّه توفّي قبله بـ(١٨٢ سنة)!.

ب- المفارقة الساخرة

- نثر لو رآه البديع لنسي اسمه: وبديع الزمان الهمذاني (ت ٣٩٨هـ) توفّي قبل وفاة ابن بسّام بأكثر من قرن وأربعين سنة من الزمن، ورؤية الأمور الجميلة تعطي عادة أثراً جميلاً، ولكنّها هنا تعطي مفعولاً عكسيّاً.

- أو اجتلاه ابن هلال... لو سمعه كثيّر.. لو تتبّعه جرول

- ثمّ يسخر من قصيدة امرئ القيس المعلّقة (قفا نبك) الفائقة الجودة فيذكر أنّها مجّت لكثرة تداولها وعادت عليه بلائمة المتكلّفين!!

٥- صور التضادّ

وتعتمد على الطباق الموظّف

- الأبيات تنظم وتفصل.

- البدور تغدو أهلّة.

- البحار ترجع ثماداً مضمحلّة.

- ابن داود المشرقي ألّف كتاب (الزهرة)، وابن فرج الجيّاني الأندلسي ألّف كتاب (الحدائق).

- تقدّم أو تأخّر.

- شعرهم يتّسم بين رقّة الهواء، وجزالة الصخرة الصمّاء.

- حمامة وعُقاب: طائر وديع، وطائر جارح.

٦- الصور الوهميّة

وفيها تصل الصورة إلى حدّ الإحالة والإغراق في المبالغة، أي تجاوز الواقع والجنوح نحو الوهم.

- صبّوا على قوالب النجوم غرائب المنثور والمنظوم.

- باهوا غرر الضحى والأصائل.

- باروا الشموس والبدور.

- لعب الدجى بجفون المؤرّق.

٧- الصور المكرّرة والجاهزة

المكرّرة: أي التي يصنعها الأديب ثمّ يكرّرها في أدبه غير مرّة.

كقوله: تصبح بحاره ثماداً مضمحلّة

كرّرها في قوله: وثمده بحر مسجور

والصور الجاهزة أي معروفة من قبل، يأخذها الأديب من موروثه الثقافي من دون زيادة تذكر فيها

- فرسان الفنّين.

- وقد كان في وقتي من فرسان هذا الشأن من كان أجدر أن يجري بهذا الميدان.

- عذوبة موارد ومصادر، لم يضف إليها شيئاً جديداً.

٨- التناصّ

والاستفادة من الموروث الثقافي بهدف تقوية النصّ وتوكيده.

- من القرآن الكريم: ﴿كما يئس الكفّار من أصحاب القبور﴾، ﴿فمنهم من قضى نحبه﴾

- الأخبار: (الخبر الأهم هو إيراد خبر أبي علي القالي) وتعليقه عليه

والأخبار الأدبيّة المأخوذة من التراث نصّاً قليلة لاعتماده على نفسه وعلى مخزونه الشخصي، ولكنّ ثمّة تناصّاً مهمّاً في استدعاء أخبار التراث بوساطة الإشارة إليها، كالتناصّ مع خبر الأعشى وبنات المحلّق الذي يشير بكلمات قلائل إلى قصة شهيرة ويوظّفها توظيفاً حسناً.

وكذلك بديع الزمان الهمذاني وبدائعه البديعيّة، وابن هلال وأحكامه، وكثيّر وتفوّقه في النسيب والمديح، والحطيئة الذي استغل طاقات اللفظ ليسخر منه، وقتادة جامع الحديث بعشوائيّة.

- الأمثال: (لو ترك القطا ليلاً لنام).

- الأشعار: بلفظها: بيتا أبي تمام:

ولو كان يفنى الشعر أفناه ما قرت حياضك منه في العصور الذواهب

ولكنّه صوب العقول إذا انجلت سحائب منه أعقبت بسحائب

بيت ابن وهبون:

رقيـق كمـا غنّـت حمامـة أيكـة وجـزل كمـا شـقّ الهـواء عقـاب

شطر للنابغة الذبياني:

يـا دار ميّـة بالعليـاء فالسـند

شطر لطرفة:

لخولـة أطـلال ببرقـة ثهمـد

جزء من شطر:

- (قفا نبك) لامرئ القيس، من معلقته:

قفـا نبـك مـن ذكـرى حبيـب ومنـزل بسـقط اللـوى بـين الـدخول فحومـل

- الفضل للمتقدّم لخالد بن يزيد، من قوله:

ولكن بكت قبلي فهاج لي البكا بكاهـا فقلـت الفضـل للمتقـدّم

- أمن أمّ أوفى- لزهير بن أبي سلمى.

أَمِـنْ أُمّ أَوْفَى دِمْنَـةٌ لَمْ تَكَلّـمِ بِحَوْمانَـةِ الـدرّاج فالمُتَثَـلَّمِ

تحوير بعض الأشطر:- فعلى آثار من ذهب العفا، بحذف الهمزة لمناسبة السجعة، من قول زهير أيضاً:

تحمّـل أهلهـا منهـا فبـانوا علـى آثـار مـن ذهـب العفـاء

- ربّ متردّم غادرته الشعراء- من قول عنترة في معلّقته:

هـل غـادر الشـعراء مـن مـتردّم أم هـل عرفـت الـدار بعـد تـوهم

أمّا وظائف الصورة الفنّيّة في هذا النصّ المميز فهي التعبيريّة والجماليّة والإيحائيّة والتأثيريّة وأخيراً فإنّ الصورة الفنّيّة لدى ابن بسّام تتّسم بالأصالة وتتميّز بالابتكار والتنوّع والإبداع والإمتاع.

رابعاً: المستوى اللفظي:

أي مستوى اللفظة الواحدة، وهي الخليّة التكوينيّة الأولى التي تشكّل بمجموعها جسد الجملة، أو الوحدة الأساسيّة المفردة التي تبنى بها الجملة، وسوف ندرس هذه اللفظة تكوينيّاً بنوعيها الأساسيّين؛ الاسم والفعل، ونحدّد أنماطها وأنواعها المستخدمة في النصّ الأدبي المدروس، ونبيّن صفاتها – دلاليّاً– فنحدّد حقولها المعرفيّة، ونستنتج ما تشير إليه، وما تدلّ عليه، وما توحي به.

١– الناحية التكوينية

أ– الأفعال:

١– قلّة الأفعال وغلبتها على الأسماء

استنتجنا في المستوى التركيبي السابق أنّ الجمل الفعليّة تزيد على ثلاثة أضعاف الجمل الاسميّة ولكنّ هذا لا يدلّ على أنّ الأفعال أكثر من الأسماء؛ فغالباً ما يرتبط الفعل بأكثر من اسم ظاهر كالفاعل والمفعول به وبعض المنصوبات والمجرورات من الأسماء، فعلى العكس فإنّ الأفعال أقلّ من ربع الأسماء عدداً فمجموع الأفعال في هذه القطعة (٣٥)، (فعلان ناقصان)= ٣٧

أمّا الأسماء فعددها مع البسملة (١٥٨) اسمٍ

٢– أنماط الأفعال:

ليس في هذه الفقرة المطوّلة إلّا نوعان فقط هما الماضي والمضارع، وليس لفعل الأمر وجود مطلقاً، لأنّها رسالة إخباريّة تتّجه إلى الجميع لغرض جمع الأخبار والأشعار، وليس لغرض النصح أو الأمر والنهي.

أ– الفعل الماضي:

وهو الغالب المهيمن على نمطي الأفعال الموجودة في هذه الفقرة، فثمّة (٢٥) فعلاً ماضياً في قبالة (١٠) أفعال مضارعة.

ومخطّط ورود هذه الأفعال على الشكل الآتي:

(٦) أفعال مضارعة ثمّ تأتي الأفعال الماضية بعد الفعل الماضي الناقص (مازال) لنجد (١٤) فعلاً ماضياً متوالياً، ثمّ نجد فعلاً مضارعاً (يرجعون) وبعده (٤) أفعال ماضية، ثمّ فعلان مضارعان (يعمر- يصرّف)، ثمّ (٤٠) من الأفعال ماضية، ثمّ مضارع (تعود)، ومضارع ناقص، ثمّ (٣) ماضية.

وكثرة الماضي تدلّ على استغراق حدث الأفعال ومعناها في الزمن الماضي.

ب- الفعل المضارع:

وهو أوّل أنماط الأفعال وروداً أي إنّ أوّل فعل استعمله المؤلّف في هذا النصّ هو الفعل المضارع الذي يدلّ على استمرار الحدث في الزمن الحاضر، وقد ورد (١٠) مرّات، وورد في مطلع المقدّمة ستّ مرات متواليات؛ إلّا أنّ ما يلفت النظر أنّه جاء في أربع المرّات الأوائل تالياً للاسم وخبراً له، أي إنّ الاسم هو الذي يحكمه بالإخبار، ومع ذلك فإنّه يدلّ على الحدث في الوقت الحاضر واستمراره.

ثمّ جاء المضارع متصدّراً الجملة في المرّتين التاليتين: تنثال- تتّصل، ممّا يعطيه مقداراً أكبر من الفاعلية والسيطرة على جمهرة من الأسماء.

تنثال تلك.... أي تنثال الآن وما تزال تنثال ما دامت الرسائل

وتتّصل هذه... أي تتّصل الآن وبعد ذلك ما دامت الأبيات

٣- الأفعال المبنيّة للمجهول

يشدّ الانتباه أنّ أول نوع من الأفعال التي بدأ بها المؤلف كلامه هي الأفعال المبنية للمجهول: (رسالةٌ تُنْثَرُ وتُفْصَلُ، وأبياتٌ تُنْظَمُ وتُفْصَلُ)

فهو يرجّح أهمّيّة الأدب ذاته على منشئه، فليس المهمّ من أنشأ هذا الأدب بل المهمّ هو جودة هذا الأدب.

وكذلك نجد قوله: لا يُعْمر...، لا يُصَرَّف

٤– الحركيّة

إنّ ثمة أفعالاً في النصّ مملوءة بطاقة حركيّة، تمور وتحمل حركة، وتحملنا على الإحساس بذلك:

رسالة ترسل، أي تنتقل من مكان إلى آخر.

أبيات تنظم وتفصل: حركة ضمّ وجمع ثمّ حركة معاكسة.

تنثال: حركة هَطْل.

تتّصل: حركة جمع.

لعبوا حركة سريعة منوّعة بحسب نوع اللعبة.

حدوا: حركةُ حثّ، وهي –كذلك– غناءٌ للإبل.

صبّوا: حركة سكب.

اجتلاه: حركة كشف.

تتبّعه: حركة لحاق.

جثوا: حركة قعود أو جلوس.

يصرّف لسان ويد: حركة اللسان بالإنشاد واليد بالكتابة.

الأسماء:

١– كثرة الأسماء

لقد ذكرنا أنّ الأسماء تزيد على الأفعال بنسبة كبيرة بل إنّه بدأ بالأسماء، وأنّ بعض الجمل وأشباه الجمل تخلو من الأفعال كالحمدلة "أمّا بعد حمد الله وليّ الحمد وأهله، والصلاة على سيّدنا محمّد خاتم رسله، فإنّ ثمرة هذا الأدب العالي الرتب" [ومازال] في أفقنا هذا الأندلسيّ القصيّ إلى وقتنا هذا من فرسان الفنّين وأئمّة النوعين، قوم هم ما هم طيب مكاسر، وصفاء جواهر، وعذوبة موارد ومصادر".

وتتركّز هذه الأسماء في مقدّمة خطبة الكتاب،حيث الهدوء النسبي، والبدء بالحديث العامّ عن الأدب.

٢- تكرار الأسماء أو جذورها

- حمد الله، وليّ الحمد
- هم ما هم
- أفقنا هذا- أهل هذا الأفق- بتلك الآفاق- الأفق الغريب
- الحمد وأهله- أهل هذا الأفق- ضيّعوا العلم وأهله.

تكرار الجذور

- تنثال انثيال- تتّصل اتّصال، لعبوا لعبَ- حدوا حداء- يرجعون رجوع.
- رسالة ترسل- عجائب الرسائل.
- عجائب الأشعار- أشعارهم السائرة- ليت شعري
- غرائب المنثور- نثر
- غرائب المنثور والمنظوم- نظم
- حسنات دهري- محاسن أهل- محسن- مات إحسانه- المشرق بالإحسان
- وفور علمائه- ضيّعوا العلم- قصر العلم

٣- التعريف والتنكير

التعريف في هذا النصّ أكثر بكثير من التنكير، لأنّه يتحدّث عن بلده الذي يحبّه ويعرفه معرفة دقيقة، وعن الشعر والنثر والأمور التي يعرفها تمام المعرفة والتي تشكل أهمّ العناصر في حياته بوصفه أديباً ناثراً شاعراً.

أمّا النكرات فتقتصر على:

رسالة وأبيات، لتدلّ على عموم هذه الأنماط

قوم هم ما هم: تنكير للتعظيم

نثر ونظم: تنكير للتعظيم

غراب- ذباب: تنكير للتحقير

صنماً- كتاباً محكماً: تنكير للتعظيم

جنان ولا خلد- لسان ولا يد- ربّ محسن- تنكير للعموم

٤- الإفراد والجمع والمثنى

- يلفت الانتباه استخدام ابن بسّام بعض الألفاظ المفردة التي تدلّ على الجمع.

- قوم مفرد جمعه أقوام، ولكنّه يدلّ على الجمع في ذاته.

- الأهل: أهله - أهل هذا الأفق- ضيّعوا العلم وأهله: فالأهل لفظة مفردة جمعها الأهالي وهي تدلّ على الجمع، فالأهل مجموعة من الناس ترتبط بنسب أو بيت أو قربى.

ثمّ إنّنا واجدون علاقات عجائبيّة في استخدامه للمفرد والجمع كقوله فلو نعق غراب واحد في الشرق لجثا أهل الأندلس كلّهم يتعبّدونه، وعكس ذلك فأشعار أهل الأندلس السائرة وأخبارهم الباهرة (بالجمع) مرمى القصيّة ومناخ الرذيّة.(مفرد)

وتلك الأشعار والأخبار (بالجمع):

- لا يعمر بها جنان واحد ولا خلد واحد

- ولا يصرّف فيها لسان واحد ولا يد واحدة

رسالة (إفراد): تنثال كالقطار (جمع قطر) على صفحات الأزهار

والجمع يدلّ على الكثرة والمبالغة عامّة:حسنات دهري- محاسن أهل بلدي

بدور الأندلس ⟵ أهلّة

بحاره ⟵ ثماداً

كثرة الأدباء- وفور العلماء

- القلائد على نحور الخرائد

- فرسان أئمّة، مكاسر، جواهر، موارد، مصادر

- لعبوا بأطراف الكلام... بجفون المؤرّق

- حدوا بفنون السحر... ببنات المحلّق

- صبّوا على قوالب النجوم... غرائب

- باهوا غرر الضحى والأصائل، بعجائب الأشعار والرسائل

ويصل التنفّج والبأو إلى ذروته في قوله: أفقنا، وقتنا

أمّا المثنّى فلا نجده إلّا في قوله: الفنّين، النوعين

وتتبدّى صيغة الإفراد وضمير المفرد في قوله: فغاظني... أنفت- أخذت نفسي

٥- غلبة التذكير على التأنيث

ويتركّز التأنيث في المقدّمة بعد الحمدلة والصلاة النمطيين:

فإنّ ثمرة... رسالة تنثر وترسل...

تنثال تلك على صفحات الأزهار

وثمة تأنيث شكلي بالجمع في قوله: "أبيات تنظم وتفصل... تتّصل هذه اتّصال القلائد على الخرائد".

وكذلك لفظة أئمّة فهي مؤنّثة لكونها جمعاً، ولكنّ مفردها إمام، وكذلك أهلّة.

وثمّة بعض الألفاظ المؤنّثة لكونها تابعة لجمع: أخبارهم الباهرة أشعارهم السائرة أخبارهم المعتادة.

وثمّة اسم مؤنّث لفظيّاً مذكر معنويّاً: قتادة.

وقليلة هي الكلمات المؤنّثة الخالصة -سوى ما ذكر أوّلاً- مثل: بنات، حسنات القصيّة، الرذيّة.

٦- الصفات:

نجد الصفات حاضرة منذ البداية: "حمد الله وليّ الحمد وأهله" أي المستحقّ والمستوجب للحمد.

محمّد خاتمِ رسلِهِ

ثمّ وصف "هذا الأدب" بـ"العالي الرتب" ليحدد النمط الذي يريده ويعنيه في رسالته وهو النمط الرفيع المستوى العالي المقام، لذلك نجده يبتعد عن الأدب الساقط والمرذول، وينأى عن نمط الموشّحات والأزجال، ولا يورد منهما شيئاً على شيوعهما في عصره.

- أفقنا هذا الأندلسي القصيّ: المبالغة في المعنى وتقويته.
- الأفق الغريب: الترحّم.
- قوم هم ما هم: التعجّب.
- الكلام المشقّق- السحر المنمّق: المبالغة.
- إلى أخبارهم المعتادة أو المعادة: التخييس.
- كتاباً محكماً: للتخصيص فلولا الصفة لما كان للمعنى فائدة، ووجودها أعطى الكتاب معنى القدسيّة كالقرآن الكريم الموصوف بأنّه ﴿كِتَابٌ أُحْكِمَتْ آيَاتُهُ﴾
- أخبارهم الباهرة- أشعارهم السائرة: المبالغة في الثناء

٧- المفعول المطلق

تنثال انثيال- تتّصل اتّصال

لعبوا لعب- حدوا حداء

يرجعون رجوع

وهو يعطي المعنى توكيداً وتخصيصاً

ثانياً الناحية الدلالية:

نحدّد هنا بيئة الألفاظ التي استعملها المؤلّف وحقولها الدلالية

الألفاظ الطبيعيّة: ثمرة- القطار- صفحات الأزهار- بحار- ثماد- موارد- مصادر- الدجى- النجوم- البدور- أهلّة- الجواهر.

٢- ألفاظ الحيوان وصوته: جرول عوى ونبح- نعق غراب- طنّ ذباب- القصيّة- الرذيّة.

٣- الألفاظ الإنسانيّة

- عام: الخرائد- فرسان- أئمّة- قوم- أهل- المؤرّق.

- الجسد الإنساني: نحور- جفون- لسان- اليد.

- الفعل الإنساني: لعبوا- حدوا- صبّوا- باهوا- رآه- نسي- اجتلاه- ولّاه- سمعه- متابعة- جثا- تلوا- يصرّف لسانه ويده- غاظني- أنفت- أخذت نفسي- غيرة- صنع.

٤- الألفاظ البدويّة: حدوا حداء- مرمى القصيّة- مناخ الرذيّة.

٥- الألفاظ الدينيّة- الحمدلة- الصلاة على رسول الله- أئمّة- رجوع الحديث إلى قتادة- جثوا عليه صنماً- تلوه كتاباً محكماً.

٥- الألفاظ الأدبيّة:

الأدب- رسالة- تنثر- أبيات تنظم- الفنّين- النوعين- الكلام المشقّق- المنثور- المنظوم- نثر- البديع- نسب- مدح- أخبار- أشعار أدبائه- علمائه- العلم- العلم.

٦- الأعلام: الأعشى وبنات المحلّق- بديع الزمان- ابن هلال- كثيّر- جرول- الحطيئة- قتادة.

٧- الأعلام الجغرافيّة: الأندلسي- الشرق- الشام- العراق- بلدي- المشرق.

خامساً المستوى الموسيقي:

إذا كانت الموسيقا في الشعر تنبع- أساساً- من الوزن والقافية وهيكل القصيدة وما فيها من تصريع وترصيع، وتوقيع داخلي؛ فإنّها في النثر تفتقر إلى الهيكل المحدّد والمنغّم بالقافية، لذلك نادراً ما نجد قطعة نثريّة تغنّى كما يغنّى بالشعر، ومع ذلك فإنّ النثر وإن لم يكن له إطار موسيقيّ خارجيّ محدّد، فإنّه يعتمد على وحدات نغميّة خارجيّة وداخليّة تقرّبه إلى نمط مستحدث من الشعر؛ وهو الموشّحات، باستخدامه السجع في الفواصل والتوازن في العبارات.

أ- الموسيقا الخارجيّة

١- السجع: ظهر السجع في النثر الأندلسي منذ القرن الرابع الهجري ظهوراً فنّيّاً بعد أن كان يأتي عفو الخاطر فيما خلا من قرون، ومن ثمّ ترسّخ أسلوباً نمطيّاً لا يكاد يخرج عنه الناثرون، وازداد درجات في التعقيد والتكلّف حتّى غدا في القرن السادس وما بعده هدفاً أساسيّاً يكاد يحجب المعنى نفسه، كما نجده في قلائد العقيان لابن خاقان.

- إنّ السجع عند ابن بسّام مقصود لذاته وليس عفو الخاطر، ولكنّه ليس معقّداً مطوّلاً، فسجعه يقع أغلبه في جملتين متواليتين أو فاصلتين اثنتين "ثمرة هذا الأدب، العالي الرتب".

ويتعدّى السجع إلى ثلاث فواصل مرّة واحدة في الفقرة الأولى في: مكاسر، جواهر، مصادر.

ويصل إلى أربع فواصل مرّة واحدة فقط، في السجعات القافيّة: المشقّق المؤرّق، المنمّق، المحلّق.

أ- ومن حيث عدد الأحرف المكرّرة في الألفاظ المسجّعة، فإنّ السجع بحرف واحد يتكرّر (٧) مرّات في الفقرة الأولى (الأدب- الرتب/ ترسل- تفصل/ المشقّق- المؤرّق/ المنمّق- المحلّق/ مدح- نبح/ الأفق- الشرق/ خلد- يد)

ب- السجع بحرفين: وهو الأكثر يستعمل (١١) مرّة:(أهله- رسله/ القطار- الأزهار/ الفنّين- النوعين/ مكاسر جواهر- مصادر/ النجوم- المنظوم/ اسمه- حكمه/ غراب- ذباب/ صنما- محكما/ دهري- عصري/ أهله- قبله/ الزمان- إحسان).

ج- السجع بثلاثة أحرف في سبع فواصل: (القلائد- الخرائد/ الأصائل- الرسائل/ الباهرة- السائرة/ القصيّة- الرذيّة/ ذلك- هنالك/ أهلّة- مضمحلّة/ أدبائه- علمائه).

ج- السجع بأربعة أحرف: ويرد مرّة واحدة فحسب: (معتادة- قتادة)

وعلى هذا التكلّف في السجع فإنّنا لا نجد السجع بالجناس الكامل ولا الناقص، ولا نشعر بوطأة هذا السجع على السمع، بل نجد رنيناً عذباً، واقتداراً كاملاً على صوغ فواصله المسجّعة.

٢- التوازن

وقد أشرت إليه في المستوى التركيبي بوصفه أحد الخصائص المهمّة في البناء اللغوي، وهنا نشير إلى أثره الكبير من الناحية الموسيقيّة؛ إذ يقترب شيئاً ما من الوزن في الشعر ولاسيّما في الجمل المطوّلات التي تتقابل ألفاظها بأسمائها وأفعالها وحروفها كقوله:

تنثال تلك انثيال القطار على صفحات الأزهار=

وتتّصل هذه اتصال القلائد على نحور الخرائد

وكقوله: لعبوا بأطراف الكلام المشقّق لعب الدجى بجفون المؤرّق

وحدوا بفنون السحر المنمّق حداء الأعشى ببنات المحلّق

وتقترب من الترصيع في الفواصل القصيرة المكوّنة من لفظتين:

فرسان الفنّين= أئمّة النوعين

وأخبارهم الباهرة= وأشعارهم السائرة

مرمى القصيّة= مناخ الرذيّة

٣– طول الجمل الموسيقيّة وقصرها

تتّسم الفواصل الموسيقيّة بالقصر عامّة حتّى إنّ الجملة النحويّة قد تكون في فاصلتين سجعيّتين اثنتين أو أكثر فتمتدّ إلى أربع فواصل كقوله: (إنّ ثمرة هذا الأدب/ العالي الرتب/ رسالةٌ تنثر وترسل/ وأبيات تنظم وترسل) وكذلك قوله: (ومازال...[إلى قوله] مصادر)

أو تكون الجملة النحويّة في فاصلتين سجعيّتين غالباً:

(تنثال تلك انثيال القطار/ على صفحات الأزهار)

(وتتصل هذه اتصال القلائد/ على نحور الخرائد)

لعبوا... لعب، حدوا.. حداء، صبّوا... غرائب، باهوا... الأصائل

٤– إدراك المؤلف أهمّيّة الأثر الموسيقي للأدب

فهو قد أودع كتابه هذا "ما هو أحلى من مناجاة الأحبّة، بين التمنّع والرقبة. وأشهر من معاطاة العقار، على نفحات المثالث والأزيار"..

وذهب كلامهم بين رقّة الهواء وجزالة الصخرة الصمّاء، كما قال صاحبهم عبد الجليل بن وهبون يصف شعره:

رقيقٌ كما غنّتْ حمامةُ أيكةٍ وجزلٌ كما شقَّ الهواءَ عُقابُ

ب – الموسيقا الداخليّة

١– تكرار الأسماء والأفعال وجذورهما

يؤدّي تكرار الألفاظ أسماء وأفعالاً إلى تكرار الحروف الأصليّة للكلمة وهذا التكرار يؤدّي إلى تكرار صوت الحرف ورنينه ممّا يغني الناحية الموسيقيّة كثيراً.

– حمد الله– وليّ الحمد

– وأهله– أهل الشرق

- أفقنا- الآفاق- الأفق الغريب- أهل هذا الأفق

- تنثال انثيال- تتّصل اتصال- لعبوا لعب- حدوا حداء- يرجعون رجوع

- رسالة ترسل- غرائب الرسائل

- غرائب الأشعار وأشعارهم السائرة- ليت شعري

- غرائب المنثور، نثر

- غرائب المنثور والمنظوم، نظم

- وفور علمائه- ضيّعوا العلم- قصر العلم

- حسنات دهري، محاسن أهل- محسن مات إحسانه- المشرق بالإحسان- محاسن تبهر

٢- تكرار أوزان الأسماء والأفعال

مفاعل: قلائد- الخرائد- مكاسر- جواهر- موارد- مصادر- الأصائل- الرسائل

فعول: نحور- بدور- وفور- رجوع

الفعلين: الفنّين- النوعين

تفعل: تنثر- ترسل- تنظم- تفصل

فَعَل: مدح- نبح- نسب- نعق- قصر

فعوا: أبوا- جثوا- تلوا

المفعّل: المشقّق- المؤرّق- المنمّق- المحلّق

فعال: ذباب- غراب- جنان- لسان- الزمان

٣- الحروف وحركاتها

مناسبة الحروف للمعاني المقصودة: فغاظني- غيرة

تكرار بعض الأحرف وقلّة الحروف المهجورة

٤– التنوين

وهو نون ساكنة يسبقها إحدى الحركات الثلاث، الضمة والفتحة والكسرة، يأتي بقلّة لينبّه على مفاصل الكلام:

إنّ ثمرة الأدب... رسالةٌ، وأبياتٌ

ما زال... قومٌ

نثرٌ لو رآه...، ونظمٌ لو سمعه

سمعه كثيّرٌ، تتبّعه جرولٌ

جنانٌ ولا خلدٌ، لسانٌ ولا يدٌ

غيرةً، قديماً، ربّ محسنٍ.

٥– التشديد

وهو على عكس التنوين يعطي صوتاً مكرّراً للحرف المشدد؛ ساكناً ثمّ متحرّكاً، وهو من المنابع الثرّة للموسيقا

– وليّ الحمد، سيّدنا محمّد

– فإنّ– تتّصل

– الأندلسيّ القصيّ– الفنّين

– المشقّق– المؤرّق– المحلّق– المنمّق

– صبّوا– لولّاه– كثيّر– تتبّعه

– إلّا– أنّ– إلّا– حتّى– طنّ

– القصيّة– الرذيّة

– يصرّف– تتبّع

– أهلّة– ربّ– خصّ

٦- إيقاع الإعراب

وهو توافق حركات الإعراب لبعض الجمل توافقاً تامّاً أو شبه تامٍّ ممّا يعطي زخماً إيقاعيّاً مكثّفاً رائعاً.

- لعبوا بأطرافِ الكلامِ المشقّق لعبَ الدجى بجفونِ المؤرّقِ=

وحدوا بفنونِ السحرِ المنمّقِ حداءَ الأعشى ببناتِ المحلّقِ

- رسالةٌ تنثرُ وترسلُ= أبياتٌ تنظمُ وتفصلُ

- تنثالُ تلكَ انثيالَ القطارِ على صفحاتِ الأزهارِ=

تتصلُ هذهِ اتصالَ القلائدِ على نحورِ الخرائدِ

- فرسانِ الفنّينِ= أئمّةِ النوعينِ

- طيبَ مكاسرَ= صفاءَ جواهرَ= عذوبةَ مواردَ ومصادرَ

٧- إيقاع توالي الحركات

أ- حركة الكسرة:

- (حمدِ اللهِ وليِّ الحمدِ وأهلهِ، والصلاةِ سيّدِنا محمّد خاتمِ رسلِهِ)

- (في أفقِنا هذا الأندلسيِّ القصيِّ إلى وقتِنا هذا منْ فرسانِ الفنّينِ وأئمّةِ النوعينِ)

- (بأطرافِ الكلامِ المشقّقِ- بفنونِ السحرِ المنمّقِ)

- (كثرةِ أدبائِهِ ووفورِ علمائِهِ)

ب- حركة الضمّة:

- (رسالةٌ تنثرُ وترسلُ، وأبياتٌ تنظمُ وتفصلُ)

- (لا يعمرُ بها جنانٌ ولا خلدٌ، ولا يصرّفُ فيها لسانٌ ولا يدٌ)

ج- حركة الفتحة:

- (طيبَ مكاسرَ وصفاءَ جواهرَ وعذوبةَ مواردَ ومصادرَ)- (نسبَ ولا مدحَ..نبحَ)



الفصل الثاني

نصوص من النثر الأندلسي

البابُ الأوَّلُ مِنَ المماثلاتِ في أدعيةِ الأوقاتِ:

مَا يقالُ في التهنئةِ بدخولِ العام

مثال أوّل:

جعلَ اللهُ ما تستقبلُهُ منْ عامِكَ، مبشِّراً بتمامِ إنعامِكَ، متّصلاً بموجباتِ إعظامِكَ، مقتضياً لنجاحِ مساعيكَ، وبلوغِ أمانيكَ، حتّى يكونَ دخولُهُ عليكَ، أسعدَ دخولٍ، ووصولُهُ إليكَ أحمدَ وصول.

مثال ثانٍ:

جعلَ اللهُ نعيمَكَ فيهِ زائداً على مَا قبلَهُ، مقصِّراً عمَّا يتلوهُ بعدَهُ، وأطلعَ شموسَهُ باتصالِ أنسِكَ، وأكملَ بدورَهُ بكمالِ قدركَ، وجعلَ ما يتوالى فيهِ منَ النعمِ عليكَ، دائماً لديكَ، موصولاً بالمزيدِ عندَك.

مثال ثالث:

جعلَ اللهُ أيَّامَ هذا العامِ مبشِّرَةً لكَ بأوفرِ الأقسامِ، منَ الإكرامِ والإعظامِ وصيَّرَهَا لَكَ، مشاهدَ أنسٍ وسرورٍ، وعيشٍ نضيرٍ، وعزٍّ خطيرٍ، ويسَّرَكَ فيهِ لأعمالٍ مقبولةٍ، وآمالٍ موصولةٍ، وأمهلكَ لتوبةٍ صادقةٍ، ونيَّةٍ لطاعتِهِ موافِقَة.

مثال رابع:

أهلَّ الهلالُ، ووضحَ الاستهلالُ، كما صحَّ لكَ الإقبالُ، فمنَ الحقِّ أنْ يُقَالَ، أدخلَهُ اللهُ عليكَ بسعادةٍ تدومُ، وأخرجَهُ عنكَ بغبطةٍ لا تريمُ، وأنارَهُ بتمامِ علاكَ، وآنسَهُ بوصولِ مناكَ، وأدامَ ذلكَ لكَ عاماً بعدَ عامٍ، إلى آخرِ الأيَّام.

مثال خامس:

عمرَ اللهُ أيَّامَهُ برياحِ ارتياحِكَ، ونوَّرَ لياليَهُ بمصباحِ نجاحِكَ، وأوجبَ ببدورِهِ بدارَ أمانيكَ إليكَ، وبشموسِهِ إشراقَ معاليكَ عليكَ، حتَّى يوافقَ فَأْلُنَا لكَ تصديقاً، وظنُّنَا بكَ تحقيقاً.

البابُ الثاني: في أمثلةِ اللقاءِ وتصنيفِ أهلِهِ في الدعاءِ

اعلمْ أنّ أمثلة اللقاء وإن كانت تتّصل ببعض ما مضى فلها مزيّة أخرى، لأنّ تلك تختصّ بالأوقات، وهذه أقرب إلى الحالات، ولذلك تعلّلنا في الدعاء باللقاء لنزيد المستفيد معنى، ونقدّم في تكثير المثالات يداً حسنى، وله أفردنا هذا الغرض بالتبويب، وقرنّاه بالأوّل في الترتيب، وبدأنا في أوّل الفصول بذكر أوصاف اللقاء دون تصنيف، ليكون لمصرفها في أصناف الباب عوناً على التصريف، والله يعين على حسن المبدأ والعقب، ويمنّ بتحسين ظنّ المتعقّب، ويجعل تعبنا سبباً لدعاء مقبول، ومثيراً لذكر جميل، ويصل لنا صدق النيّة، ببلوغ الأمنيّة، بمنّه إن شاء الله.

ما يقالُ في اللقاءِ عموماً دونَ تصنيفٍ:

مثال أوّل:

لقاؤُكَ يا سيِّدي منْ أكبرِ آمالي، إذْ بهِ صلاحُ أحوالي، ومشاهدتُكَ ممّا تشتهيهِ نفسي،إذْ بهِ يتمُّ أُنْسِي، وقربُكَ ممَّا أبتغيهِ، إذْ كلُّ مسرّةٍ فيهِ، فمنَّ اللهُ عليَّ بمواصلةِ لقائِكَ، معَ طولِ بقائِكَ، وبتمادِي مشاهدتِكَ، معَ تَأَتِّي إرادتِكَ، وبجميلِ تقريبِكَ، معَ بلوغِ مرغوبِكَ، وبطيبِ حضورِكَ معَ دفاعِ محذورِكَ، فإذَا كانَ ذلِكَ، فقدْ بَلَّغْتَ إليَّ ما اشتهيتُ، ونلتُ ما تمنّيتُ.

مثال ثان:

بلقائِكَ يا سيّدي انشرحتْ نفسِي، وبمشاهدتِكَ تمَّ أُنْسي، وكيفَ لَا يكونُ ذلكَ وعليكَ حططتُ رِحَالي، وإليكَ صرفتُ آمالي، فوجدتُكَ مُشْرقاً بتحفِّيْكَ، مسترقّاً بكريمِ تلقّيكَ، فَلا خلتِ الأيّامُ منْ طولِ بقائِكَ، ولا تأخّرتِ الأماني عنْ لقائِكَ، حتَّى يلينَ لكَ شديدُ مآربِكَ، ويقرّبَ بعيدُ مطالبِكَ، وتأتيكَ منها مَا لم تحتسبْهُ، ويتأَتَّى لكَ مَا لم تطلبْه.

مثال ثالث:

مَنْ يَتَلَقَّ سيِّدي فإنَّما يتلقَّى سرورَهُ، ومنْ يشاهدْهُ فإنَّما يشاهدُ تباشيرَهُ، لأنَّهُ نزهةُ

الملاقي بأدبِهِ، وشفاءُ المشاهدِ بكرمِهِ، فلا زالتِ الأيّامُ مأنوسةً بهِ، والأقدارُ منقادةً لهُ، حتَّى يوافيَهُ حظُّهُ الوافِرُ، ويأنَسَ بهِ مِنْ آمالِهِ المتنافِرِ.

مثال رابع:

إنِّي لأبتهجُ بلقائِكَ، أبهجَ اللهُ الأيّامَ بطولِ لقائِكَ، وتمامِ ارتقائِكَ، ودوامِ نعمائِكَ، وكَبْتِ أعدائِكَ، ولقَّاكَ بعيدَ آمالِكَ، وزادَ في صلاحِ أحوالِكَ، ونموِّ إقبالِكَ، فقدْ لاقيتَني بكريمِ التلقِّي، وتحفّيتَ بي أجملَ التحفِّي، وحقَّ لمنْ طابَ أصلُهُ، واستبانَ فضلُهُ، ألَّا يعدمَ متلقِّيْهِ جميلَ تلقِّيْهِ، ومُشَاهِدُهُ كريمَ مَشَاهِدِه.

مثال خامس:

عندَ لقاءِ مولايَ الأجلِّ تطربُ القلوبُ، ويتجلَّى المحبوبُ، وينأَى المحذورُ، ويدنو السرورُ، لأنَّهُ – أيّدَهُ اللهُ – يتلقَّى بالبِشْرِ، ويتصدَّى إلى البرِّ، ويقرنُ نهايَتَهُ بالعُذْرِ، ويحيي المجالسةَ بالمؤانسةِ، والمباحثةَ بالمحادثةِ، فكلُّ نفسٍ تصبُو إليهِ، وكلُّ أنسٍ يقفُ عليهِ، فأدامَ اللهُ بهِ للزمانِ زينَهُ، وصرفَ عنهُ كيدَ الحسودِ وعينَهُ، وبلَّغَهُ أبعدَ الآمالِ، وأسعدَ الأحوالِ، في عزٍّ لا يخونُ، وقَدْرٍ لا يهون....

البابُ الثالثُ : في شذورِ التهنئةِ بأحوالِ السرورِ

تهنئةٌ بخلافةٍ :

يَا أميرَ المؤمنينَ وخليفةَ المسلمينَ عادَ إلى الخلافةِ رونقُهَا، وانصرفَ عليهَا حقُّهَا، فلاحتْ مشرقةَ الفِنَاءِ، موثّقةَ البناءِ، مقرونةً بالنضارَةِ، محفوفةً بالغضارَةِ، فأدامَ اللهُ لأميرِ المؤمنينَ سعودَهَا، وأقامَ بهِ عمودُهَا، وعدَّلَ بعدلِهِ آفاقَهَا، وزادَ بإشراقِهِ إشراقَهَا، حتَّى يتّصلَ لهُ النورُ، ويكملَ لنَا بهِ السرور.

مثال ثان :

لِيَهْنِكَ يَا أميرَ المؤمنينَ بلْ يهنِي الخلافةَ العليّةَ، والأبّهةَ البهيّةَ، أنْ طلعتَ مِنْ مشارقِهَا، واستطلتَ بسُرَادِقِهَا، وجلستَ على منابِرِهَا، وانفردتَ بأوائِلِهَا وأواخرِهَا،

فلازالتْ معالِمُهَا بكَ مشهودةً، ومواسِمُهَا بأمانيكَ مقصودةً، وأعلامُهَا بسعدِكَ منشورةً، وأحكامُهَا بعدلِكَ مشهورةً، وجنودُهَا بنصرِكَ غالبةً، وأماني منْ يكيدُكَ فيها كاذِبَة، حتَّى تكونَ ساطعةَ الأنوارِ، محمودةَ الآثارِ، محروسةَ الأقطار.

مثال ثالث :

بهذهِ الخلافةِ الجديدةِ، والأيّامِ السعيدةِ أنارتِ الأرضُ، وأزهرَ الروضُ، وتجدّدَ الإسلامُ، واعتدلتِ الأحكامُ، لأنَّ أميرَ المؤمنينَ لمَّا طلعَ على آفاقِ مملكتِهِ طلوعَ النورِ، وجَرَى بهِ ملكُهُ في أفلاكِ السرورِ، استوضحَ كتابَ اللهِ، واستفتحَ باسمِ اللهِ، فعدَّلَ بعدلِ القضاءِ أقطارَهَا، وعمَّ بجزلِ العطاءِ أنصارَهَا، واختارَ منَ العلماءِ والزهّادِ، مَنْ يقومُ بمراعاةِ البلادِ، فليهنِ هذَا السنَا الباهِرَ، والثنَا الظاهِرَ، جميعَ المسلمينَ، والدنيا والدينِ، وعلى الكلِّ أنْ يتحرَّى مظانَّ القَبُوْل، حتَّى نقول، لا أوحشَ اللهُ درجاتِهِ مِنِ استيلائِهِ، وأيّدَ بالسعدِ استظهارَهُ، وأثبتَ في الرشدِ منارَهُ، فإنَّ ذلكَ سببٌ مؤيِّدٌ لتمامِهَا، وعونٌ مسعدٌ على دوامِهَا .

مثال رابع :

هَنِيْئاً لأميرِ المؤمنينَ، ولجميعِ المسلمين، انتهاؤُهُ إلى أعلَى مراتبِ الدنيَا والدين، وأمتعَهُ اللهُ بِمَا أشرقَ بهِ عليهِ، وأقبلَ بسعدِهِ إليهِ، وأدامَ عونَهُ بإقدارِهِ على القيامِ بأعبائِهَا، كما زادَ منْ سنائِهِ في سنائِهَا، وأطالَ مدّتَهُ في ظلالِهَا، ووصلَ إقبالَهُ بإقبالِهَا، حتَّى تجتمعَ لهُ السعودُ بأسرِهَا، وتتوافَ المسرّاتُ بوفرِهَا، وتتّصلَ لهُ وللأنامِ، نضارةُ الليالي بِهِ والأيَّام.

مثال خامس :

ليهنِ الملّةَ الإيمانيَّةَ، والدولةَ الفلانيَّةَ، أنْ أشرقَ أميرُ المؤمنينَ في آفاقِ خلافتِهَا بَدْراً، وطلعَ على آفاقِ مشكلاتِهَا فجْراً، فسرَّ ذلكَ المسلمينَ، وأبهجَ الدنيا والدين، فلَا أفقدَ اللهُ هذهِ الخلافةَ السعيدةَ بهِ تماماً ودواماً، ولا أعدمَ حاسديهَا وذوِي البغضِ فيها إعداماً وحِمَاماً، وأوضحَ في أقطارِهِ نورَهُ، ولأهلِيْها سرورَهُ، فإنَّ بأميرِ المؤمنينَ عظمُ شأنُهَا، واستتمَّ سلطانُهَا، وصحَّ افتخارُهَا، وحسنَتْ آثارُهَا....

البابُ الرابعُ: في فنونِ تسليةِ المحزونِ:

اعلمْ أنّ التسلية وسيطة بين التهنئة والتعزية، وكأنّ التسلية والتعزية اقتسمتا موضوعات التهنئة لأنّ التهنئة إنّما تكون لمسرّة انتقال من حال إلى حال، أو لاستفادة ذات أو مال، والتسلية ما كان عن استحالات تلك الحالات، والتعزية ما كان عن ذهاب هذه الاستفادات، من الأموال والذوات، وهذا اتفاق على الأكثر والأغلب، ولذلك صارت التسلية وسيطة بينهما، وربّما قربت من التهنئة لأنّ الأحوال سريعة الانتقال، والذهاب بطيء الانقلاب، وإذا بانت المعاني التي من أجلها فرّق بينها بهذه الأسماء صحّ الفهم لما ينفرد به كلّ اسم من المخاطبات، وهذا الذي قصدنا إليه، وقد لاح، والحمد لله كثيراً.

تسليةُ المعزولِ:

مثال أوّل:

حضرةُ سيّدِنا الجليلةُ – أعادَ اللهُ رونقَهَا، وملأَ بالعواقبِ الجميلةِ طرقَهَا – تجلُّ عنْ أنْ تلينَ لحادثٍ، أو تسكنَ ريحُ همِمِهَا لكارثٍ، فالأيّامُ قدْ تفرّقُ لتجمعَ، وتضعُ لترفعَ، والطاعةُ تحكمُ بالانقيادِ، كمَا قدْ تؤدّي بعواقِبِهَا إلى السَّدَاد.

وليسَ الصرفُ– أدامَ اللهُ عزَّ سيّدِنَا الأجلِّ–بوصمةٍ عنِ المصروفِ، ولَا في الوقوفِ، نقيصةٌ عنِ الموقوفِ، فخُطَّةُ المَكْرُمَاتِ منسوبةٌ إليهِ، لمْ يعدلْ بهِ عنهَا، ومحاسنُ المحامدِ معقودةٌ عليهِ، لمْ ينفصلْ منها، وقلوبُ الأنامِ، متعلّقةٌ بطيبِ تلكَ الأيّامِ، وعدلِ مَا جَرَى فيهَا منَ الأحكامِ، فهنيئاً لسيّدِنَا الأجلِّ اجتماعُ القلوبِ لموداتِّهَا عليهِ، واشتغالُ الألسنةِ بردِّ الثناءِ إليهِ، وهذهِ دلائلُ قربِ المُنَى، وشمائلُ جميلِ العُقْبَى، وأوائلُ حسنِ البُشْرَى، فنحنُ وجميعُ الآملينَ نشغلُ بالتهنئةِ عنِ التسليةِ، وبتقديمِ المقدّماتِ، لورودِ المبشّراتِ، يقيناً بأنَّكَ ابنُ بَجْدَتِهَا، جامعُ أزمَّتِهَا، ورَبُّ سعاداتِهَا، ومداوِي علَّاتِهَا، وقَدِ استشعرتِ النفوسُ أنَّ أميرَ المؤمنينَ أجلُّ مِنْ أنْ يتبدَّلَ، وأعلَى مِنْ أَنْ يتناقَضَ، ولعلَّ لهُ في ذلكَ رأياً رآهُ، تجملُ

عُقْبَاهُ، وإنْ لَمْ يُدْرَ معناهُ، فهذا الذي يسوّغُ فيهِ حكمُ النُّهَى أنْ يقالَ، وإلَّا فإنَّ أميرَ المؤمنينَ بفضلِهِ يريحُكَ في حالٍ، ويتعبُ في أُخْرَى.

مثال ثانٍ:

مولاي الأجلُّ – أَجَلَّ اللهُ مراتبَهُ وجمَّلَ عواقِبَهُ – يعلمُ بثاقبَ فهمِهِ، وسَعَةِ علمِهِ، أنَّ هذهِ الأيّامَ سريعةُ الانفعالِ، لَا تستقرُّ على حالٍ، وكلُّ مَا تبدَّلَ منها فعلى عادَتِهِ استمَرَّ، وبسجيَّتِهِ استظهرَ، وفي طريقِهِ سلكَ، وبحركاتِهِ تحرَّكَ، وليسَ مجيءُ الأوقاتِ، إلَّا لتبدُّلِ الحالاتِ، أوْ لتفريقِ الاجتماعِ، وليسَ لها نقلُ الطباعِ، ومولايَ وإنْ كانَ قدِ انتقلَ عنْ منازلِ التعبِ، فما انتقلَ عنْ مراتبِ الأدبِ، ومَا تفرَّقَتْ عنهُ إلَّا جموعُ الهمومِ، لَا جماعُ العلومِ، فالمناقبُ باقيةٌ، والمكارمُ باديةٌ، والمحامدُ متواليةٌ، والنفوسُ على تفضيلِهَا لهُ متماديةٌ، وإنَّما يتشرَّفُ بالولاياتِ، ويتبجّحُ بالتصرّفاتِ، مَنْ كانَ قدرُهُ منَ الاحتقارِ، يقلُّ عنِ الأقدارِ، وإلَّا فمولايَ قدْ كانَ شرفَ الجهاتِ، وعزَّ الولاياتِ، بمشهورِ فضائِلِهِ، وجلالةِ أواخرِهِ وأوائِلِهِ، فمَا ينصرفُ عنهُ أَوْلَى بالتسليةِ، ومَا يُقْبِلُ عليهِ أَحْرَى بالتهنيةِ، وهوَ – أيَّدَهُ اللهُ– بجميلِ مواهبِهِ، قدْ يعرفُ مِنْ حُسْنِ عواقبِهِ، مَا يوجِبُ أنْ يشرحَ لمثلِ هذا صدرَهُ، ولا يشغلُ بهِ سرَّهُ، فيهِ يتجمَّلُ الجمالُ، ويصلحُ الأحوالُ، ولَا أَخْلَى اللهُ مواسمَ المكارمِ منْ حضورِهِ، ومشاهِدَ الفوائِدِ منْ سرورِهِ، ولَا أعدَمَ فناءَهُ وفودَ الأمنياتِ، وورودَ البركاتِ، كمَا لَمْ يعدمْ حوباءَهُ كرمَ الشمائِلِ، وحللَ الفضائِلِ، وهذَا الذي لا عَزْلَ عنهُ وحسبُهُ بهِ خُطَّةً لَا يستطاعُ زوالَهَا.

مثال ثالث:

مجدُ مولايَ –أدامَ اللهُ بهاءَهُ، ولا كدَّرَ صفاءَهُ– أجلُّ، وقدرُهُ أفضلُ، ومكارمُهُ أوفرُ، ومناقبُهُ أكثرُ، مِنْ أنْ يحتاجَ إلَى التشريفِ، بولايةِ التكاليفِ، وخدمةِ التصريفِ، وإنَّمَا تحملُ الولاياتُ بواليهَا، وتحفظُ بمنْ يراعيهَا، وأحكامُ الطاعةِ، لمنْ يعتقدُ اتّباعَهُ، توجبُ الانقيادَ لمنْ يختارُهُ، وحسنُ الظنِّ بمَا يقعُ لهُ إيثارُهُ، فنحنُ نقطعُ أنَّ منْ قلَّدَهُ اللهُ الأحكامَ، وصرَّفَ على إرادتِهِ الأيَّامَ، وأمدَّهُ بالتوفيقِ، وأوقفَهُ على حقائِقِ التحقيقِ، لَا تتناقَضُ أفعالُهُ، ولَا

تضطربُ أحوالُهُ، فَمَا ولَّاكَ إلَّا وقدْ رآكَ أهْلاً، ولَا عزلَكَ وهوَ يريدُ أنْ يحرمَكَ فَضْلاً، فلَا نقصَ على مولايَ فيمَا أريحَ منهُ، ولَا عيبَ في مَا رفَّهَ عنهُ، ولمولايَ منَ المناقبِ، التي هيَ مِنْ أجلِّ المراتبِ، مَا قَدِ ارتفعَ عنِ الإدالةِ، وامتنعَ منَ الإزالةِ، فيهَا تدومُ ولايةُ الفخرِ، ولهَا يتمُّ حسنُ الذكرِ، وعليهَا تتّفِقُ النيّاتُ، وإليها تسرُّ الحَدَقَاتُ، ومَا سوَى ذلكَ فكمنزلِ مسافرٍ، ومحلِّ خاطرٍ، وهوَ — أدامَ اللهُ عزَّهُ — حليةُ المنازِلِ، وبهجةُ المناهِلِ، فبحلولِهِ فيهَا، تَشْرُفُ نواحيْهَا، فأطالَ اللهُ مدَّةَ حوبائِهِ، التي بتفضيلِهَا تُثْنَى الخناصرُ، ومدَّ في سعةِ أفنائِهِ التي هيَ للمكرماتِ مواردُ ومصادرُ، وأسرعَ إليهِ بوافداتِ المسرَّاتِ، وواردات الأمنياتِ، وأدامَ بهِ جمالَ المفاخرِ، وكمالَ المآثرِ، ولَا أزالَهُ عنْ ولاياتِهَا، ولَا أعدمَهُ مسرَّاتِهَا.

مثال رابع:

حاشَ لمولايَ— أدامَ اللهُ عزَّهُ — أنْ يحفَلَ بتخلِّيْهِ، عمَّا شاركَ فيهِ، أوْ يشغلَ بالاً بما رفّهَ عنْ تولِّيْهِ، وإنَّمَا ريبُ الولاياتِ، كالمناهلِ والمحلّاتِ، فمَنْ عَمَرَهَا بالعدلِ، ودبَّرَهَا بالفضلِ، وقامَ فيهَا المقامَ الحميدَ، وجعلَ سيرتَهُ الاعتدالَ والتسديدَ، ملأَهَا فخراً، وشرَّفَهَا ذِكْراً، وإلَّا فالمنازلُ لا تقدِّسُ نازِلاً، كَمَا لَا تدنِّسُ راحِلاً، فالحكمُ للفضائلِ، إذاً ومولايَ – – أيّدَهُ اللهُ– قدْ حازَ منْ ولايةِ التفضيلِ، مَا ليسَ عنهُ بمعزولٍ، فالمجدُ ثابتٌ لمْ يزَلْ، والفضلُ وافرٌ لمْ يَحُلْ، والذكرُ باقٍ على جمالِهِ، والقلوبُ واثقةٌ على إجلالِهِ، فالحمدُ للهِ الذي أفاضَ هذا الجمالَ عليهِ، وصرفَ وجوهَ المحامدِ إليهِ، وقرنَ محاسنَ معاليْهِ، بكريمِ مساعيْهِ، جمَّلَ اللهُ بالمكرماتِ فناءَهُ، وأبعدَ عنِ النائباتِ حوباءَهُ، ولَا أزالَ عنهُ ظلالَهُ، ولَا أعدمَهُ أفضالَهُ، ولَا زالَ رفيعَ المراتبِ، حميدَ العواقبِ، محروسَ الجوانبِ، في عزٍّ ينبسطُ شعاعُهُ، ومجدٍ لَا ينحطُّ ارتفاعُه.

مثال خامس:

لَئِنْ تَرَفَّهَ مولايَ– أطالَ اللهُ بقاءَهُ– عنْ مشاهدِ الأشغالِ، وترفَّعَ عنْ مباشرةِ كَدَرِ البالِ، فمَا تفرَّغَ منْ وفودِ الآمالِ، ولَا انفصلَ عنْ جلالةِ الأحوالِ، بسجاياهُ التي وُلِدَ بِهَا، ومكرماتِهِ التي نَشَأَ عليهَا، وسرورِهِ المعروفِ، وجودِهِ المألوفِ، وهذهِ هيَ المناقبُ التي تبقَى

ولَا تزولُ، والملابِسُ التي لَا تُنْضَى ولَا تَحُوْلُ، ومَا سِوَى ذلكَ فكمنازلَ حللتَ فيهَا، ثمَّ رحلتَ عنْ نواحيْهَا، وإنَّما يشرفُ المرءُ بالأصلِ، ويكرمُ بحسنِ الفعلِ، وإلَّا فَمَا للمكالِ، وتقديسِ الرجالِ، وهذا ينبّهُ الساهي، أنَّكَ أنتَ الجمالُ لَا هِي، لَا أخّرَ اللهُ عنْ مولايَ آمالَهُ، ولَا غيّرَ بمكروهٍ جمالَهُ، ولَا أحالَ إلَّا بِمَا يحبُّ حالَهُ، ولَا أزالَهُ عمَّا لمْ يزلْ فيهِ منْ مراتبِ الطاعاتِ، ومكاسبِ المكرماتِ، فهيَ التي بِهَا يتجمّلُ، وعليهَا كلُّ مَنْ آثَرَ التحقيقَ يُعَوِّلُ.

.....

البابُ السابعُ في أمثلةِ أصنافِ التعزيةِ

تعزيةٌ عنْ والدٍ

مثـال أوّل:

الأيّامُ –كمَا علمَ مولايَ حرسَ اللهُ حوباءَهُ مِنَ الغِيَرِ، وصانَ صفاءَهُ عنِ الكدرِ– رواحلُ سفرٍ، تسيرُ بالنفوسِ إلى المستقرِّ، سيراً سريعَ الذهابِ؛ والجسومُ كالهوادجِ والقبابِ؛ والكلُّ كائنٌ زائلٌ، ومقيمٌ راحلٌ، وعلَى الأيّامِ في هذَا التصرُّفِ، نوعٌ منَ التخفيفِ، مُفْنٍ لمادَّتِهَا، ومستأْصِلٌ لشأفَتِهَا، وهيَ أسبابُ ذهابٍ وإذهابٍ، وعللُ قلبٍ وانقلابٍ؛ ومَنْ تأمّل تغيُّرَهَا في ذاتِهَا، وتغييرَهَا لِهِبَاتِهَا، لمْ تعظمْ عليهِ الكُرُبَاتُ، ولَا نَهْنَهَتْهُ النكباتُ، بلْ أنارَ في دجَى الأحزانِ، بِسَنَا السلوانِ، ونَهَى بالنُّهَى،بوادرَ الأسَى، وبادرَ عندَ أوّلِ الوهلةِ، برفضِ الذِلَّةِ في الغَفْلَةِ، وعلمَ أنَّ الاشتمالَ بالصبرِ عزٌّ، وأنَّ تأخيرَهُ خَوَرٌ وعجزٌ. عَزَاءً أعزِّيْهِ بِهِ عَنْ أبيهِ، وإنْ كانَ لي أجزلُ نصيبٍ فيهِ، فإنَّهُ لمَّا قرعَ سمعيَ نعيُهُ، نَوَّرَ اللهُ ضريحَهُ وأسعدَ مصيرَهُ، بُهِتُّ فاضطربْتُ، وأخرسْتُ أوْ كدْتُ، وأشرفْتُ على المنيَّةِ أَوْ مِتُّ؛ ولَا غروَ فحياةُ الفجيعةِ موتُ، وحضورُ الكريهةِ فوتُ، والبقاءُ معَ النَّكَدِ، عِلَّةٌ في الخلدِ والجسدِ، لكنِّي تداركتُ أمري، وداريتُ مَا جاشَ في صدرِي، وتيقّنْتُ أنَّ آخرَ الوجودِ الزوالُ، وأنَّ غايةَ الجرحِ الاندمالُ، وأنَّهُ لا بدَّ بعدَ انتهاكِ الوجدِ للصورةِ، منَ التعزِّي بحكمِ الضرورةِ، معَ الحصولِ على تسخُّطِ القضاءِ، والتعرّضِ لخسرانِ المثوبَةِ والجزاءِ.

ولمَّا أَبَلَّ جسمِي قليلاً، واستفاقَ مستقيلاً، حملتُ هذهِ الكلماتِ دواءً، وخبرتُهَا شفاءً، فحبَّرتُها عزاءً، وبعثتُهَا إِلَى حضرةِ مولايَ فعَسَى أَنْ تطفِئَ نارَهُ، وتسكِّنَ أُوَارَهُ، وترفعَ في التأسِّي منارَهُ، وتصرِّفَ نفسَهُ إلى سجيَّتِهَا مِنَ الحَزْمِ، في التجلُّدِ والعَزْمِ، موقناً أنَّ كتابيَ لَا يَرِدُ إلَّا وقدْ نظرَ أبعدَ ممَّا نظرتُ، واستبْصَرَ أكثرَ ممَّا استبصرْتُ؛ ولكنَّهَا مشاركةُ أهلِ الودادِ، ومذاكرةُ ذوي الاعتقادِ، سدَّدَ اللهُ خللَ مصابِهِ، بجزيلِ ثوابِهِ، وأنارَ ظلمةَ فكرِهِ، بنورِ صبرِهِ، وأدامَ كَبْتَ عدوِّهِ، بنموِّ عُلُوِهِ، وأرقاهُ مراقيَ أبيهِ، في مجدِهِ ومعالِيْهِ، وخَصَّ أبَاهُ، في أخراهُ بمَا يتمنَّاهُ، مِنْ طيبِ المَثْوَى، في جنَّةِ المأوَى، فلقدْ كانَ كثيرَ الفواضلِ والفضائلِ، حميدَ الشواهدِ والمشاهدِ.

مثـال ثانٍ:

مولايَ – قوَّى اللهُ صبرَهُ، وأجزلَ في هذَا المصابِ أجرَهُ – يعلمُ أنَّ النفوسَ ذخائرُ الأيّامِ، في هذهِ الأجسامِ، وعرضٌ لسهامِ الأقدارِ، عندَ حلولِ المقدارِ، والأمرُ حينَ يَعُمُّ لَا يَغُمُّ، ومَا يُستطاعُ فيهِ الدفاعُ، فالسلوُّ عنهُ، تخفيفٌ منهُ، والشغلُ بهِ، تأكيدٌ لهُ؛ وحَسْبُ أُوْلِي العزمِ، مبادرةُ الحزمِ، في حسمِ مادَّةِ التبلُّدِ، بمبادرةِ التجلُّدِ، ومقابلةِ وافدِ الأجرِ، بوافرِ الصبرِ، فراراً عنِ الغرورِ، بتسخُّطِ المقدورِ، وبُعْداً عنِ اقترانِ، صنفَي الخسرانِ، مِنْ رُزْءِ المصيبَةِ، وفَقْدِ المثوبَةِ.

واستشعارُ هذهِ الآدابِ، مِنْ أقوَى أسبابِ الاحتسابِ، عندَ ورودِ المصابِ؛ وإلَّا فإنَّ الرَّزِيَّةَ بأبيهِ– قدَّسَ اللهُ روحَهُ، وأوسعَ عليهِ ضريحَهُ– لَا يَفِي بِهَا انتهاكُ النفيسِ، ولَا يبلغُ كُنْهُ واجبِهَا استهلاكَ النفوسِ.

فقدْ كانَ فخراً للملوكِ، وذُخْراً للشريْكِ، وعِزّاً للذليلِ، وبُرْءاً للعليلِ، وزَيْناً للعُلَا، وسَبَباً مِنْ أسبابِ المُنَى؛ ولكنْ إذَا كانَ خَدُّ الخدودِ، ولبسُ الملابِسِ السّودِ، وقَدُّ القلوبِ، وشقِّ الجيوبِ، وسائرِ تلكَ الضروبِ، لَا يردُّ مَا فَاتَ، ولَا ينفعُ مَنْ مَاتَ، فقدْ وجبَ إيثارُ البدارِ، إِلَى حسنِ الاصطبارِ، واغتنامِ جزيلِ الجزاءِ، في جميلِ العَزَاءِ، وعنهُ أخذتُ هذهِ الكلمةَ، ومنهُ اقتبسْتُ هذهِ الحكمةَ؛ وإنَّمَا رددْتُهَا إليهِ، وعرضتُهَا عليهِ، لأستوعِبَ مراتبَ

الخَدَمِ، فِي استعمالِ القَدَمِ والقَلَمِ؛ وإلَّا فمولايَ أقوى بصيرةً، وأجملُ سيرةً، وأصحُّ نَظَراً، وأوضحُ أَثَراً، مِنْ أَنْ نذكِّرَ منهُ، ناسِياً أوْ ننبِّهَ ساهِياً، وفي بقائِهِ- أيّدَهُ اللهُ – أفضلُ بَدَلٍ، مِمَّنْ أَفَلَ، وأكرمُ خَلَفٍ، لِمَنْ سَلَفَ، يُحييْ مفاخرَهُ، ويُبْقِي مآثرَهُ، ويرومُ مَا اخْتَلَّ، ويشيِّدَ مَا انحَلَّ ، حتَّى يعودَ النظامُ، ويتّسقَ الالتئامُ، وبحولِ اللهِ، إنْ شاءَ اللهُ، لَا زالَ مولايَ في كنفٍ عَنِ المكروهاتِ كثيفٍ، وحصنٍ مِنَ السعاداتِ منيفٍ، مخصوصَ الجنابِ، بحسنِ الثوابِ، سَالِكاً مسالِكَ الآباءِ، في اقتناءِ الثناءِ، وابتناءِ العلياءِ، فيصبحُ نورَهُ، ويجتني ظلمَ محذورِهِ، وبحسنِ اقتدائِهِ، يلتئمُ جرحُ دائِهِ، وبجميلِ اصطبارِهِ، تُحمدُ جميعُ آثارِهِ، والسَّلَام.

مثال ثالث:

نحنُ – معشرَ هذا النوعِ المركَّبِ – موضوعُ أمرِنَا المعتادِ، عنِ الكونِ والفسادِ، ندورُ في فَلَكِ الانتقالِ، مِنْ حالٍ إلى حالٍ، ونتحوَّلُ في تقلُّبِ الأسفارِ، مِنْ دَارٍ إلى دَارٍ، ومَنْ تأمّلَ ذلكَ في النشأةِ، وتقرّاهُ منْ أوّلِ البَدْأَةِ، لم تخفَ عليهِ مراتِبُهُ، ولَا احتجبَتْ عنهُ عوارِفُهُ، وكلُّهَا شاهدٌ على لزومِ الاستقرارِ، في غيرِ هذهِ الدارِ؛ وإذَا علمَ ذلكَ لمْ يذمَّ الزمانَ، فيمَا كانَ، فإنَّ لهُ حظّاً منَ الفناءِ، وتفسّحِ الأرجاءِ؛ وكلُّ فانٍ فبفناءِ زمانِهِ فَنِي، وعندَ انقضاءِ أوانِهِ طُفِي؛ ولَا تدبيرَ، إلَّا لمنْ رتَّبَ هذا التدبيرَ، فمِنَ الحقِّ الاستسلامُ، لِمَا تجري بهِ الأحكامُ، لاسيَّمَا فيمَا يقتضيهِ الأصلُ، ويستوي فيهِ الكلُّ، وإنَّما يقعُ الفرقُ بينَ المتسخِّطِ والراضي، باستدراكِ التجلّدِ والتغاضِي؛ ولولَا ذلكَ لكانَ هذا الرزءُ العظيمُ، والخطبُ الأليمُ، أحقَّ بالعويلِ والبكاءِ، والاستهلاكِ في طردِ العزاءِ، والارتقاءِ إلى كلِّ نوعٍ من البُرحاءِ، والسلوكِ في كلِّ أسلوبٍ، أهونُهَا شقُّ الجيوبِ، وقَدُّ القلوبِ، وكانَ قليلاً في مصابِ مَنْ كانَ بنورِ التُّقَى مستنيراً، ولرأيِ النُّهَى مستشيراً، وبحكمِ النَّدَى حَاكِماً، وبتمهيدِ العُلَا عالماً، وبجمالِ كلِّ جميلٍ متجمِّلاً، ولمحاسنِ أحسنِ الأخلاقِ مستعمِلاً؛ فعرّفَهُ اللهُ بركةَ مَا صارَ إليهِ، وعجَّلَ بأتمِّ الرِّضَا والفوزِ عليهِ، ووفَّرَ حظَّ مولايَ مِنْ حَسَنِ الجزاءِ، على جميلِ العزاءِ، وأشرقَ بهِ في مطالعِ أبيهِ، واستدرَكَ بهِ لَمَّ مَا شعثَ مِنْ ذويْهِ؛ ففي بقائِهِ جبرُ الصدوعِ، وعِزُّ الجميعِ.

مثال رابع:

أحكامُ هذهِ الشريعةِ على الإنسانِ كالحظيرةِ بصرفِهِ عنِ الاعتباطِ، بعواقبِ التسخُّطِ والإسخاطِ، وتحملُهُ على استدراكِ التبلّدِ، بإيشاكِ التجلُّدِ، استسلاماً لقضاءِ باريهِ، واغتناماً لرضاهُ فيهِ، وتخفيفاً لأعباءِ مَا لَا يُجدي مِنَ الكَمَدِ، عَنِ النفسِ والجَسَدِ، وإلَّا فلوْ كانَ لعظيمِ البكاءِ نفْعٌ، ورُجِيَ بهِ لأهلِ الفناءِ رجعٌ، لكانَ هذا الرزءُ الذي عَمَّ الكلَّ، وخصَّ مولايَ الأجلَّ- قوَّى اللهُ صبرَهُ، وضاعَفَ أجرَهُ – أَحَقَّ رزءٍ بالتهالكِ، وأبعدَهُ عنِ التماسكِ، ولَمَا انفردَ في ذلكَ ذووهُ، ولَا اختصَّ بهِ أهلوهُ، بَلْ شاركَهُمْ فيهِ الأبعدُ، وساعدَهُمْ عليهِ مِنَ العُلا مُسْعِدٌ، ولكانَ في جوانبِ العالمِ مآتِمُ، وقامَ فيهِ لجميعِ الفضائلِ مواسِمُ؛ فلكلِّهَا حظٌّ مِنْ حزنِهِ، كمَا كانَ لهَا حظٌّ منْ حُسْنِهِ؛ ولكنَّ البكاءَ لَا يردُّ ذاهباً، ولا يصرفُ بعدَ موتِهِ غائباً؛ فالعزاءُ إذاً أولى، والتمسّكُ بالرشدِ فيهِ أَعْلَى؛ ومولايَ- أكَّدَ اللهُ بصيرتَهُ بتمكُّنِهِ في العلومِ – أعلمُ بهذهِ الرسومِ؛ وإنَّمَا نتسببُ بِهَا إلى مشاركتِهِ، ونذاكرُهُ بحظِّنَا منْ مساهمتِهِ؛ وفي بقائِهِ لكلِّ خَلَلٍ سدادٌ ، وفي كلِّ أملٍ استعدادٌ، وعندَ كلِّ ملمَّةٍ عزاءٌ، ولدَى كلِّ مظلمةٍ ضياءٌ؛

فَفِي الحَقِّ أَنْ يُصْغِي إِلَى السَّلْوَةِ السَّمْعُ فَمَا مَاتَ أَصْلٌ أَنْتَ مِنْهُ لَنَا فَرْعُ

أورثَ اللهُ مولايَ علاهُ ومجدَهُ، وأحسنَ بِهِ الخلافَةَ علينَا بعدَهُ، ومنحَهُ أفضلَ الجزاءِ، عَلَى جميلِ العزاءِ، ولَا ذَعَرَهُ بعدَ هذهِ الكريهةِ بمكروهٍ، وعَجَّلَ علَى المتوفَّى بحسنِ المآبِ، وكريمِ الثوابِ، وتلقَّاهُ بما يرضاهُ منْ رضاهُ، وأوسَعَ عليهِ مَا يخافُ ضيقَهُ، ويَسَّرَ إِلَى درجاتِ الجنَّاتِ طريْقَهُ.

مثال خامس:

مَنْ تأمَّلَ الزمانَ ومَا فيهِ، وتتبَّعَ جميعَ عواقبِهِ ومبادِيْهِ، وجدَ كلَّ ذلكَ مقروناً بتناهِيْهِ، مِنْ مبدأِ الفلكِ إِلَى مركزِهِ، ومِنْ أوّلِ الزمانِ إِلَى آخِرِهِ؛ لَا بُدَّ مِنْ زوالٍ، وانتقالٍ، حالاً بعدَ حالٍ. والبقاءُ ههنا بالوجودِ، غيرُ موجودٍ؛ وإنَّمَا نحنُ – معشرَ الأنامِ- في أحلامِ منامٍ، واليقظةُ في تلكَ الدارِ، عندَ الاستقرارِ؛ ومَا هَهُنَا إلَّا يدٌ تَغْرُسُ، وحالٌ ينكُسُ، وعمرٌ يَمُرُّ،

ودهرٌ لَا يستقرُّ؛ فقدْ صحَّ عمومُ الاشتراكِ، في أسبابِ الهلاكِ، وذلكَ عندَ التحصيلِ، أَدَلُّ الدليلِ؛ عَلَى قلَّةِ غناءِ البكاءِ والعويلِ، ولولَا ذلكَ لكانَ مصابُ مولايَ الأجلُّ بوالدِهِ- أوسعَهُ اللهُ غفرانَهُ، ولقّاهُ رضوانَهُ- يقلُّ فيهِ أنْ تُظلمَ الآفاقُ، ويعدمَ الإشراقُ، وتتحرّقُ الضلوعُ بنارِهَا وتذوبُ القلوبُ عنْ أوارِهَا، وتقومُ في مشاهدِ المعارفِ أنواحٌ، ويُحرّمُ بعدَهَا على النفوسِ الارتياحُ؛ فقدْ كانَ لهُ في كلِّ مكرمةٍ عَلَمٌ، وإلى كلِّ فضيلةٍ أممٌ، ومنْ كلِّ مجدٍ مكانٌ، وفي كلّ حمدٍ لسانٌ.

واللهُ حسبُنَا فيهِ، وفي ذويهِ وأهليهِ، وفي بقاءِ مولايَ الأجلِّ أكرمُ عِوَضٍ منهُ، وأتمّ أنسٍ عنهُ، ولَا عزاءَ فيهِ إلَّا بهِ، ولَا تعويلَ إثرَهُ إلَّا عليهِ؛ لَا كشفَ اللهُ عنهُ بعدَهُ ظلّاً، ولَا أعدمَهُ منهُ فضلاً، وألبسَهُ منْ حسنِ العزاءِ أثواباً، ولَا أغلقَ عنهُ منْ توفيقِهِ بَاباً.

...

البابُ الثامنُ: في مفرداتِ نوادرِ المخاطبات

مثالٌ أَوَّلُ :حضرةُ الخلافةِ الثابتةِ الأركانِ، المشيَّدَةِ البنيانِ، بسطَ اللهُ نورَهَا، وأدامَ سرورَهَا، مِنْ كمالِ الحسنِ والجمالِ، وتتابعِ السعدِ والإقبالِ، في حالةٍ ببهائِهَا حاليةٍ، وجلالةٍ بسنائِهَا متناهيةٍ؛ فكلُّ مَا يردُ منَ الآلاءِ، ويتردَّدُ مِنَ النَّعْمَاءِ، فقدْ كانتْ دلائلُ الأوائلِ بهَا شاهدةً، ومخائلُ الفضائلِ إليهَا قائدةً، وكتابُ عبدِهَا وخادِمِهَا، وغريقِ منِنِهَا ومكارِمِهَا، نَفَذَ مِنْ موضعِ"كَذَا"، مِنْ أعمالِهِ بالصعيدِ يومَ "كَذَا"،وقَدِ انتهَى النيلُ المباركُ بِهَا إِلَى مَا عُهِدَ مِنَ النِّهايةِ، وأربَى ببركاتِ أميرِ المؤمنينَ عَلَى تلكَ الغايَةِ،وشمائِلُهُ ضافيةٌ للنَّمَاءِ، موجبةٌ للسَّرّاءِ، ولهَا صارَ الكلُّ عندَنَا مِنَ الارتياحِ، بتمامِ النجاحِ، وعقبَى الفلاحِ، في أعراسٍ تهتزُّ بِهَا الأوقاتُ، وترتَّجُ لهَا الجهاتُ، وتتّصلُ بِهَا الأدعياتُ، فأدامَ اللهُ لأميرِ المؤمنينَ بهجةَ هذَا البهاءِ، ورفعَ إليهِ فيهِ صالحَ الدعاءِ، وأمدَّهُ بالازديادِ، ومكَّنَ لَهُ فِي البلادِ لَا زالتْ أشجارُ مشاهِدِ سعدِهِ، تثمرُ بالمنَى، وأنوارُ أهلَّةِ مجدِهِ؛ تتّصلُ بالعُلَا، وأيّامُهُ تزدادُ حُسْناً، وأقطارُهُ تمتلئُ أمناً، حتَّى يكونَ زمانُهُ في الأزمانِ، يُخْتَصُّ بالحُسْنِ والإحسانِ، ويستهلُّ إليهِ الثَّقَلَانِ.

مثالٌ في الاعتذارِ عَنِ الامتناعِ منْ حضورِ الوداعِ

أنَا وإنْ امتنعتُ، قَرَّبَ اللهُ لي مُنَايَ ، بإيابَ مولايَ، مِنْ شهودِ مشهدِ الفراقِ، فَمَا قدرتُ على الامتناعِ منْ نفوذِ أحكامِ الاشتياقِ؛ فقدْ كَلَّفَنِي مِنْ عدمِ الأنسِ، مَا لَا مزيدَ فيهِ علَى النفسِ؛ ولَمَّا بلغتُ إِلَى هَذَا الحَدِّ، رأيتُ أنْ التخفيفَ عنهُ منَ الرُّشْدِ، إِذْ لَمْ يَكُنْ هَذَا عندي إِلَّا ولديْهِ مثلُهُ ولَا تمكّنَ منِّي إِلَّا وعندَهُ أصلُهُ ، فلوْ حضرتُهُ لنفقتْ لنَا سُوْقُ الأَسَى، واشتعلتْ بينَنَا نيرانُ الجَوَى، وقامَتْ مآتمُ همومٍ، لا تنجلِي إِلَّا عَنْ قتيلٍ أَوْ مكلومٍ وقَدْ كانَ في نظرِي إليهِ وحضورِي، نوعٌ مِنْ قضاءِ وَطَرِي وسرورِي ؛ ولكنَّنِي خفتُ الأَشَدَّ فَخَفَّفْتُ، وراعَنِي مَا توهَّمْتُهُ فأمسكْتُ؛ وإِنَّمَا أتعلَّلُ بعدَهُ وأتجمَّلُ بأنَّ الحياةَ- مَا دامتْ- مسرحٌ للِّقَاءِ، وإِنْ كنَّا مِنَ الكَدَرِ في عَنَاءٍ. ولِمَ لَا يكونُ مَنْ فَقَدَ مِنْ مولايَ نضارةَ مُجَالَسَتِهِ، وفارقَ محاسنَ مؤانسَتِهِ، قرينَ أَسَفٍ، وخَدِيْنَ لَهَفٍ ، وطليحَ اشتياقٍ، ووقيدَ إشفاقٍ؟ ويحقُّ لي أَنْ أَصِفَ حالي بِمَا أنشدنِيْهِ الإمامُ أبُو محمَّدٍ اليزيديِّ لِنَفْسِهِ :

صَارَ نَهَارِي بَعْدَكُمْ مُظْلِماً ... وكَانَ لَيْلِيْ مَعَكُمْ مُشْرِقَا

وَالشَّرْقُ إِذْ بُوْعِدْتُمُ مَغْرِبُ ... وَالغَرْبُ قَدْ كَانَ بِكُمْ مَشْرِقا

أَعُدُّ شِبْراً عِنْدَكُمْ وَاسِعاً ... وَالجَوَّ مِنْ بُعْدِكُمْ ضَيِّقَا

إِنِّيَ مِنْ وَجْدٍ بِكُمْ نَازِلٌ ... فِي مَنْزِلٍ مَا فَوْقَهُ مُرْتَقَى

فإنْ رَأَى مولايَ العذرَ بهذا التَّعَذِّرِ، مُبِيْحاً للتأخُّرِ، أَمْسَكَ بذلكَ رَمَقِي، وإِلَّا أسرعتُ إليهِ مَا امتدّ بي طَلَقِي، ورضيتُ حينئِذٍ أنْ أبوءَ بهذَا الألمِ، وأنْ أفديَهُ مِنْ عاقبةِ التوهُّمِ، وعبُدُهُ على كلِّ حالٍ واقفٌ بينَ التقديمِ والتأخيرِ، ممتثلٌ لِمَا يأمرُ بهِ مِنَ السلامَةِ أوِ التَّعْزِيْرِ، هَيَّأَ اللهُ لمولايَ أسبابَ السرورِ، وسَدَّ عنهُ أبوابَ المحذورِ، وأصحبَهُ في هذَا المسيرِ، كلَّ تيسيرٍ، وقرنَ لهُ بكلِّ نِيَّةٍ أمنيَّةً، وجعلَ لهُ في كلِّ حَرَكَةٍ بَرَكَةً، وأسرعَ بِهِ بعدَ تمامِ أملِهِ، إلى مَنْ لَا يشغلُ إِلَّا بِهِ فكرَهُ ، ولَا يقطعُ إِلَّا بذكرِهِ دهرَهُ، حتَّى يعودَ فِي المشاهدِ نورُهَا، ويتمَّ لَهَا بِهِ سُرُوْرُهَا.

رسائل إخوانيّة لابن خفاجة

- **– الرسائل الإخوانيّة مع الأمراء والوزراء:**

١– الشكر

وكتب في هذا الأمر عن أهل البلد[١] إلى أمير المسلمين[٢] وناصر الدين، يشكره على ذلك، أيّده الله ونصره[٣]:

كِتَابُنَا هَذَا مِنَ المَسْجِدِ الجَامِعِ –عَمَّرَهُ اللهُ بِذِكْرَاهُ– وَقَدْ حَضَرَهُ المَلأُ – أَكْرَمَهُمُ اللهُ بِتَقْوَاهُ– تَطَلُّعاً إلى مَا وَرَدَ بِهِ الكِتَابُ العَزِيزُ فِي جِهَةِ قَاضِي القُضَاةِ[٤] –وَصَلَ اللهُ تَوْفِيقَهُ– فَمِنْ أَسْمَاعٍ تُنْصَبُ وَتُؤَلَّلُ[٥]، وَمِنْ أَوْجُهٍ تَسْتَشْعِرُ المسَرَّةَ فَتُهَلِّلُ، فَمَا تُلُقِّيَ مُفْتَتَحاً بِمَا يَلْزَمُ مِنَ الإجْلالِ والاهْتِبَالِ[٦]، حَتَّى قُفِّيَ مُخْتَتَماً بِمَا يَتَعَيَّنُ مِنَ الدُّعَاءِ والابْتِهَالِ. فَمَا شِئْتَ مِنْ بَاسِطٍ إلى اللهِ كَفَّهُ، وَرَافِعٍ نَحْوَ السَّمَاءِ طَرْفَهُ، يَدْعُو لأَمِيْرِ المُسْلِمِينَ دُعَاءً مَوْصُولاً، خَلِيقاً أَنْ يَكُونَ مِثْلُهُ مَقْبُولاً، وَإلَى الإجَابةِ مَنْسُوباً، وَفِي عَمَلِ البِرِّ مَحْسُوباً.

فالحَمْدُ للهِ عَلَى نُعْمَى شَمِلَتْ، وَرُحْمَى نَزَلَتْ، فَوَقَعَتْ وُقُوعَ القَطْرِ، وَطَلَعَتْ طُلُوْعَ هِلال الفِطْرِ، وَأَطْلَقَتِ الأَلْسِنَةَ بِثَنَاءٍ، لا تَعْثُرُ فِيهِ باسْتِثْنَاءٍ، فَهِيَ بَيْنَ إعَادَةٍ لَهُ وَابْتِدَاءٍ، وَاشْتِمَالٍ[٧] بِهِ وَارْتِدَاءٍ.

---

١ – المقصود بلنسية .

٢ – هو أمير المسلمين علي بن يوسف بن تاشفين .

٣ – الديوان (طبعة د.غازي) : ١٦٩–١٧٠.

٤ – هو القاضي ابن عصام، انظر الصفحة : ١٤٧ من كتاب ابن خفاجة وما بعدها .

٥ – تؤلّل : تجتهد وتحافظ عليه .

٦ – الاهتبال : الاستعداد والاغتنام .

٧ – اشتمل بالثوب: أداره على جسده، كلّه حتّى لا تخرج منه يده .

وَالرَّبُّ – عَزَّ وَجَلَّ– يَذْخَرُ[1] لِأَمِيْرِ المُسْلِمِيْن، وَناصِرِ الدِّيْن، مَا سَدَّ مِنْ ثَلَمٍ[2]، وَطَبَّ مِنْ كَلَمٍ[3]، وَأَقَامَ مِنْ أَوَدٍ[4]، وَنَظَمَ مِنْ بَدَدٍ[5]، وَيَخْضِدُ[6] بِهِ شَوْكَةَ الأَعْدَاءِ، وَيَحْصِدُ، وَيَشْرَحُ صُدُورَ الأَوْلِياءِ، وَيَفْسَحُ، وَيَقْمَعُ عَبَدَةَ الأَصْنَامِ، وَيَرْدَعُ، بِقُدْرَتِهِ البَاهِرَةِ، لَا إِلَهَ سِوَاهُ».

٢– التهنئة والمديح

وكان أبو بَكرِ بنُ الحَاجِّ– رحمه الله– جليلاً ، وكان بينه وبين ابنِ خَفَاجَةَ اتصال اقتضى مخاطبته خلال كونه خارج بَلَنْسِيَةَ، فقال: وكتب بها إليه ، عِند صرف أبِي مُحَمَّدِ بنِ فَاطِمَةَ عنها– رحمه الله– وولاية أبيه إيّاها:

لِـذِكْرِكَ مـا عَـبَّ الخَلِـيجُ يُصَـفِّقُ وَبِاسمِـكَ مـا غَـنّى الحَمـامُ الـمُطَوَّقُ

...

أَطَالَ اللهُ –أَيُّهَا السَّيِّدُ الأَوْحَدُ– بَقَاءَكَ، كَمَا وَصَلَ عِزَّتَكَ وَارْتِقَاءَكَ، وَأَسْمَى مَرَاتِبَكَ وَعُلاكَ، كَمَا أَسْنَى مَنَاقِبَكَ وَحُلاكَ، وَأَخْلِقْ بِهَا مِنْ دَعْوَةٍ هَتَكَتْ حِجَابَ الظَّلْمَاءِ، وَقَرَعَتْ بَابَ السَّمَاءِ أَنْ تَثْبُتَ هُنَالِكَ مَعَ المَجَرَّةِ سَطْراً، وَتُكْتَبَ فِي دِيْوَانِ القَبُولِ صَدْراً، فَإِنَّهَا عَنْ قَلْبٍ كَرُمَ فِي مُشَايَعَتِكَ سِيرَةً ، وَخَلُصَ فِي جِهَتِكَ عَقِيدَةً وَسَرِيرَةً، حَتَّى لَسْتُ أَدْرِي أَضَمِيرٌ، أَمْ مَاءٌ نَمِيرٌ، وَهَلْ مِنْ مَحِيدٍ، عَنْ هَوَى أَرْوَعَ وَحِيدٍ؟، أَرَى بِهِ الفَضْلَ قَدْ مَثَلَ صُورَةً، وَالنُّبْلَ قَدْ أُنْزِلَ سُوْرَةً، وَالصُّبْحَ يَتَبَلَّج بَاسِماً، والرَّوْضَ يَتَأَرَّجُ نَاسِماً .

---

١ – ذخر الشيء: خبّأه لوقت الحاجة وأبقاه .

٢ – الثلم : المكسور حرفه، والثلمة : الموضع المكسور والمهدوم .

٣ – الكلم : الجراح .

٤ – الأود : الاعوجاج .

٥ – في ل : برد *.

والبدد : المفرّق .

٦ – في ب : تخضد* . وخضد الشوك : نزعه .

فَهَنِيئاً لِتِلْكَ الدَّوْلَةِ الـمَيْمُونَةِ أَنَّكَ عَلَمُ رِدَاءٍ، ذَلِكَ الرُّوَاءِ، وَوُسْطَى قِلادَةِ، تِلْكَ السِّيَادَةِ. وَأَحْرِ بِمُلْكٍ خَلَعَ عَلَيْكَ نِجَادَهُ، وَأَوْطَأَ عَقِبَكَ أَمْجَادَهُ، وَأَتْبَعَ رَأْيَكَ وَرَايَتَكَ أَنْجَادَهُ، أَنْ تَنْثَنِيَ أَعْطَافُهُ عِزَّةً، وَتَحْتَمِيَ أَطْرَافُهُ نَجْدَةً، وَيَسْتَقِلَّ عَلَى قَدَمٍ بِهِ النَّصْرُ، وَيَبْتَسِمَ عَنْ ثَغْرٍ إِلَيْهِ الثَّغْرُ، وَيَطْلُعَ مِنْ تُجَاهِهِ الفَتْحُ؛ يَنْدَى جَبِينُهُ عَرَقاً، وَيَمِينُهُ عَلَقاً، وَقَدْ قَامَ عَلَى قَدٍّ مِنَ الرُّمْحِ رَطِيبٍ، وَسَفَرَ عَنْ خَدٍّ مِنَ السَّيْفِ خَضِيبٍ، وَخَفَقَ جَنَاحُ العَلَمِ سُرُوراً، وَنَطَقَ لِسَانُ القَلَمِ صَرِيراً. وَهُوَ- تعالى- يَنْقَعُ بِكَ ظَمَاءهُ، وَيَرْتَجِعُ بِيُمْنِكَ ذَمَاءهُ، لا حَوْلَ إِلَّا بِهِ، وَلَا طَوْلَ إِلَّا لَهُ»[1].

٣- العتاب

وقد تكون هذه الرسائل توضيحاً لأمر معيّن أو تأكيداً لطلب محدّد لمّح إليه في القصيدة كما رأينا سابقاً في قصائده للأمراء إبراهيم وتميم وابن تيفلويت[2].

«وقال يستنجز ميعاداً تكرّر في جهته، من الأمير أبِي إِسْحَاقَ، ابن أمير المسلمين-أيّده الله- يحمله في جميع شؤونه على الأفضل الأجمل، وكتب بها إليه بإِشْبِيْلِيَّة ، في شوَّال سنة أربع عشرة وخمسمئة:

أَلا تَلْعَـــةٌ مَطْلُولَـــةٌ وَقَبُـــولُ فَيَنْـــدَى صَـــبَاحٌ أَوْ يَـــرِقَّ أَصِـــيْلُ

...

الأَمِيْرُ الأَجَلُّ الأَوْحَدُ- أَيَّدَ اللهُ سُلْطَانَهُ، وَفَسَحَ للأَكَارِمِ أَعْطَانَهُ[3]، وَعَمَرَ بِاتِّسَاقِ السَّعَادَةِ، وانْتِسَاقِ الإِرَادَةِ، أَوْطَانَهُ- يَتَقَبَّلُ هَذِهِ الكَلِمَةَ عَلَى النَّأْيِ تَحِيَّةً، وَيَهُزُّ لَهَا مِنْ مَعَاطِفِ سُؤْدَدِهِ أَرْيَحِيَّةً.

---

١ - الديوان (طبعة د.غازي) :١٨٨-١٨٩، خريدة القصر :٣/٥٥١.

٢ - الديوان : ٢٩٦، ٩٤، ١٧٠ .

٣ - الأعطان: مبارك الإبل، ويقال : هو رحب العطن أي كثير المال، واسع الرحل، رحب الذراع.

وَهَا هِيَ تَتَلَهَّى بِالحِجَازِيَّةِ، أَوْ تَتَعَاطَى فَضْلَ مَزِيَّةٍ. وَقَدْ أَرْهَفْتُ فِي الغَزَلِ مِنْ حَوَاشِيهَا، حَتَّى خِفْتُ عَلَيْهَا مِنْ تَلاشِيْهَا، فَتَلافَيْتُهَا عِنْدَ ذَلِكَ بِأَوْصَافِ الجَزَالَةِ، وَأَلفَاظِ البَسَالَةِ وَالجَلالَةِ، تَلافِياً أَرْسَى قَوَاعِدَهَا، وَقَوَّى مَعَاقِدَهَا.

فَهَلْ تُرَاهَا تَخَيَّلَتْكَ، فَتَقَيَّلَتْكَ، فِيْمَا وُهِبْتَهُ مِنْ رِقَّةِ أَنْفَاسٍ، فِي شِـدَّةِ بَاسٍ؟ فَهِيَ جَارِيةٌ عَلَى مِقْيَاسٍ، وَبَانِيَةٌ عَلَى أَسَـاسٍ فَاجْمَعْ إِلَى كَرَمِ ذَاتِـهَا، وَشَرَفِ صِفَاتِهَا، أَنْ تَجْعَلَ المُعَلَّى[1] مِنْ قِدَاحِهَا، وَتَرِيشَ بِالقَبُولِ فَضْلَ جَنَاحِهَا فَتَسِيرَ إِلَى كُلِّ مَكَانٍ، وَتَطِيرَ فِي كُلِّ زَمَانٍ، وَتُنْشَدَ بِكُلِّ لِسَانٍ، وَتُوجَدَ مَعَ كُلِّ إِنْسَانٍ. وَالرَّبُّ-تَعَالَى- يَنْهَضُ بِالمُتْعَيَّنِ مِنْ خِدْمَتِكَ، وَيُضْفِي عَلَى الجَمِيْعِ سِتْرَ حُرْمَتِكَ، وَظِلَّ نِعْمَتِكَ، لا إِلَهَ سِوَاهُ.

وَمِثْلُ الأَمِيْرِ الأَجَلِّ -وَصَلَ اللهُ سَعْدَهُ- اعْتَقَدَنِي عَلَى نَأْيِ الدَّارِ أَحَدَ مَنِ انْتَظَمَ فِي جَمَاعِتِه، أَوِ اعْتَصَمَ بِهِ مِنْ أَهْلِ طَاعَتِهِ، فَحَمَلَنِي مَحْمِلَ هَذَا أَوْ ذَلِكَ، وَاشْتَمَلَ عَلَيَّ هُنَا مِنْ هُنَالِكَ. وَأَنَّى كَانَ، فَإِنَّهُ مِنْهُ إِجْمَالٌ، وَبِالدَّوْلَةِ السَّعِيْدَةِ جَمَالٌ، لَا زَالَتْ حَالِيَةً بِحُلَاهُ، رَائِقَةً بِمُجْتَلَاهُ، وَلَا بَرِحَتْ مَطَامِحُ آمَالِهِ بَعِيدَةً، وَمَطَارِحُ أَعْمَالِهِ سَعِيدَةً، وَلَا مِصْرَ إِلَّا مَوْجُودٌ مِنْ أَمْصَارِهِ، وَلَا سَعْدَ إِلَّا مَعْدُودٌ فِي أَنْصَارِهِ، بِحَوْلِ اللهِ وَقُدْرَتِهِ، لا رَبَّ سِوَاهُ.

وَأُبْلِغُ التَّحِيَّةَ الزَّكِيَّةَ، حَضْرَتَهُ البَهِيَّةَ العَلِيَّةَ، لا زَالَتْ بِمَرْآهُ بَهِجَةً، وَبِرَيَّاهُ أَرِجَةً، بِمَشِيئَةِ اللهِ»[2].

٤- الشكوى

وكتب إلى الأمير أبي بكر بن إبرَاهِيمَ ، رحمه الله:

أَوَجْهُـــكَ بَسّـــامٌ وَطَـــرْفِيَ بـــاكِ ... وَعَـــدْلُكَ مَوْجـــودٌ وَمِثلِـــيَ شـــاكِ

وَتَـــأبى اهتِضـــامي في جَنابِـــكَ هِمَّـــةٌ ... تَهُـــزُّكَ هَـــزَّ الـــريحِ فَـــرْعَ أَراكِ

وَقَـــدْ نـــالَ مِـــنّي ظالِـــمٌ لِيَ ذاعِـــرٌ ... فَيـــا هَبَّـــةَ السَّـــيْفِ الحُسَـــامِ دَراكِ

---

١ - **المعلّى : سابع قداح الميسر؛ له غنم سبعة أنصبة إن فاز، وعليه غرم سبعة إن لم يفز.**

٢ - **الديوان (طبعة د.غازي) : ٢٩٦-٢٩٧.**

عَدْلُ الأَمِيْرِ الأَجَلِّ –أَطَالَ اللهُ بَقَاءَهُ، وَوَصَلَ بِالنَّجْمِ ارْتِقَاءَهُ– أَقْرَبُ دَرَكاً وَرَجَاءً، وَأَفْسَحُ أَكْنَافاً وَأَرْجَاءً، مِنْ أَنْ يَكُونَ أُفْقِي يُظْلِمُ، وَمِثْلِي فِي طَاعَتِهِ يُظْلَمُ. وَإِنِّي دُهِيتُ بِشِيْطَانٍ لا يُغْنِي فِيْهِ أَنْ يُتَلَقَّى بِعَزِيمَةٍ، وَيُتَوَقَّى بِتَمِيْمَةٍ. وَقَدْ سَجَنهُ مِرَاراً بِسَبَبِي «فُلانٌ»– وَفَّقَهُ اللهُ– فَمَا كَفَّ ذَلِكَ مِنْ خَطْوِهِ، وَلا قَصَّرَ مِنْ شَأْوِهِ، وَلا غَضَّ مِنْ جِمَاحِهِ، وَلا قَصَّ مِنْ جَنَاحِهِ. وَلَنْ يَصِلَ بِحَوْلِ اللهِ إلى أَنْ أهِنَ، أَوْ أُمْتَهَنَ، وَهذِهِ رِيْحُ السُلْطَانِ تَهُبُّ، وَبَحْرُهُ يَعُبُّ، وَالحَقُّ مُفْتَقِرٌ إِلَى عَضُدِ أَمْرِهِ، وَشَدِّ أَزْرِهِ. فَإِنْ رَأَى –أَدامَ اللهُ مَا بِيَدِهِ– أَنْ يُوَقِّعَ إلى «فُلَانٍ» فِي أَنْ يُحْسِنَ عَوْنِي، وَيُجْرِيَ إلى صَوْنِي، فَعَلَ مُنَعَّماً. والرَّبُّ –جَلَّ وَعَزَّ– يُفْسِحُ لِلْفَضْلِ أَمَدَهُ، وَيَبْسُطُ بِالفَوَاضِلِ يَدَهُ، وَيَجْعَلُ خَيْرَ يَوْمَيْهِ غَدَهُ، بِحَوْلِهِ وَطَوْلِهِ .

فوقّع – رحمه الله – بما هو أهلُه»[1]

٥– موضوعات متنوعة

وقال يرثي جملة من الإخوان الأعيان، تلاحقوا في أقصر مدّة من الزمان، ويندب ريعان الشباب، ومعاهد أولئك الأتراب الأحباب، ويمدح أبا العَلاءِ ابنَ زُهْر– أعزّه الله– وكتب بها إليه، منتصف محرّم سنة أربع عشرة وخمسمئة:

كَفانِيَ شَكوى أَن أَرى المَجْدَ شاكِيا ... وَحَسبُ الرَّزايا أَن تَرانِيَ باكِيا

أُداري فُؤاداً يَصْدَعُ الصَّدرَ زَفرَةً ... وَرَجعَ أَنينٍ يَجْلِبُ الدَّمْعَ سَاجِيا

وَكَيفَ أُوَارِي مِن أُوارٍ وَجَدْتُني ... لَهُ صَادِراً عَن مَنهَلِ الماءِ صَادِيا

وَهاأَنا تَلْقَانِي اللَّيَالي بِمِلْئِهَا ... خُطُوباً وَألقَى بِالعَوِيلِ اللَّيالِيا

وَيَطْوِي عَلَى وَخْزِ الأَشافي جَوانِحي ... تَوَالِي رَزَايَا لا تَرَى الدَّمْعَ شَافِيا

الوَزِيْرُ الأَعْلَى –أَطَالَ اللهُ بَقَاءَهُ، وَوَصَلَ فِي مَرَاتِبِ السِّيَادَةِ وَالسَّعَادَةِ ارْتِقَاءَهُ، وَيَسَّرَ عَلَى أَغْبَطِ الأَحْوَالِ وَأَبْسَطِ الآمَالِ لِقَاءَهُ– مَرْمُوقُ صُوْرَةِ الفَضْلِ، مَوْمُوْقُ سِيْرَةِ النُّبْلِ.

---

١ – **الديوان (طبعة د.غازي)** : ١٧٠–١٧١.

فَإِنْ طَالَعْنَاهُ بِمَا يَتَعَيَّنُ مِنْ بِرِّهِ، فَلِذَاتِ جَلالِهِ، أَوْ نَلْقَاهُ بِمَعْهُوْدِ بِشْرِهِ، فَلِشَرَفِ مَجْدِهِ وَخِلالِهِ. وَاللهُ – تَعَالَى– يُفْسِحُ فِي أَمَدِهِ، كَمَا رَفَعَ فِي المَكَارِمِ مِنْ عَمَدِهِ، بِمَنِّهِ.

وَإِنِّي كَتَبْتُهُ عَنْ نَصَبٍ يَتَّصِلُ، وَتَعَبٍ لَا يَنْفَصِلُ، بِمَا اتَّفَقَ فِي هَذِهِ الجِهَةِ مِنْ تَثَاقُلِ الأَعْمَالِ، بِتَدَاوُلِ العُمَّالِ، فَمَا تَتَمَهَّدُ مِنْ حَالَةٍ حَتَّى تَتَهَدَّمَ، وَلا تُوْجَدُ بِهَا مِنْ رَاحَةٍ حَتَّى تُعْدَمَ.

وَمَنْ عَهِدَ المَطِيَّ الوَطِيَّ، وَأَلِفَ الأَمْرَ السَّنِيَّ الهَنِيَّ ، شَقَّ عَلَيْهِ أَنْ يَنْزِلَ عَنْ ذَلِكَ المَرْكَبِ مَرْكَباً، وَيُعَرِّيَ مِنْ رِدَاءِ ذَلِكَ السَّنَاءِ مَنْكِباً، لاسِيَّمَا وَقَدِ انْتَقَلَتْ بِنَا السِّنُّ مِنْ شَبِيْبَةٍ إِلَى شَيْبَةٍ.

وَلَسْتُ إِخَالُ الدَّوْلَةَ العَزِيزَةَ –لا زَالَتْ خَافِقَةَ الأَعْلامِ، رَائِقَةَ الأَيَّامِ– تَسْتَحِيْزُ أَنْ أَكُوْنَ مَعَ الطُّفُوْلَةِ أَجْمَلَ، وَمَعَ الكُهُولَةِ أَخْمَلَ. مَعَاذَ اللهِ أَنْ تَرْتَضِيَ تِلْكَ سِيْرَةً، فِيْمَنِ اشْتَمَلَتْ عَلَيْهِ شَابّاً وَكَهْلاً، وَوَجَدَتْهُ لِلْيَدِ الكَرِيْمَةِ أَهْلاً، فَحَلَّتْ بِهِ مَنْزِلاً رَحْباً وَجَنَاباً سَهْلاً، وَقَالَتْ لِلْعَاذِلِ فِيْهِ وَلِلعَادِلِ بِهِ مَهْلاً. فَجَزَى اللهُ أُوْلِي السِّيَاسَةِ، وَذَوِي الفَهْمِ وَالنَّفَاسَةِ، أَفْضَلَ جَزَاءٍ مَلِيٍّ، عَنْ مَبَرَّةٍ وَلِيٍّ، وَكَفَى بِها حَالاً أَتَقَلَّى لَهَا وَأَتَقَلَّبُ، وَأَتَشَغَّبُ بِمُعَانَاتِها وَأَتَشَعَّبُ، إِلَى مَا سِوَى ذَلِكَ مِنْ تَوَلِّي أَيَّامٍ، وَتَوَالي آلامٍ، بِفِقْدَانِ إِخْوَانٍ، أَعْيَانٍ، كَانُوا، فَبَانُوا.

وَبَعْدُ، فَلَعَلَّ قَائِلاً يَقُوْلُ: مَا لِرَبِّ هَذَا الشِّعْرِ مَا رَثَى حَتَّى تَغَزَّلَ، وَلا جَدَّ حَتَّى هَزَلَ، ثُمَّ قَفَّى بِالمَدْحِ، فَأَتَى بِالمَفَاخِرِ فِي الآخِرِ؟

فَالجَوَابُ عَنْهُ: إِنَّهُ لَمَّا كَانَ بَيْنَ المَادِحِ وَالمَمْدُوحِ اشْتِرَاكٌ، فِي مَعْنَى هَذَا الرِّثَاءِ وَاشْتِبَاكٌ، ولاجْتِمَاعِهِمَا فِي خِلَّةٍ، بَعْضِ تِلْكَ الجِلَّةِ، افْتَتَحَ الشِّعْرَ بِالرِّثَاءِ عَلَى جِهَةٍ مِنَ المُسَاهَمَةِ وَالتَّعْزِيَةِ، ثُمَّ أَرْدَفَ بِالمَدْحِ عَلَى نَحْوٍ مِنَ التَّأْنِيسِ وَالتَّسْلِيَةِ، وَلَمَّا أَشَارَ إِلَى مَا يَنْطَوِي عَلَيْهِ مِنْ مُصَابٍ، وَيَرْجِعُ إِلَيْهِ مِنْ أَوْصَابٍ، انْكَفَأَ عَلَيْهِ الكَلَامُ فِي ذَلِكَ انْكِفَاءً، فَانْهَرَقَ عَنْهُ كَرَمَ عِشْرَةٍ وَوَفَاءً.

وَأَمَّا أَسْمَاءُ تِلْكَ البِقَاعِ، ومَا انْقَسَمَتْ إِلَيْهِ مِنْ صِفَةِ نَجْدٍ أَوْ قَاعٍ، فَإِنَّمَا جَاءَ بِهَا عَلَى أَنَّهَا خَيَالاَتٌ تُنْصَبُ، وَمِثَالاتٌ تُضْرَبُ، تَدُلُّ عَلَى مَا يَجْرِي مَجْرَاهَا، مِنْ غَيْرِ أَنْ يُصَرَّحَ بِذِكْرِهَا، تَوَسُّعاً فِي الكَلامِ، يُكْتَفَى بِهَا دَلَالَةً عَلَيْهَا وَعِبَارَةً، وَيُسْتَحْسَنُ إِيْمَاءَةً إِلَيْهَا وَإِشَارَةً. فَإِنْ قَصَّرْتُ، أَوِ اخْتَصَرْتُ، فِيْمَا بَسَطْتُ مِنْ ثَنَاءٍ وَنَشَرْتُ، أَوْ أَوْمَأْتُ إِلَيْهِ مِنْ سَنَاءٍ وَأَشَرْتُ، فَبِحُكْمِ اسْتِغْرَاقِ النَّفْسِ، واسْتِغْلاقِ الأُنْسِ.

فَلْيُعْفِهِ –أَدَامَ اللهُ عِزَّتَهُ– مِنْ خَطَرَاتٍ تَقِدُ، وَنَظَرَاتٍ تَنْتَقِدُ، يَتَأَجَّجُ عَنْهَا اللَّهَبُ، وَيَتَبَهْرَجُ[1] عَلَيْهَا الذَّهَبُ، وَلْيُعِدْهُ نَظَراً لَمْحاً سَمْحاً، يَمُرُّ بِهِ صَفْحاً، كَأَنَّهُ هَفْوَةُ لَبِيبٍ، أَوْ غَفْوَةُ رَقِيبٍ، أَوْ خَطْرَةُ ذِيبٍ، أَوْ نَظْرَةُ مُرِيبٍ، مُنَعَّماً، إِنْ شَاءَ اللهُ، تَعَالَى»[2].

- **الرسائل الإخوانيّة مع الأصدقاء:**

وهي الرسائل التي تبادلها مع أصدقائه من الأدباء والعلماء والقضاة والوزراء في موضوعات كثيرة؛ أهمّها:التهنئة، والشكر، والتقريظ، والحنين، والعتاب، والشكوى، والتعزية والشفاعة، والاستدعاء، والاستهداء، والإهداء.

١– الحنين والشوق

قال ابن خفاجة: إِنْ كَانَ التَّنَازُحُ – أَعَزَّكَ اللهُ – لَمْ يَمْتَدَّ بَيْنَنَا فِيْهِ يَدٌ لِلتَّصَافُحِ إِلَّا مِنَ الجَوَانِحِ، وَلَا قَامَ خَطِيْبٌ لِلْقُرْبِ، إِلَّا فِي نَأْيِ القَلْبِ، وَلَا نَطَقَ لِسَانُ الوُدِّ، إِلَّا دُوْنَ سِتْرِ البُعْدِ، وَلَا لَمَعَ بَرْقٌ لِلاسْتِطْلَاعِ، إِلَّا فِي حُجُبِ السَّمَاعِ، فَلَا غَرْوَ أَنْ يُعْرِبَ ذَلِكَ النُّطْقُ، وَيَسْتَطِيْرَ ذَلِكَ البَرْقُ، فَقَدْ تَقُوْمُ البَصِيْرَةُ مَقَامَ البَصَرِ، وَتَكُوْنُ الأُمْنِيَّةُ أَحْلَى مِنَ الظَّفَرِ، وَمَا أَتَنَسَّمُ دَائِباً مِنْ ثَنَائِكَ العَاطِرِ، وَأُرْتِعُ فِيْهِ سَمْعِي مِنْ صِفَةِ خَلْقِكَ الظَّاهِرِ الطَّاهِرِ، قَمِيْنٌ أَنْ يَكُوْنَ لِلْمُدَاخَلَةِ سَبَباً، وَخَلِيْقٌ أَنْ يَكْشِفَ عَنْ وَجْهِ المُرَاسَلَةِ حُجُباً»[3].

---

١ – البهرج : الزائف من الدراهم والرديء والباطل (معرّب).

٢ – الديوان (طبعة د.غازي) : ٢٠٢–٢٠٤.

٣– الديوان الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة : ٣/ ٢/ ٥٦٠ ، لم ترد في الديوان وذيله (طبعة د.غازي)

٢- الإهداء

فصل في إهداء تفاحة:

مِثْلُكَ -أَعَزَّكَ اللهُ- مِمَّنْ كَرُمَتْ سَجِيَّتُهُ فَرَقَّتْ، وَحَسُنتْ جُمْلَتُهُ فَرَاقَتْ، فَكَانَتْ كُلِّيَّةُ الظَّرْفِ مِنْهُ شُعْبَةً، وَجُمْلَةُ الذَّكَاءِ شُعْلَةً، عَلِمَ أَنَّ خَيْرَ الهَدَايَا، مَا جَرَى مَجْرَى التَّحَايَا، وَأَنَّ أَفْضَلَ سَفِيرٍ سَفَرَ بَيْنَ صَدِيقَيْنِ، وَتَرَدَّدَ بَيْنَ عَشِيقَيْنِ، سَفِيرٌ أَشْبَهَ المُحِبَّ خِفَّةَ رُوْحٍ، وَالمَحْبُوبَ عَبَقَ رِيْحٍ.

وَلَمَّا طَالَ -يَا سَيِّدِي- العَهْدُ، فَأَحْبَبْتُ أَنْ أُجَدِّدَهُ، وَرَغِبْتُ أَن أُؤَكِّدَهُ، وَتَوَقَّيْتُ مِنْ رَقِيْبٍ يَرْعَى فَيَسْعَى، وَيَشِي فَيُفْشِي، لَمْ أَرَ أَنْ أَجْعَلَ رَسُولِي، وَأُجَشِّمَ فِي اقْتِضَاءِ سُولِي، مِثْلَ حَمْرَاءَ عَاطِرَةٍ، كَأَنَّهَا دَمْعَةُ صَبٍّ قَاطِرَةٌ، أَوْ جَمْرَةٌ تُصْطَلَى وَاقدَةٌ، أَوْ خَمْرَةٌ تُجْتَلَى جَامِدَةٌ، مُشْتَقٌّ مِنَ الأَرَجِ اسْمُهَا، حَمِيدٌ فِي السَّفَارَةِ بَينَ مُحِبَّينِ رَسْمُهَا، لَمْ أَرَ مِثْلَهَا ذَهَباً يَنْفَحُ، وَلَا لَهَباً لَا يَلْفَحُ، قَدْ أَوْدَعَ حَشَاهَا الصُّبْحُ فَلَقَهُ، وَخَلَعَ عَلَيْهَا اللَّيْلُ شَفَقَهُ، فَهِيَ تَقِدُ كَأَنَّهَا نُشِّئَتْ فِي تُرْبَةٍ مِنْ نَارِ ضُلُوعِي، أَوْ سُقِيَتْ بِجَدْوَلٍ مِنْ خُمْرِ دُمُوعِي. وَلَمَّا وَجَدْتُهَا فِي الحُسْنِ حَيْثُ العُيُونُ تَرْمُقُهَا فَتَمِقُهَا، وَالنُّفُوسُ تَنْشَقُهَا فَتَعْشَقُهَا، بَعَثْتُ بِهَا بَيْنَ تَحِيَّةٍ لَكَ، وَرَسُولٍ إِلَيْكَ، مُعْتَقِداً أَنَّهَا سَتُقْبَلُ، عِنْدَمَا تُقْبِلُ، وَتُفَدَّى، حِيْنَ تَتَصَدَّى، فَوَدِدْتُ أَنْ أَكُونَهَا، وَأَحْظَى بِتِلْكَ الحَالِ دُوْنَهَا»[1].

٣- الاستهداء

«**وكتب يستهدي ماء ورد:** إِنَّ لِلْمَكَارِمِ شَرِيْعَةً قَضَتْ أَنْ يَكُوْنَ البِرُّ عَلَيْكَ فَرْضاً، وَالشُّكْرُ قَرْضاً، وَإِنِّي وَجَّهْتُ رُقْعَتِي هَذِهِ خَاطِبَةً إِلَى صَفْوِ وُدِّكَ، كَرِيمَةً مِنْ بَنَاتِ مَاءِ وَرْدِكَ.

وَقَدْ سُقْتُ الشُّكْرَ إِلَيْهَا مَهْراً، وَأَنْفَذْتُ الإِنَاءَ لِلزِّفَافِ خِدْراً . وَالطَّوْلُ لَكَ فِي قَبُولِ نَقْدِ الثَّنَاءِ، وَتَعْجِيلِ الجَلاءِ وَالهِدَاءِ، مُوَفَّقاً، إِنْ شَاءَ اللهُ»[2].

---

١ - **الذخيرة في محاسن أهل هذه الجزيرة : ٣/ ٢/ ٥٤٤ – ٥٤٥**

٢ - **الذخيرة في محاسن أهل هذه الجزيرة : ٣/ ٢/ ٥٤٥ – ٥٤٦**

٤– الاستدعاء

فصل[١] في استدعاء مغنّ:

إِنَّ لِلطَّرَبِ– أَعَزَّكَ اللهُ– جِسْماً وَنَفْساً، يُسَمَّيَانِ سَمَاعاً وَكَأْساً، وَقَدْ حَضَرَتْنَا خَمْرَةٌ، كَأَنَّهَا جَمْرَةٌ، قَدْ تَنَاسَبَتْ سَوْرَتُهُمَا، كَمَا تَضَارَعَتْ فِي الخَطِّ صُورَتُهُمَا

لَـوْ تَـرَى الشَّـرْبَ حَوْلَهـا مِـنْ بَعِيْـدٍ قُلْـتَ قَـوْمٌ مِـنْ قِـرَّةٍ يَصْـطَلُونَا

فَإِنْ رَأَيْتَ أَنْ تُؤْنِسَ، وَتُطَرِّزَ المَجْلِسَ، فَتُجْرِيَ فِي ذَلِكَ الجِسْمِ الكَرِيْمِ رُوْحَهُ، وَتُحْضِرَهُ مِنْكَ مَسِيْحَهُ، وَصَلْتَ، وَأَجْمَلْتَ»[١].

٥– الشفاعة

وكتب في مثله:

لِلمُتَوسَّمِينَ– أَعَزَّكَ اللهُ– مَنَازِلُ، وَفِي الأَيَادِي فُرُوضٌ وَنَوَافِلُ، وَخَيْرُ المَعْرُوفِ، مَا وُضِعَ عِنْدَ الشَّرِيفِ لَا المَشْرُوفِ. وَإِنَّ أَبَا فُلَانٍ الهَاشِمِيَّ، لَفَرْعٌ مِنْ أَشْرَفِ نَبْعَةٍ، نَمَتْ فِي أَكْرَمِ بُقْعَةٍ. وَمَنْ حَلَّ مِنَ الشَّرَفِ مَحَلَّتَهُ، وَلَبِسَ مِنَ الفَضْلِ حِلْيَتَهُ، فَقَدْ غَنِيَ عَنِ الإِطْرَاءِ وَالثَّنَاءِ، غِنَى الغَزَالَةِ عَنِ الذُّبَالَةِ.

وَهُوَ مُجْتَازٌ عَلَى أَفُقِكَ، وَنَازِلٌ بِكَ ضَيْفاً، كَمَا تَتَغَشَّاكَ السَّحَابَةُ صَيْفاً، وَهُوَ رَاحِلٌ بَعْدُ، تَخِدُ بِهِ الرَّكَائِبُ، وَتُثْنِي عَلَيْكَ الحَقَائِبُ. وَأَنْتَ أَجْدَرُ مَنْ تَلَقَّاهُ بِالبِشْرِ، وَأَقْبَلَهُ وَجْهَ البِرِّ، فَعِنْدَ أَهْلِ الفَضْلِ يُوْضَعُ الفَضْلُ، وَفِي مَغَارِسِهَا تُغْرَسُ النَّخْلُ.

لَا زِلْتَ غَمَامَ نُعْمَى وَرُحْمَى، وَلَا نَزَلْتَ إِلَّا بِمَنْزِلِ رُعْيَا وَسُقْيَا»[٢].

٦– التقريظ

وقال يراجع ذا الوزارتين الكاتب أبَا عَبْدِ اللهِ ابنَ أَبي الخِصَالِ– أعزّه الله– عن مخاطبته نظماً ونثراً. وكتب بها إلى الحضرة:

---

١ – الذخيرة في محاسن أهل هذه الجزيرة : ٣/ ٢/ ٥٤٢ – ٥٤٣، مسالك الأبصار: ٩٣

٢ – الذخيرة في محاسن أهل هذه الجزيرة : ٣/ ٢/ ٥٥١

أَمُقـــامُ وَصْـــلٍ أَمْ مَقـــامُ فِـــراقِ فَالقُضْـــبُ بَـــيْنَ تَصـــافُحٍ وَعِنـــاقِ

...

هَا هُوَ –أَدَامَ اللهُ عِزَّ عِمَادِي– قَدْ تَجَافَى لَهُ عَنْ صَدْرِ مَيْدَانِهِ، وَتَشَرَّفَ بِلَثْمِ أَرْدَانِهِ، وَاكْتَتَبَ فِي جُمْلَةِ عُبْدَانِهِ، فَاسْتَقْبَلَ فُسْطَاطَهُ اسْتِقْبَالَ إِهْلالٍ، وَقَبَّلَ بِسَاطَهُ تَقْبِيْلَ إِجْلالٍ. وَأُقْسِمُ لَوْ تَحَمَّلَ حَجْماً، وَتَمَثَّلَ نَجْماً، لَمْ أَرْضَهُ، حتَّى يَهْبِطَ أَرْضَهُ، وَيَقْضِيَ فَرْضَهُ، جَوَاباً عَنْ نَثْرٍ تَرَدَّدْتُ فِيْهِ بَيْنَ رَوْضَةٍ وَغَدِيرٍ، وَتَلَدَّدْتُ مِنْهُ بَيْنَ أَرَاكَةٍ وَهَدِيْرٍ، لا أَعْدَمُ هُنَاكَ نَسِيْماً رَطْباً، وَمَوْرِداً عَذْباً،﴿وَحَدَائِقَ غُلْباً وَفَاكِهَةً وَأَبّاً﴾[1]، وَنَظْمٍ قَدْ أَشْرَف فِي نَضْرَةٍ، تِلكَ الحَضْرَةِ، يَأْخُذُ بِمَجَامِعِ الأَهْوَاءِ، وَيَمْتَزِجُ لَطَافَةً بِالهَوَاءِ، وَيَجْمَعُ بَيْنَ أَحْسَنِ مُزْدَوجٍ، مِنْ أَرَجٍ فِي ثَلَجٍ، وَأَطْيَبِ مُنْتَشَقٍ، مِنْ عَبَقٍ فِي لَثَقٍ، كَأَنَّ ذُيُولَ سَحَابَةٍ هُنَاكَ تُسْحَبُ، وعُيُونَ حَدِيقَةٍ تُحْدِقُ. وَحَسْبُكَ مِنْ شِعْرٍ يُضَاهِي الشِّعْرَى إِشْرَاقاً، وَالشَّمْسَ إِبْرَاقاً، وَيُبَاهِي القَمَرَ اتِّسَاقاً، وَعِقْدَ الجَوْزَاءِ انْتِسَاقاً، يَتَغَنَّى بِهِ الشَّرْبُ، وَيَتَرَنَّمُ الرَّكْبُ، فَطَوْراً يُنْتَشَقُ مَعَ العَرَارِ بِتِلْكَ الخَمَائِلِ، وَتَارَةً يُعْتَنَقُ مَعَ الطَّيْفِ اعتناقَ الحَمَائِلِ.

وَمَا ضَرَّهُ –وَهَا هُوَ أَنْدَى مِنْ ظِلِّ الغَمَامةِ، وأَحْلَى مِنْ سَجْعِ الحَمَامَةِ[2]، فَقَدْ طَابَ نَفَساً، وانْسَابَ سَلَساً، وَكَرُمَ نِسْبةً، وَشَرُفَ نِصْبَةً، وَأَلَّفَ بَيْنَ رِقَّةِ السِّحْرِ، وَنَفَسِ عَنْبَرِ الشِّحْرِ– أَلَّا يكُونَ فِي أَكْنَافِ العِرَاقِ يُوْلَدُ، وَفِي أَرْضِ الحِجَازِ يُوجَدُ .

لا زِلتَ تشتَمِلُ عَلَى كُلِّ مَنْقَبَةٍ لِلْمَجْدِ شَرِيفَةٍ، وَتَحْتَلُّ بِكُلِّ مَرْقَبَةٍ لِلسِّيَادَةِ مُنِيفَةٍ، تَعَشَّقَ هذِهِ السُّها فَنَحَلَ، وَتَعَلَّقَ بِتِلْكَ زُحَلُ فَزَحَلَ، والأَمْرُ للهِ، تَقَدَّسَ اسْمُهُ.

وَأَقْرَأُ عَلَيْكَ –أَدَامَ اللهُ عِزَّكَ– سَلاماً تَنْدَى بِهِ الرَّمْضَاءُ، وَتَتَنَافَسُ فِيْهِ الأَعْضَاءُ، فَتَوَدُّ المَعَاطِسُ لَوْ فُتِقَ مِسْكاً فَيُتَنَشَّقُ، وَتَتَمَنَّى السَّوَالِفُ لَوْ نُسِقَ سِلْكاً فَيُتَطَوَّقُ، ثُمَّ المُعادُ المُرَدَّدُ المُوَالَى مِنْهُ عَلَيْكَ، وَرَحْمَةُ اللهِ تَعَالَى وَبَرَكَاتُهُ»[3].

---

١ – سورة عبس :٣٠ –٣١ .

٢ – سجع الحمامة: موالاتها صوتها على طريق واحد .

٣ – الديوان (طبعة د.غازي): ١٦٠–١٦٢.

٧- التهنئة

وقال يهنّئ الفقيهَ الأجلَّ، قاضي القضاةِ، أبَا أُمَيَّةَ -وصل اللهُ توفيقَه- بعوده إلى خُطَّة القضاء بعد صرفه:

بُشْرَى كَما أَسْفَرَ وَجْهُ الصَّباحْ ... وَاسْتَشْرَفَ الرَّائِدُ بَرْقاً أَلَاحْ[1]

وارتَجَزَ الرّعدُ يَمُجّ النّدَى ... رَيّا ويَحدُو بمَطايا الرّياحْ

فدنّر الزهرُ متونَ الربا ... ودَرهَمَ القَطرُ بُطونَ البِطاحْ

هبّت رواحاً وهي نفّاحةٌ ... فطابَ ريحاً نشرُ ذاكَ الرواح

أفصحَ غرّيدٌ بها مطربٌ ... نفّشَ من طِرْسٍ قُدَامى جَناحْ

فَهَلْ تُرَى أَسمَعَ غُصنَ النَّقَى ... فَهَزَّ مِن عِطفَيهِ هَزَّ ارتياحْ[2]

وكتب مع هذه القصيدة بما نسخته:

إِنَّهُ لا فَرْقَ بَيْنَ الحُسَامِ، وَبَيْنَ القَضِمِ الكَهَامِ[3]، حَتَّى يُبْتَلَى هَذَا وَذَلِكَ، وَتُعْلَمَ حَقِيْقَةُ مَا هُنَالِكَ. وَلَيْسَ بِمَعْدُودٍ فِي المِحَنِ، مَا وَاصَلَ بَيْنَ المِنَنِ، وَفَاءَ بِجميلِ الذِّكْرِ، وَجَزيلِ الشُّكْرِ، فَمَا تُخَيِّل مِحْنَةً حَتَّى تَحَوَّلَ مِنْحَةً. وَلَعلَّه مَعَ ذَلِكَ قَدْ أَفَادَ تَجرِيباً، واقْتَضَى حُنْكَةً وتَهْذِيباً، بِمَا أَجْرَى مِنَ العِبَرِ وَالغِيَرِ، وَمَيَّزَ بَيْنَ الأَوِدَّاءِ وَالأَعْدَاءِ.

فَكَثِيراً مَا يُخْطِئُ الظَّنُّ وَيُصيبُ، وَيَكُونُ هُنَالِكَ مِنَ التُّهْمَةِ نَصِيْبٌ. فَالحَمْدُ للهِ كَثِيراً عَلَى مَا يَسَّرَ مِنْ نَجَاحٍ، وَجَبَرَ مِنْ جَنَاحٍ، وَأَوْسَعَ مِنْ صَلاحٍ، وَأَطْلَعَ مِنْ صَبَاحٍ، حَمْداً يَمْلأُ فِيْكَ مَا بَيْنَ الأَرْضِ والسَّمَاءِ، وَيَقْتَضِي لَكَ المَزِيدَ مِنَ السَّنَاءِ.

---

١ - ألاح البرق: أومض.

٢ - الديوان (طبعة د.غازي) : ١٦٥.

٣ - القَضِم : السيف تكسّر حدّه وتثلّمت مضاربه .
والكَهَام من السيوف : الكليل عن الضربة .

وَإِيَّاهُ –تعالى– أَسْأَلُ أَنْ يُنْهِضَكَ بِهَا نُهُوضَ الأَيِّد[1]، كَمَا أَشَارَ بِمَقْعدِكَ إلى مكانِ السَّيِّدِ، فَهُوَ أَهْلُ ذَلِكَ، تَقَدَّسَ اسمُهُ.

وَبَعْدُ، فَإِنِّي –وَإِنْ عَاقَنِي عَنْ مُفْتَرَضِ المَزَارِ، تَظَاهُرُ الأَعْذَارِ، مَعَ شَحْطِ[2] المَنَازِلِ وَتَنَائِي الدِّيَارِ– لَتَحْتَ شَوْقٍ يُسْرِجُ وَيُلْجِمُ، وَيَكَادُ يُقْدِمُ فَيُهْجِمُ.

وَبَسْطُ العُذْرِ مِمَّا أَسْأَلُهُ، وَمِثْلُكَ –دَامَ عِزُّكَ– يَقْبَلُهُ. لا زِلْتَ مَغْمُورَ الأَرْجَاءِ، بِوَابِلِ الرَّجَاءِ، تَسْتَقِلُّ بالأَعْبَاءِ، وَتَشْتَمِلُ عَلَى النُّبَلاءِ، وَالعَوَائِدُ مِنْ مَغَارِسِكَ، وَالمحَامِدُ مِنْ مَلابِسِكَ، والسُّعُودُ مِنْ خُدَّامِكَ، وَالصِّعادُ[3] مِنْ أَقْلامِكَ، بِمَنِّ اللهِ.

وأَقْرَأُ عَلَى مَنْ أَدَامَ اللهُ سَعْدَهُ سَلاماً، فَتَقَ بِهِ الرَّوْضُ وَرْدَهُ، وَلاعَبَ النَّسِيمُ رَنْدَهُ، فَفَاوَحَ ثَنَاءَهُ وَحَمْدَهُ، وَضَمَّخَ رِدَاءَهُ وَبُرْدَهُ»[4].

٨– التعزية

وقال يرثي والدة الفقيه الأجلّ قاضي القضاة أبِي أُمَيَّةَ وصل الله توفيقه:

في مِثلِـــهِ مِـــن طـــارِقِ الأَرزاءِ جـــادَ الجَمـــادُ بِعَـــبرَةٍ حَمـــراءِ

...

وأصحب هذه القصيدة رقعة نسختها:

كَتَبْتُهُ، وَالنَّفْسُ تَتَفَجَّعُ، وَحَصَاةُ القَلْبِ تَتَصَدَّعُ، عِنْدَمَا طَرَأَ النَّبَأُ الأَشْنَعُ، وَطَرَقَ الحَادِثُ الأَهْوَلُ الأَفْظَعُ، بِمَا سَفَرَ عَنْهُ الدَّهْرُ مِنْ وَجْهِ الدَّاهِيَةِ الدَّهْيَاءِ، وَاجْتَثَّهُ بِسَاحَتِكَ مِنْ دَوْحَةِ العَلْيَاءِ الغَيْنَاءِ، التِي كُنْتَ تَتَمَتَّعُ بِبَرْدِ أَفْيَائِهَا، وَتَسْتَنْزِلُ الرَّحْمَةَ بِبَرَكَةِ دُعَائِهَا، أَلحَفَهَا اللهُ جَنَاحَ عَفْوِهِ وَغُفْرَانِهِ، وَتَغَمَّدَهَا بِنَفْحَةِ رَوْحِهِ وَرَيْحَانِهِ؛ فَلَقَدْ كَانَتْ نَسِيْجَةَ

---

١ – **الأَيّد : القوي .**

٢ – **الشحط : بعد المزار .**

٣ – **الصعاد : جمع صَعْدة ؛ وهي القناة أو القناة المستوية .**

٤ – **الديوان (طبعة د.غازي) : ١٦٧–١٦٨.**

وَحْدِهَا فَضْلاً وَنُبْلاً، وَدِيَانَةً وَعَقْلاً. وَلا غَرْوَ أَنْ يَذِيعَ عَمَلُ الخَيْرِ وَالبِرِّ، وَإِنْ كَانَ مِنْ مَصُونَةٍ وَرَاءَ الحِجَابِ والسِّتْرِ، فَالبَدْرُ يُضِيْءُ خِلالَ غَمَامِهِ، وَالمِسْكُ يَنِمُّ وَرَاءَ خِتَامِهِ. وَمَا قَضَتْ-وَكُلُّنَا سَيَقْضِي، وَيَحْتَثُّ رَاحِلَةَ عُمْرِهِ فَيُنْضِي- إِلَّا زَاكِيَةَ المَسَاعِي وَالأَعْمَالِ، حَائِزَةً بِكَ وَفِيْكَ غَايَةَ الأَمَانِي وَالآمَالِ، فَسَقَى اللهُ ذَلِكَ الأَصْلَ كُلَّ هَامِرٍ، مِنْ غَمَامِ الرَّحْمَةِ هَامِلٍ وَوَقَى هَذَا الفَرْعَ كُلَّ عَاصِفٍ، مِنْ رِيَاحِ الحَوادِثِ قَاصِفٍ، وَأَمْتَعَنَا بِكَرِيمِ ظِلِّهِ وَثَمَرَتِهِ، كَمَا أَمْتَعَهُ بِطيبِ مَغْرِسِهِ وَتُرْبَتِهِ.

وَبَعْدُ، فَإِنْ جَزِعْتَ لِهَذَا الحَادِثِ الكَارِثِ، فَبِحُكْمِ البُنُوَّةِ وَالفَضْلِ، وَإِنْ صَبَرْتَ، فَبِمُقْتَضَى الشَّرِيْعَةِ وَالعَقْلِ. فَأَيّاً أَتَيْتَ، فَلا مَلامَةٌ تَتَعَلَّقُ بِكَ، وَلا حُجَّةٌ تَتَوَجَّهُ عَلَيْكَ، فَخَطْبُكَ أَشْنَعُ، وَعُذْرُكَ أَوْسَعُ. غَيْرَ أَنَّ الصَّبْرَ أَخْلَقُ بِمِثْلِكَ مِنْ أَهْلِ الجَزْالَةِ، وَأُولِي الرَّجَاحَةِ والجَلالَةِ.

وَمَا كَتَبْتُ-أَدَامَ اللهُ تَوْفِيقَكَ- أُذَكِّرُ وَأُبَصِّرُ، فَأَنْتَ بِمَا مَنَحَكَ اللهُ أَذْكَى، وَأَحْضَرُ فَهْماً وَأَزْكَى، وَلَكِنِّي لمَّا قَامَ بِي فَادِحُ الرُّزْءِ يُحَرِّكُنِي، ثُمَّ قَعَدَ بِي اسْتِيلاءُ الضَّعْفِ يُمْسِكُنِي، كَتَبْتُ أُجْلِي وَجْهَ العُذْرِ فِي التَّوقُّفِ، وَأَشْرَحُ سَبَبَ التَّأَخُّرِ وَالتَّخَلُّفِ.

وَمِثْلُكَ-وَصَلَ اللهُ تَوْفِيقَكَ- مَنْ تَصَفَّحَهُ وَتَأَمَّلَهُ، وَأَنْعَمَ عَلَى عَادَتِه فَتَقَبَّلَهُ، وَجُمْلَةُ ذَلِكَ أَنِّي لا أَكَادُ أُفْلِتُ مِنْ إِسَارِ شَكْوَى، إِلَّا رَسَفْتُ فِي قَيْدِ أُخْرَى، وَكُلُّ ذَلِكَ مِنَ اللهِ نُعْمَى، وَتَذْكِرَةٌ مِنْ غَفْلَةٍ وَرُحْمَى. وَقَدْ حَمَّلْتُ مِنْ ذَلِكَ فُلاناً-أَعَزَّهُ اللهُ- مَا سَيَبْسُطُهُ مُجْمِلاً، وَتَعِيهِ مُنَعَّماً مُتَطَوِّلاً.

حَفِظَ اللهُ عَلَيْنَا بِكَ مَا عَرَفْنَاهُ مِنْ نِعْمَتِهِ، وَأَوْسَعْنَاهُ مِنْ رَحْمَتِهِ، وَأَعْلَقْنَاهُ مِنْ حَبْلِ كَلاءَتِهِ وَعِصْمَتِهِ، وَلازِلْتَ تَبْقَى وَتَرْقَى، وَتُلَقَّى كُلَّ أُمْنِيَّةٍ وَتُوَقَّى، وَعِقْدُ مَجْدِكَ فِي انْتِظَامِهِ، وَبَدْرُ سَعْدِكَ فِي تَمَامِهِ، إِنْ شَاءَ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ»[1] .

---

١ - **الديوان (طبعة د.غازي)** : ٢٧٦-٢٧٧.

٩- الشكوى

وكتب إلى الوزير الفقيه أبِي مَرْوَانَ ابْنِ أَبِي الخِصَالِ بعقب التقائهما بحضرة شَاطِبَة:

يَا سَيِّدِي الأَعْلَى، وَقِدْحِي المُعَلَّى، وَعِلْقِي الأَخْطَرَ الأَغْلَى -لَا زِلْتَ بَيْنَ شَفَاعَةٍ مَقْبُولَةٍ، وَطَاعَةٍ للهِ مَوْصُولَةٍ- كَتَبْتُهُ وَالنَّفْسُ تُفَدِّيكَ، وَتَتَمَنَّى فَلَا تَعْتَدِيكَ، وَتَتَشَكَّرُ مَا اسْتَشْعَرَتْهُ مِنْ تَحَفِّيكَ، وَتَهِيمُ بِالجَانِبِ الغَرْبِيِّ فِيكَ، كَلَفاً بِمَا تَتَنَشَّقُهُ مِنْ رَوْحِ شِيَمِكَ، وَتَتَشَوَّقُهُ مِنْ مَرَاقِي هِمَمِكَ .

لا زِلْتَ تَبْقَى، وَتَرْقَى وَالسَّعْدُ مِنْ خَدَمِكَ، وَالنَّجْمُ مِنْ مَوَاطِئِ قَدَمِكَ، بِحَوْلِ اللهِ تَعَالَى.

وَبَعْدُ، فَقَدْ كَانَ انْفِصَالُنَا عَمَّا لَمْ يُتَحَصَّلْ فَهْماً، وَلَمْ يُعْطِ عِلْماً، ثُمَّ تَلَاهُ، مَا كَشَفَهُ وَجَلاهُ، فَشَكَرْتُ اليَدَ الجسِيمَةَ، والمَبَرَّةَ الوَسِيْمَة، تَشَكُّرَ مَلِيءٍ بِالثَّنَاءِ، عَلَى ذَلِكَ السَّرْوِ وَالسَّنَاءِ، وَتَمَلَّكَنِي صُنْعٌ أَبَاتَنِي بِلَيْلَةِ السَّرَّاءِ، وَهَزَّنِي هَزَّ الصَّعْدَةِ السَّمْرَاءِ.

وَكُنْتُ قَلِقَ الحَشَايَا خَفَّاقَ الأَحْشَاءِ أَتَأَلَّمُ لإلحَاحِي وَإلحَافِي، وَأَتَمَلْمَلُ لِتَوَقُّفِ الدَّهْرِ عَنْ إِسْعَادِي وَإِسْعَافِي، مَعَ مُوَاتَاتِهِ فِي بَعْضِ الأَزْمِنَةِ، وَأَكْثَرِ الأَمْكِنَةِ، لِنَفَرٍ لَا يُوَافِقُ هَذَا الاسْمُ هُنَالِكَ مُسَمَّاهُ، وَلَا يَنْطَبِقُ لَفْظُهُ عَلَى مَعْنَاهُ، فَمَا عَلَيْكَ مِنْ بَأْسٍ أَنْ تَعْدِلَ عَنْ قِرَاءَتِهِ «نَفَراً»، إِلَى قِرَاءَتِهِ «بَقَراً»، فَالتَّهَمُّمُ بِذَاتِ المَعْنَى، آكَدُ مِنَ التَّهَمُّمِ بِاللَّفْظِ وَأَوْلَى. وأَسْتَغْفِرُ اللهَ مِنْ خَطَلِ القَوْلِ، وَأَسْتَمْنِحُهُ المَعْهُودَ مِنَ الطَّوْلِ، فَهُوَ المَلِيءُ بِهِ، عَزَّ وَجْهُهُ.

وَمِنْ بَدِيعِ البَدِيعِ، الكَلَامُ مَعْجُونٌ، وَالحَدِيْثُ شُجُونٌ. وَإِنَّهُ اتَّفَقَ أَنْ فَصَلْتُ تِلْكَ العَشِيَّةَ، وَالأُفُقُ قَدْ أَضْحَى، وَأَبَلَّ مِنْ ثَمَلِهِ وَصَحَا، وَصَفْحَةُ الشَّمْسِ مَحْطُوطَةُ القِنَاعِ، مَصْقُولَةٌ كَمِرْآةِ الصَّنَاعِ. فَمَا هَمَمْتُ أَجْزَعُ وَادِي الحَضْرَةِ، حَتَّى طَفِقَ جَفْنُ الجَوِّ يَنْدَى، وَمِطْرَفُ الغَمَامِ يُنَارُ وَيُسْدَى، فَسُمْتُ المَطِيَّ أَنْ تَجِفَ، وَتَسْبِقَ السَّمَاءَ أَنْ تَكِفَ. فَمَا

لَبَّى فَأَهْطَعَ، وَتَسَنَّمَ بِي المَقْطَعَ، حَتَّى آلَ حِلْمُ ذَلِكَ الهَوَاءِ طَيْشاً، وَرَذَاذُ ذَلِكَ الرَّبَابِ طَشّاً. فَقُلْتُ: "اللَّهُمَّ حَوَالَيْنَا، وَلَا عَلَيْنَا"[1]، فَمَا كَانَ إِلَّا أَنْ عَدَلَ عَنَّا، وَضَرَبَ بِكَلْكَلِه غَيْرَ بَعِيدٍ مِنَّا، وَأَرْعَدَ فَنَفَثَ وَرَقَى، ثُمَّ غَنَّى مَا شَاءَ وَسَقَى. وَأَفْضى بِنَا الرَّكْضُ إِلَى مَصَابِ سَمَائِهِ، وَمُهْرَاقِ عَزَالَى مَائِهِ، وَقَدْ صَبَحَهُ لَثَقٌ، وَغَبَقَهُ غَدَقٌ، فَصُعُودُهُ زَلَقٌ، وَهُبُوطُهُ غَرَقٌ. وَحَسْبُكَ مِنْ وَحْلٍ يُقَيِّدُ مَطَايَا الرَّكْبَانِ، وَيَكُبُّ آوِنَةً عَلَى الأَذْقَانِ، فَلَا تَرَى إِلَّا خُدُوداً، تُعَفَّرُ سُجُوداً، وَبُرُوداً، تُصْبَغُ حُمْراً وَسُوداً، فَمَا شِئْتَ مِنْ

مُمَسَّكٍ وَمُعَنْبَرٍ، وَمُصَنْدَلٍ وَمُعَصْفَرٍ:

وَسَـــوَاءٌ نَجْـــدٌ هُنَـــاكَ وَوَهْـــدٌ	وَسَـــــيِلٌ خَبَطْتَـــــهُ وَمَسِـــــيلُ
وَقَـدِ اعْتَـلَّ بَـيْنَ طَـلٍّ وَصَـحْوٍ	نَشْـرُ تِلْـكَ الصَّـبَا وَذَاكَ الأَصِـيلُ
وَانْتَشَـى رَيّـاً كُـلُّ قُطْـرٍ فَلَـوْلا	هُضْـبُ تِلْـكَ العُـلَا لَكَـانَ يَمِيـلُ

فَسِرْنَا، وَمَا كِدْنَا، بَيْنَ سِبَاحَةٍ، وَمِسَاحَةٍ، حَتَّى شَارَفْنَا الدِّيَارَ وَقَدْ عَبَسَ وَجْهُ السَّمَاءِ، وَأَدْرَكَ بِنَا كُمَيْتُ المَسَاءِ، يَسْمُو النَّشَاطُ بِطَرْفِهِ، وَيَسِيلُ غَدَقُ النَّدَى عَلَى عِطْفِهِ، وَأَشْقَرُ الشَّفَقِ قَدْ نَبَذَ المَعْمُورَةَ خَلْفَهُ، وَنَفَضَ عَلَى مَسْقَطِ الشَّمْسِ عَرْفَهُ، يَمْرَحُ عِزَّةً بِسَبْقِهِ، وَيَجُرُّ مِنْ نَخْوَةٍ عِنَانَ بَرْقِهِ.

وَذِكْرُ اللهِ -تَعَالَى- مِلْءُ الصُّدُورِ وَالأَفْوَاهِ وَشِعَارُ الأَلسِنَةِ وَالشِّفَاهِ. وَمَا كُنَّا لِنَعْبُرَ مَسَافَةَ تِلْكَ المَجَابَةِ، إِلَّا بِدَعْوَةٍ اتَّفَقَتْ هُنَاكَ مُجَابَةٍ، وَعَطْفَةٍ لِحَلِيمٍ حَكِيمٍ، وَنَظْرَةٍ مِنْ رَحِيمٍ كَرِيمٍ. وَتَلافَانَا اللهُ بِحَافِلِ نُعْمَاهُ، وَشَامِلِ رُحْمَاهُ، فَأَدْرَكَنَا عَلَى سَيْرٍ بَطِيٍّ، وَإِعْيَاءٍ مطِيٍّ، وَخُلُقٍ غَيْرِ وَطِيٍّ.

وَلَحِقَ بِلَحَاقِنَا أَدْهَمُ الظَّلْمَاءِ يَخُبُّ، وَيَتَنَفَّسُ عَنْ شَمَالٍ تَهُبُّ، فَمَا اجْتَلَيْتُ وَجْهَ الأُنْسِ إِلَّا بِشُعْلَةِ مِصْبَاحٍ، أَزْهَرَ لَيَّاحٍ، طَلْقِ الأَسِرَّةِ وَضَّاحٍ، يَنُوبُ عَنْ غُرَّةِ صَبَاحٍ

---

١ - من حديث النبيّ صلّى الله عليه وسلّم، صحيح البخاري: باب الاستسقاء رقم :٩٦٨، ٣٤٤/١، صحيح مسلم : باب الدعاء في الاستسقاء رقم :٨٩٧، ٦١٣/٢-٦١٤ .

وَيَخْفِقُ خُفُوقَ ارْتِيَاحٍ، فَكَأَنَّمَا كَرَعَ فِي مُجَاجَةِ رَاحٍ، أَوْتَطَلَّعَ إِلَى بَارِقَةِ سَمَاحٍ :

تَحَلَّت بِهِ مِن كَوكَبٍ لَبَّةُ الدُّجى ... فَأَوْجَفَ بِي طِرْفٌ مِنَ اللَّيْلِ أَبلَقُ

وَبِتُّ وَعِندِي لِلصَّبَاحِ مُلاءَةٌ ... تَرُوقُ وَجَيبٌ لِلظَّلامِ يُمَزَّقُ

يُشافِهُنِي مِنهُ لِسانُ اِبنِ رَملَةٍ ... يَبوحُ بِسِرِّ اللَّيلِ وَاللَّيلُ مُطرِقُ

وَيَنحَرُ دوني جُنْحَ كُلِّ دُجُنَّةٍ ... سِنانٌ صَقيلٌ لِلذُّبالَةِ أَزْرَقُ[1]

وَاقْتَضَى فَصْلُ الشِّتَاءِ، وَبَرْدُ الهَوَاءِ، أَنْ أَسْتَظْهِرَ إِلَى ضِيَاءٍ، بِصِلَاءٍ، فَشَفَعْتُ نُوْرَ السِّرَاجِ، بِأَبْيَضَ وَهَّاجٍ، فِي أَسْوَدَ دَاجٍ، كَأَنَّمَا رُكِّبَ مِنْ عَاجٍ وَسَاجٍ، فَلَمْ أَلبَثْ أَنْ جَمَعْتُ إِلَى بَصَرٍ سَمْعاً، وَأَطْلَعْتُ وِتْرَ الأُنسِ شَفْعاً :

بِأَحَمَّ مُسْوَدِّ الأَدِيمِ كَأَنَّمَا ... خُلِعَتْ عَلَى عِطْفَيْهِ جِلْدَةُ حَامِ

ذَاكِي لِسَانِ النَّارِ تَحْسَبُ أَنَّهُ ... بَرْقٌ تَمَزَّقَ عَنْهُ جَيْبُ غَمَامِ

وَكَأَنَّ بَدْءَ النَّارِ فِي أَطْرَافِهِ ... شَفَقٌ لَوَى يَدَهُ بِذَيْلِ ظَلَامِ[2]

وَلَمَّا قُمْتُ لأَدَاءِ المَكْتُوبَةِ، فَتَلَقَّيْتُ بِوَجْهِي الأَرْضَ، وَقَضَيْتُ الفَرْضَ، ثُمَّ نِلْتُ مِنَ الزَّادِ ، وَمِلْتُ إِلَى الرُّقَادِ، فَجَمَعْتُ بَيْنَ جَنْبِي وَالفِرَاشِ، وَدَبَّ فِيَّ رُوْحُ الانْتِعَاشِ، مَسَحْتُ جَفْنِي مِنْ ذَلِكَ الوَسَنِ، وَتَفَرَّغْتُ لِمِلامَةِ الزَّمَنِ، فَجَعَلْتُ أَتَكَلَّمُ عَنْ إِحَنِهِ، وَأَتَأَلّمُ مِنْ مِحَنِهِ، فَرَاطَلَ عِنْدَ ذَلِكَ بَيْنَ مُنَّتِهِ وَهَنَتِهِ، وَعَادَلَ بَيْنَ سَيِّئَتِهِ وَحَسَنَتِهِ، وَأَشَارَ إِلَى مَا أَتَاحَ مِنْ لُقْيَاكَ.

ثُمَّ قَالَ لِي: هَذَا بِذَاكَ، وَهَلْ يُؤْكَلُ الشُّهْدُ إِلَّا بِسُمٍّ؟

فَاسْتَسَغْتُ هُنَالِكَ خُطْبَانَ خُطُوبِهِ، وَكَفَأْتُ عِنْدَ ذَلِكَ ذَنُوبَ ذُنُوبِهِ، وَأَلقَيْتُ بِيَدِ السِّلْمِ وَكُنْتُ لَهُ حَرْباً، وَعَلَيْهِ إِلْباً.

---

١ – **القطعة ليست في الديوان.**

٢ – **القطعة : ٤٤ ، الديوان : ٨٤ .**

وَحَاوَلْتُ أَنْ نَلْتَقِيَ فَنَتَحَدَّثَ، وَنَتَجَاذَبَ ذِكْرَ مَا حَدَثَ، وَمِنْ مُنَى المَصْدُورِ لَوْ نَفَثَ، فَعَاقَ عَنِ اللِّقَاءِ وَقْتٌ، أَكْثَرُهُ مَقْتٌ، وَبَخْتٌ، أَوْفَرُهُ شَحْتٌ، مَعَ مَا اتَّفَقَ مِنْ غَيْثٍ مُتَوَاصِلٍ، وَعَيْثٍ مُسْتَأْصِلٍ، وَاسْتِشْرَافِ أَعْنَاقِ سُيُولٍ، تُلْحِقُ الحُزُونَ بِالسُّهُولِ، وَتَلْتَطِمُ فِي أَعَالِي مَرَاقِي الوُعُولِ، وَتُنْفَضُ بِهَا أَعْرَافُ شُقْرِ الخُيُوُلِ:

فَسُمْتُ البَرَاعَةَ أَنْ تَنْكَفِي ... وَذَلْقَ اليَرَاعَةِ أَنْ يَكْتُبَا

وَأَجْرَيْتُ مِنْ مَدَّةٍ أَدْهَماً ... وَحَلَّيْتُ مِنْ مُهْرَقٍ أَشْهَبَا

تَرَكْتُ القُلُوْبَ لَهُ مَرْبِطاً ... وَصَدْرَ النَّدِيِّ بِهِ مَلْعَبَا[1]

لَا بَرِحْتَ فِي دَعَةٍ وَسَعَةٍ، وَلا زَالَ مَكَانُكَ مِنَ المَعَالِي مُمَهَّداً، وَسُلْطَانُكَ مِنَ اللَّيَالِي مُؤَيَّداً، تَحْمِلُ كَمَالَ البَدْرِ، وَجَلَالَ لَيْلَةِ القَدْرِ، بِمَشِيئَةِ اللهِ تَعَالَى، وَالسَّلَامُ»[2].

وفي فصل :

وَمَا تَذَكَّرْتُ عَطَلَ نَحْرِ الزَّمَانِ، مِنْ قَلَائِدِ الإِخْوَانِ، وَكَيْفَ كَرَّ الدَّهْرُ فَمَحَا مَحَاسِنَ تِلْكَ الصَّحِيْفَةِ، وَطَوَى طَوَامِيْرَ تِلْكَ الشَّبِيْبَةِ، إِلَّا انْقَدَحَتْ بِصَدْرِي لَوْعَةٌ، لَوْ أَنَّهَا بِالحَجَرِ لانْفَطَرَ فَانْفَجَرَ، أَوْ بِالنَّجْمِ لانْكَدَرَ فَانْتَثَرَ:

وَمَا وَجْدُ أَعْرَابِيَّةٍ قَذَفَتْ بِهَا ... صُرُوفُ النَّوَى مِنْ حَيْثُ لَمْ تَكُ ظَنَّتِ

تَمَنَّتْ أَحَالِيْبَ الرِّعَاءِ وَخَيْمَةً ... بِنَجْدٍ فَلَمْ يُقْدَرْ لَهَا مَا تَمَنَّتِ

بِأَعْظَمَ وَجْداً مِنِّي بِذَلِكَ القَصْرِ، وَقَدْ انْتَثَرَ عِقْدُ أَحْبَابِهِ، وَأَقْفَرَ عَامِرُ جَنَابِهِ، وَانْسَلَخَ لَيْلُ شَبَابِهِ، وَطَارَ وَاقِعُ غُرَابِهِ، وَانْطَوَتْ لَهُ صَحَائِفُ أَيَّامٍ لا تُنْشَرُ، عَلَى سُطُورِ آثَامٍ لا تُبْشَرُ، فَكَأَنَّمَا تَقَشَّعَ مِنْهُ سَحَابٌ، وَاضْمَحَلَّ بِقِيْعَتِهِ سَرَابٌ، فَصِرْنَا لَا نَتَلاقَى إِلَّا بِالذِّكْرِ، وَلَا نَتَرَاءَى إِلَّا بِالفِكْرِ[3].

---

١ - القطعة ٦٩، الديوان : ١١٩ .

٢ - الديوان (طبعة د.غازي) : ٣٠٢-٣٠٧، خريدة القصر :٣/٥٥١-٥٥٢

٣ - الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة :٣/ ٢/ ٥٥٤ – ٥٥٥، مسالك الأبصار :٩٢.

١٠ – العتاب

كتب أَبُو إِسْحَاقَ الخَفاجِيُّ إلى أبِي عَبدِ اللهِ ابنِ أبِي الخِصَالِ، أعزّهما الله:

أَبَعْـدَ حَـوْلٍ تُنَـاجِي الشَّـوْقَ نَاجِيَـةٌ هَـلَّا وَنَحْـنُ عَلَـى عَشْـرٍ مِـنَ العُشَـرِ[١]

وَرَدَتْنِي –أَطَالَ اللهُ بَقَاءَ رَئِيْسِي المُعَظَّمِ قَدْرُهُ، المُقَدَّمِ أَمْرُهُ، المُعْتَرَفِ بِحَقِّهِ، المُخْتَلَفِ إلَّا فِي سَبْقِهِ– رُقْعَتُهُ المَبْرُورَةُ، عَلَى حِيْنَ لَا عَهْدَ لِي بِظلِّ ذَلِكَ الغَمَامِ، وَلَا ذِمَّةَ بِيَدِي مِنْ حَبْلِ ذَلِكَ الزِّمَامِ، إِلَى اللهِ أَشْكُو غِيَرَ الأَيَّامِ، وَانْتِقَالَ تِلْكَ السَّجَايَا الكِرَامِ. وَمَا تَطَلَّعَتْ رُقْعَتُهُ الخَطِيْرَةُ تَبْهَرُ النُّبَهَاءَ، وَتَنْظُرُ فِي أَعْطَافِهَا خُيَلَاءَ، حَتَّى مَسَحْتُ لَهَا جَفْنِي أَحْسَبُنِي فِي المَنَامِ، وَأَنْشَدْتُها إِخَالُهَا مِنْ أَضْغَاثِ الأَحْلامِ:

إِنِّي شَـرِبْتُ وَكُنْـتُ غَيْـرَ شَـرُوْبِ وَتُقَـرِّبُ الأَحْـلَامُ غَيْـرَ قَرِيْـبِ[٢]

وَقَدْ كُنْتُ خِلْتُ أَنَّ وُدَّ ذَلِكَ السَّيِّدِ –أَمْتَعَ اللهُ السِّيَادَةَ بِمَكَانِهِ– قَدْ خَيَّمَ فَمَا يَرْحَلُ، وَرَسَخَ فَمَا يَزْحَلُ، وَصَفَا شِرْبُهُ فَمَا يَطْحَلُ.

وَهَلّا نَشِطَ لِلمُطَالَعَةِ –أَعَزَّهُ اللهُ– فَقَامَ حِيْنَ قَعَدْتُ، وَاقْتَرَبَ إِنْ كُنْتُ بَعُدْتُ؟ فَمَا شِمْتُ لِخَطَابِهِ بَارِقَةً، وَلَا التَمَحْتُ لِصَحِيْفَةٍ لَهُ شَارِقَةً، إِلَّا بَعْدَ أَحْوَالٍ تَجَاوَزَتِ العَقْدَ عَدَداً، وَحَسْبُكَ بُعْدَ عَهْدٍ وَنَاهِيْكَ أَمَداً.

وَبَعْدُ، فَجَزَى اللهُ المَرْيَةَ خَيْراً، فَإِنَّهَا أَذْكَرَتْنِي قَوْلَ الأَوَّلِ وَكُنْتُ أُنْسِيتُهُ:

لَـئِنْ سَـاءَنِي أَنْ نِلْتِـنِي بِمَسَـاءَةٍ لَقَـدْ سَـرَّنِي أَنِّي خَطَـرْتُ بِبَالِـكِ[٣]

وَلَا –وَأَبِيْكَ– مَا لاأَمْتَ فِيْمَا حَكَمْتَ، وَلَا جُرْتَ حَتَّى اسْتَشَطْتَ فَثُرْتَ. إِنَّ النَّصَفَةَ لَفِي خُلُقِكَ، وَإِنَّ العَدَالَةَ لَمِنْ طُرُقِكَ، وَمَا عَبْدُ الحَمِيْدِ، وَلَا الصَّابِئَانِ وَلَا ابْنُ العَمِيْدِ، بِأَعْدَلَ مِنْكَ فِيْهَا حُكْماً، وَأَسَدَّ سَهْماً.

---

١ – البيت لأبي العلاء المعرّي : سقط الزند : ٥٦ .

٢ – البيت لقيس بن الخطيم، ديوانه : ٥٥ .

٣ – البيت لابن الدمينة، ديوانه : ١٧ .

وَبَعْدُ، فَأَسْتَغْفِرُ اللهَ مِنْ تُهْمَةِ المُشَارِ إِلَيْهِ، فَإِنَّهُ -وَحَقِّكَ- لَبَرِيءُ السَّاحَةِ مِمَّا بِهِ وَسَمْتَهُ وَرَسَمْتَهُ، طَائِشٌ سَهْمُكَ فِيْمَا قَذَفْتَهُ بِهِ وَاقْتَرَفْتَهُ.

وَأَمَّا حَالُ مَنْ يَعْتَقِدُكَ قَسِيْمَهُ، وَيَجِدُ بِذِكْرِكَ بَرْدَ الأُنْسِ وَنَسِيمَهُ، فَحَالُ مَنْ خَلَّفَ السَّبْعِينَ وَرَاءَهُ، فَهُوَ يَرْتَقِبُ يَوْمَهُ وَيَنْدُبُ أَمْسَهُ، وَيُوَدِّعُ دُنْيَاهُ وَيُنْشِدُ نَفْسَهُ: [1]

هَـلْ فَـاتَ صَـرْفَ الـرَّدَى لَبِيـدُ ... وَطَـــاوَلَ الـــدَّهْرَ لَا يَبِيـــدُ

أَمْ خَـــارَ عُـــوْدٌ بِـــهِ صَـــلِيْبٌ ... وَخَـــرَّ بَيْـــتٌ لَـــهُ مَشِـــيدُ

وَكَيْـــفَ نَبْقَـــى وَلَـــيْسَ يَبْلَـــى ... دَهْـــرٌ تَـــوَلَّى بِـــهِ حَدِيـــدُ

نَطْـــوِي زَمَـــانَ الحَيَـــاةِ كَـــدّاً ... كَمَـــا طَـــوَى رَكْضَـــهُ البَرِيـــدُ

وَكَـــمْ عَسَـــى يَـــا أَخَـــا الشَّـــكَايَا ... تُرْمَـــى فَتُخْطَـــى وَكَـــمْ تَحِيـــدُ

فَـــوِّضْ وَسَـــلِّمْ إِلَى قَـــدِيرٍ ... تَجْـــرِي اللَّيَـــالِي بِمَـــا يُرِيْـــدُ

فَهْـــوَ الكَـــرِيمُ الحَكِـــيمُ فِيمَـــا ... يَفْعَـــلُ وَالـــمُبْدِئُ الـــمُعِيدُ

وَارْضَ بِـــدَارِ البِلَـــى مَحَـــلّاً ... لَعَلَّـــهُ مَنْـــزِلٌ سَـــعِيْدُ

فَرُبَّمَـــا فُـــزْتَ بِالأَمَـــانِي ... إِذَا طَـــوَى شِـــلْوَكَ الصَّـــعِيدُ

وَخَيْـــرُ مَـــا تَسْـــتَنِيلُ رُحْمَـــى ... مِـــنْ مَلِـــكٍ بَطْشُـــهُ شَـــدِيدُ

يَـــأْنَسُ فِي قَـــبْرِهِ الـــمُوَارَى ... بِـــهِ وَفِي لَيْلِـــهِ الوَحِيْـــدُ

فَيَـــا مَـــلاذِي وَيَـــا مَعَـــاذِي ... إِذَا طَـــوَى شَخْصِـــيَ الكَدِيْـــدُ

---

١ - وقد بدأ ابن أبي الخصال بالردّ عليه، ثمّ أبعده المرض من ذلك، ففي إحدى نسخ ديوان ابن خفاجة ما نصّه:« وابتدأ أبو عبد الله معارضته في هذه القطعة البدعة فقال :

أصـــــخرة أنـــــت أم حديـــــد ... يخطئـــــك الوعـــــد والوعيـــــد

أم كوكـــــب يخلـــــق الليـــــالي ... وهـــــو علـــــى مرّهـــــا جديـــــد

ثمّ عرض له -أزاح الله علّته- ما سدّ طريق عارضه الهطل، وأصلد زند خاطره المشتعل، على حين شيمت منه هذه البارقة الرائقة، واقتطفت منه هذه الزهرة النضرة،(*ثمّ عبارة مطموسة في ذيل الورقة*)».

وَعُـــدْتُ تُرْبـــاً فَـــلا قَرِيـــبٌ يَغْشَـــى فِنَـــائِي وَلا بَعِيـــدُ
امْـــنُنْ بِحُسْـــنَاكَ مِـــنْ جَـــوَادٍ فَـــبَعْضُ أَسْمَائِـــكَ الحَمِيـــدُ
وَأَنْجِـــزِ الوَعْـــدَ مِـــنْ كَـــرِيْمٍ إِنْ لَمْ يَكُـــنْ أَنْجَـــحَ الوَعِيـــدُ
فَـــنِعْمَ مَـــا تَفْعَـــلُ الـــمَوَالِي وَبِـــئْسَ مَـــا تَفْعَـــلُ العَبِيـــدُ

وَعِنْدَ فُلاَنٍ مُؤَدِّيهِ، مَا يُوَفِّيهِ، فِيْمَا أَوْمَأْتُ إِلَيْهِ مُفَاوَضَةً، وَيَخْرُجُ عَنْهُ بِطَوْلِهِ مُشَافَهَةً. وَهُوَ وُدٌّ يُغْنِي لَدَيْكَ، وَأَمَانَتِي فِي يُمْنَى يَدَيْكَ. وَمَا فَاءَ عَلَيْهِ مِنْ جَاهِكَ، وَعَادَ إِلَيْهِ مِنْ تُجَاهِكَ، فَأَنَا الشَّاكِرُ عَلَيْهِ شُكْرَ حَسَّانٍ، لِآلِ غَسَّانَ. لَازِلْتَ عِماداً وَعَتَاداً، وَمَراداً يُحْمَدُ وَمَصَاداً[1]، وَلا بَرِحْتَ تُغْشَى، وَتُرْجَى تَارَةً وَتُخْشَى.

وَأُبْلِغُكَ تَحِيَّةً، تَتْبَعُهَا تَحِيَّةٌ، عَدَدَ العُشْبِ وَالحَصَى وَالتُّرَابِ، وَالسَّلامُ يَتَعَاقَبُ وَيَتَوَالَى عَلَيْكَ، وَعَلَى مَنْ لَدَيْكَ، وَرَحْمَةُ اللهِ تَعَالَى، وَبِمِثْلِهِ تَخُصُّكَ جُمْلَةُ الإِخْوَانِ وَالأَعْيَانِ»[2].

١١- المصالحة

وكانت بينه وبين بعض إخوانه مقاطعة، فاتّفق أن ولي ذلك الصديق حصناً، فخاطبه أبُو إِسْحَاقَ برقعة منها:

أَطَالَ اللهُ بَقَاءَ سَيِّدِي، النَّبِيهَةِ أَوْصَافُهُ النَّزِيْهَةِ عَنِ الاسْتِثْنَاءِ، المَرْفُوعَةِ قِيَادَتُهُ الكَرِيمَةِ بِالابْتِدَاءِ، مَا انْحَذَفَتْ يَاءُ يَرْمِي لِلْجَزْمِ، وَاعْتَلَّتْ وَاوُ يَغْزُو لِمَوْضِعِ الضَّمِّ.

كَتَبْتُ -أَعَزَّكَ اللهُ- عَنْ وُدٍّ قَدُمَ هُوَ الحَالُ، لَمْ يَلْحَقْهَا انْتِقَالٌ، وَعَهْدٍ كَرُمَ هُوَ الفِعْلُ لَمْ يَدْخُلْهُ اعْتِلالٌ. وَاللهُ يَجْعَلُ هَاتِيكَ مِنَ الأَحْوَالِ الثَّابِتَةِ اللَّازِمَةِ، وَيَعْصِمُ هَذَا بَعْدُ مِنَ الحُرُوفِ الجَازِمَةِ.

---

١ - **المصاد : أعلى الجبل .**

٢ - **الديوان (طبعة د.غازي) : ٣١٣-٣١٦.**

وَأَنا أَسْتَنْهِضُ طَوْلَكَ، إِلَى تَجْدِيدِ عَهْدِكَ، بِمُطَالَعَةِ أَلِفِ الوَصْلِ، وَتَعْدِيَةِ فِعْلِ الفَصْلِ، وَإِلَى عُدُولِكَ عَنْ بَابِ أَلِفِ القَطْعِ، إِلَى بَابِ أَلِفِ الوَصْلِ وَالجَمْعِ، حَتَّى تَسْقُطَ لِدَرْجِ الكَلَامِ بَيْنَنَا هَاءُ السَّكْتِ، وَيَدْخُلَ الانْتِقَالَ حَالُ الصَّمْتِ.

فَلا تَتَخَيَّلْ -أَعَزَّكَ اللهُ- أَنَّ رَسْمَ إِخَائِكَ عِنْدِي ذُوْ حُسىً قَدْ دَرَسَ عَفَاءً، وَلَا أَنَّ صَدْرِي "دَارُ مَيَّةَ" أَمْسَى مِنْ وُدِّكَ خَلاءً، وَإِنَّمَا أَنَا فِعْلٌ إِذَا تُنِّيَ بِوُدِّكَ ظَهَرَ مِنْ ضَمِيْرِ وُدِّهِ مَا بَطَنَ، وَبَدَا مِنْهُ مَا كَانَ كَمَنَ.

وَهَنِيئاً – أَعَزَّكَ اللهُ- أَنَّ فِعْلَ وِزَارَتِكَ حَاضِرٌ لَا يَلْحَقُ رَفْعَهُ تَغْيِيرٌ، وَأَنَّ فِعْلَ سَيْفِكَ مَاضٍ مَا بِهِ لِلعَوَامِلِ تَأْثِيرٌ، وَأَنْتَ بِمَجْدِكَ جِمَاعُ أَبْوَابِ الظَّرْفِ، تَأْخُذُ نَفْسَكَ العَلِيَّةَ بِمُطَالَعَةِ بَابِ الصَّرْفِ، وَدَرْسِ حُرُوفِ العَطْفِ، وَتُدْخِلُ لَامَ التَّبْرِئَةِ عَلَى مَا حَدَثَ مِنْ عَتْبِكَ، وَتُوجِبُ بَعْدَ النَّفْيِ مَا سَلَفَ مِنْ قُرْبِكَ، وَتَدَعُ أَلِفَ الأُلْفَةِ أَنْ تَكُونَ بَعْدُ مِنْ حُرُوفِ اللِّيْنِ، وَتَرْفَعُ للإِضَافَةِ بَيْنَنَا وُجُودَ التَّنْوِينِ، وَتَسُومُ سَاكِنَ الوُدِّ أَنْ يَتَحَرَّكَ وَمُعْتَلَّ الإِخَاءِ أَنْ يَصِحَّ.

وَكِتَابِي هَذَا حَرْفُ صِلَةٍ فَلا تَحْذِفْهُ، وَلَا تَدُلَّ فِي اسْمِ الجَوَابِ عَلَى سَرْوِكَ فَاصْرِفْهُ. فِيْهِ الأُنْسُ -وَالأُنْسُ ثُلاَثِيٌّ- فَلا تُرَخِّمْهُ، وَفِعْلٌ مَاضٍ فَلا تَجْزِمْهُ، حَتَّى تَعُودَ الحَالُ الأُوْلَى صِفَةً، وَتَصِيرَ هَذِهِ النَّكِرَةُ مَعْرِفَةً، فَأَنْتَ -أَعَزَّكَ اللهُ- مَصْدَرُ فِعْلِ السَّرْوِ وَالنُّبْلِ، وَمِنْكَ اشْتِقَاقُ اسْمِ السُّؤْدُدِ وَالفَضْلِ.

وَإِنَّكَ -وَإِنْ تَأَخَّرَ العَصْرُ بِكَ- كَالفَاعِلِ وَقَعَ مُؤَخَّراً، وَعَدُوُّكَ -وَإِنْ تَكَبَّرَ- كَالكُمَيْتِ لَمْ يَقَعْ إِلَّا مُصَغَّراً.

وَلِلأَيَّامِ عِلَلٌ تَبْسُطُ وَتَقْبِضُ، وَعَوَامِلُ تَرْفَعُ وَتَخْفِضُ، فَلا دَخَلَ عَرُوضَكَ قَبْضٌ، وَلَا عَاقَبَ رَفْعَكَ خَفْضٌ، وَلازِلْتَ مُرْتَبِطاً بِالفَضْلِ شَرْطُكَ وَجَزَاؤُكَ، جَارِياً عَلَى الرَّفْعِ سَرْوُكَ الكَرِيمُ وَسَنَاؤُكَ، حَتَّى يُخْفَضَ الفِعْلُ، وَتُبْنَى عَلَى الكَسْرِ بَعْدُ وَقَبْلُ، إِنْ شَاءَ اللهُ»[1].

---

١ – **الذخيرة : ٣/ ٢/ ٥٤٦-٥٤٨، إحكام صنعة الكلام: ١٣٧ -١٤٠، نفح الطيب: ٥٣٧/١**

١٢ – الذم

فصل:

يُقَـــاسُ الـــمَرْءُ بِالـــمَرْءِ إِذَا مَـــا الـــمَرْءُ مَاشَـــاهُ

وفِي الشَّـــيْءِ مِـــنَ الشَّـــيْءِ عَلَامَـــــاتٌ وَأَشْـــــبَاهُ

مَا أَنْتَ وَالعِتْرَةُ الفُلَانِيَّةُ، إِنَّمَا هُمْ أَجْنَاسٌ، كُلُّهُمْ أَنْجَاسٌ، إِلَّا الشَّاذَّ فِيْهِمْ، والنَّادِرَ مِنْهُمْ، وَقَلِيْلٌ مَا هُمْ، وَأَمَّا فُلَانٌ مِنْهُمْ:

فَهْـــوَ الخَبِيْـــثُ عَيْنُـــهُ فِـــرَارُهُ[1]

أَطْلَـــسُ يُخْفِـــي شَخْصَـــهُ غُبَـــارُهُ

فِي شِـــــدْقِهِ شَفْـــــرَتُهُ وَنـــــارُهُ

مَا شَبَّ حَتَّى سَبَّ، وَلَا نَفَثَ حَتَّى رَفَثَ، وَلَا زُرَّ لَهُ جَيْبٌ، إِلَّا عَلَى عَيْبٍ، وَلَا نِيْطَتْ بِهِ تَمِيْمَةٌ، إِلَّا عَلَى نَمِيْمَةٍ، فَهُوَ إِذَا حَضَرَ أُذُنُ وَعْيٍ، وَعَيْنُ رَعْيٍ، وَبِظَهْرِ الغَيْبِ إِنْسَانُ ظَنَّةٍ، ولسانُ غِيبةٍ، لَا يَشْتَمِلُ ثَوْبُهُ إِلَّا عَلَى شَخْصِ نَقْصٍ، وجَسَدِ حَسَدٍ، لَا يَهْدَأُ شَرُّهُ وَلَا يُطْفَأُ شَرَارُهُ، وَلَا يَغُرَّنَّكَ لِيْنُ أَعْطَافِهِ، وَلُدُوْنَةُ كَلِمَتِهِ، فَإِنَّ الحَيَّةَ لَيِّنَةُ المَلْمَسِ، لَدْنَةُ المجَسِّ، فَإِنْ لَحِظْتَهُ –عَافَاكَ اللهُ– فَلَحْظاً شَزْراً، أَوْ جَاذَبْتَهُ الحَدِيْثَ فَقَلِيْلاً نَزْراً،

كَمَـــا يَمَـــسُّ بِظَهْـــرِ الحَيَّـــةِ الفَـــرِقُ[2]

وَإِنَّهُ لَيَحْضُرُ النَّدِيَّ، فَيَحْفَظُ مَا يُلْفَظُ، وَيَلْتَقِطُ مَا يَسْقُطُ، فَهُوَ كَاتِبُ الشِّمَالِ، غَيْرَ أَنَّهُ إِنْ مَرَّتْ بِهِ فِي صَحِيْفَةِ ذِكْرِكَ حَسَنَةٌ سَامَهَا بَشْراً، أَوْ عَثَرَ بِسيِّئَةٍ كَتَبَهَا عَشْراً، لَا يُعْنَى إِلَّا بِعَرَضٍ غَرَضٍ، فَاسْتَعِذْ بِاللهِ مِنْ شَيْطَانِهِ، وَتَوَقَّ مِنْ مُوْبِقَاتِ أَشْطَانِهِ»[3] .

---

١ – **الذخيرة في الرجز لمجهول في وصف الذئب ، انظر ذيل الأمالي :١٢٩/٣، البيان والتبيين : ١٥٠/١**

٢ **الذخيرة عجز بيت للحارث بن خالد المخزومي ، وصدره : تعطيك شيئاً قليلاً وهي خائفة**
انظر : نسب قريش: ١٩٢، زهر الآداب: ٢٨٨/١، تاريخ دمشق: ٤١٨/١١.

٣ – **الذخيرة في محاسن أهل هذه الجزيرة : ٣/ ٢/ ٥٦١ – ٥٦٢**

كتب المؤلّف المطبوعة

١-**كشف الأسرار عن حِكَم الطيور والأزهار** لابن غانم المقدسي، دراسة وتحقيق (بالمشاركة)، دمشق، (١٩٨٩) .

٢- **شعر ابن شُخيص الأندلسي**، دراسة وجمع، دمشق، (١٩٩٢).

٣- **غريب القرآن على حروف المعجم** لابن عُزيز السجستاني، دراسة وتحقيق، دمشق، (١٩٩٣).

٤- **وصف البحر في الشعر الأندلسي**، دراسة فنّيّة، دمشق، (١٩٩٤) .

٥- **الشعر العربي الأندلسي بين المشرقيّة والأندلسيّة**، دراسة فنّيّة، دمشق ، (١٩٩٦).

٦- **شعر أبي مروان الجزيري الأندلسي**، دراسة وجمع وتحقيق، دمشق، (١٩٩٧) .

٧- **عَلَم الدين اللّورَقي الأندلسي؛ حياته وقصيدته الميميّة** ، دراسة وتحقيق، دمشق، (١٩٩٨).

٨- **معدِّل الصلاة** للإمام البركوي، دراسة وتحقيق (بالمشاركة)، دمشق، (١٩٩٩).

٩- **شراع**، مجموعة شعريّة، دمشق، (٢٠٠٠) .

١٠- **الروض الأنيق والوعظ الرشيق** لابن غانم المقدسي،دراسة وتحقيق، دمشق، (٢٠٠١) .

١١ - **في تحليل الأسلوب الأدبي** لابن غانم المقدسي، دراسة فنّيّة، دمشق، (٢٠٠٤)

١٢ - **شعر ابن هذيل القرطبي الأندلسي**، دراسة وجمع، دمشق، (٢٠٠٥)

١٣- **شعر إدريس بن اليمان اليابسي الأندلسي**، دراسة وجمع، دمشق، (٢٠٠٦)

١٤- **الفتوحات الغيبيّة في الأسرار القلبيّة**، لابن غانم المقدسي، دراسة وتحقيق، دمشق، (٢٠٠٧) .

١٥ - **محمّد بن الحسين الطبني الأندلسي؛ حياته ومجموع شعره**، دراسة وجمع، حلب، (٢٠١٢) .

١٦- **المهنّد البغدادي الأندلسي؛ حياته ومجموع شعره**، دراسة وجمع، حلب، (٢٠١٢) .

١٧ - **الشاعر الوزير المؤذّن عبيد الله بن يحيى بن إدريس الأندلسي؛ حياته ومجموع شعره**، دراسة وجمع، حلب، (٢٠١٢) .

١٨ - **صاعد اللغوي البغدادي الأندلسي**؛ حياته ومجموع شعره، دراسة وجمع، حلب، (٢٠١٢) .

١٩ – **تحليل أسلوبي لقصيدة أبي تمّام في الصداقة**، دراسة فنّيّة، حلب (٢٠١٣)

٢٠ – **ابن خفاجة الأندلسي؛ حياته وروائع أدبه** ، دراسة ، حلب، (٢٠١٤) .

٢١– **تاريخ الشعر الأندلسي**؛ دراسة تأصيليّة، حلب، (٢٠١٥).

٢٢- **تاريخ الزجل الأندلسي**، دراسة تأصيليّة، حلب، (٢٠١٧).

٢٣- **الشعر الأندلسي والمغربي**، دراسة تأصيليّة، حمص، (٢٠١٨).

٢٤- **دراسات في الشعر الأندلسي**، دراسة تأصيليّة، حلب، (٢٠١٨-٢٠١٩).

٢٥- **عبادة بن ماء السماء، شعره وموشحاته**، حلب، (٢٠٢٠).

٢٦- **ابن شمر الأندلسي، حياته ومجموع شعره**، دراسة وجمع، حلب، (٢٠٢١).

٢٧- **دراسات في النثر الأندلسي**، دراسة تأصيليّة، حلب، (٢٠٢١-٢٠٢٢).

٢٨- **تحليل نصوص من الأدب الأندلسي**، دراسة تحليليّة، حلب، (٢٠٢٢-٢٠٢٣)

٢٩- **شعر الرصافي البلنسي الرفّاء**، دراسة وجمع، دمشق، (٢٠٢٣).

تمّ تدقيق الكتاب علميّاً من قبل

الأستاذة الدكتورة	الأستاذ الدكتور	الأستاذ الدكتور
رئيفة أبو راس	أحمدعبد القادر دواليبي	أحمد زكريّا ياسوف

حقوق الطبع والترجمة والنشر محفوظة
لمديريّة الكتب والمطبوعات الجامعيّة